

الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم

فراس السواح

الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم

تأليف
فراس السواح



الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم

فراس السواح

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣١٤٥ ٧

صدر هذا الكتاب عام ١٩٨٩.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

المحتويات

الكتب الإلكترونية، هِبة العصر

في عام ١٩٧٠ بدأَت الأفكارُ العامة لكتابي الأول «مغامرة العقل الأولى» تَتشكَّل في ذهني، وعندما بذلتُ المُحاوَلات الأولى لكتابتها، شعرتُ بحاجةٍ إلى مَراجِع أكثر من المَراجِع القليلة التي في حَوزتي، فرُحتُ أبحث في منافذ بيع الكتب، وفي المراكز الثقافية التابعة لوزارة الثقافة السورية، وفي مكتبة جامعة دمشق؛ عن مَراجِع باللغة الإنجليزية فلم أجِد ضالَّتي، فتأكدَت لي استحالة إتمام المشروع وتوقفتُ عن الكتابة.

وفي عام ١٩٧١ قمت برحلةٍ طويلة إلى أوروبا والولايات المتحدة دامت ستة أشهر، رُحتُ خلالها أشتري ما يلزمني من مَراجِع وأشحنها بالبريد البحري إلى سوريا، وعندما عدتُ شرعت في الكتابة وأنجزت الكتابَ في نحو سنة ونصف. بعد ذلك رُحتُ أستعين بأصدقائي المُقِيمين في الخارج لإمدادي بما يلزمني من مَراجِع، وكانت مهمةً شاقة وطويلة تستنفد المالَ والجهد، وكان عمل الباحث في تلك الأيام وفي مثل تلك الظروف عملًا بطوليًّا، إن لم يكن مهمةً مستحيلة.

بعد ذلك ظهر الحاسوب الشخصي في أوائل الثمانينيات، ثم تأسَّسَت شبكةُ الإنترنت التي لعبَت دورًا مُهمًّا في وضع الثقافة في مُتناوَل الجميع، ووفَّرَت للباحثين ما يلزمهم من مَراجِع من خلال الكتب الإلكترونية المجانية أو المدفوعة الثمن، فأزاحَت همَّ تأمينِ المَراجِع عن الكاتب الذي يعيش في الدول النامية، ووصَّلَته بالثقافة العالَمية من خلال كبسةِ زرٍّ على حاسوبه الشخصي.

لقد صار حاسوبي اليومَ قطعةً من يدي لا أَقدر على الكتابة من دونه، مع إبقائي استخدام القلم في الكتابة، لا برنامج الوورد. ولرد الجميل للإنترنت، أردتُ لطبعةِ الأعمال الكاملة لمُؤلَّفاتي التي صدرت في ٢٠ مجلدًا، أن تُوضَع على الشبكة تحت تصرُّفِ عامةِ القُراء والباحثين، واخترتُ «مؤسسة هنداوي» لحملِ هذه المهمة؛ لأنها مؤسسةٌ رائدة في

النشر الإلكتروني، سواءٌ من جهةِ جودةِ الإخراج أو من حيث المواضيع المتنوِّعة التي تُثرِي الثقافة العربية.

جزيل الشكر لـ «مؤسسة هنداوي»، وقراءة ممتعة أرجوها للجميع!

مقدمة لطبعة الأعمال غير الكاملة

عندما وضعتُ أمامي على الطاولة في «دار التكوين» كومةَ مُؤلَّفاتي الاثنين والعشرين ومخطوطَ كتابٍ لم يُطبَع بعد، لنبحث في إجراءاتِ إصدارها في طبعةٍ جديدة عن الدار تحت عنوان «الأعمال الكاملة»، كنتُ وأنا أتأمَّلها كمَن ينظر إلى حصاد العمر. أربعون عامًا تَفصل بين كتابي الأول «مغامرة العقل الأولى» والكتابِ الجديد «الله والكون والإنسان»، ومشروع تَكامَل تدريجيًّا دون خطةٍ مُسبقة في ثلاثٍ وعشرين مُغامَرة هي مشروعي المعرفي الخاص الذي أحببتُ أن أُشرِك به قُرَّائي. وفي كل مُغامَرة كنت كمَن يَرتاد أرضًا بِكرًا غير مطروقة ويكتشف مَجاهِلها، وتقودني نهايةُ كل مُغامَرة إلى بدايةٍ أخرى على طريقةِ سندباد الليالي العربية. ها هو طرفُ كتاب «مغامرة العقل الأولى: دراسة في الأسطورة» يبدو لي في أسفل الكومة. أسحبه وأتأمَّله، إنه في غِلاف طبعته الحادية عشرة الصادرة عام ١٩٨٨، التي عاد ناشِرها إلى غلاف الطبعة الأولى الصادرة عام ١٩٧٦، الذي صمَّمه الصديق الفنان «إحسان عنتابي»، ولكن ألوانه بهتَت حتى بدَت وكأنها بلون واحد لعدم عنايةِ الناشر بتجديدِ بلاكاتها المتآكلة من تعدُّد الطبعات التي صدرت منذ ذلك الوقت. وفي حالة التأمل هذه، يَخطر لي أن هذا الكتاب قد رسَم مسارَ حياتي ووضعني على سكةٍ ذاتِ اتجاهٍ واحد؛ فقد وُلِد نتيجةَ ولعٍ شخصي بتاريخ الشرق القديم وثقافته، وانكبابٍ على دراسةِ ما أنتجَته هذه الثقافة من مُعتقَدات وأساطير وآداب، في زمنٍ لم تكن فيه هذه الأمور موضعَ اهتمامٍ عام، ولكنني لم أكن أُخطِّط لأن أغدو مُتخصِّصًا في هذا المجال، ولم أنظر إلى نفسي إلا كهاوٍ عاكفٍ بجدٍّ على هوايته. إلا أن النجاح المدوِّي للكتاب — الذي نفَدَت طبعته الأولى الصادرة عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق في ستة أشهر، ثم تَتابَعت طبعاته في بيروت — أشعرني بالمسئولية؛ لأن القراء كانوا يَتوقَّعون مني عملًا آخَر ويتلهفون إليه.

إن النجاح الكبير الذي يَلْقاه الكتاب الأول للمُؤلِّف يضعه في ورطةٍ ويفرض عليه التزاماتٍ لا فَكاكَ منها، فهو إما أن ينتقل بعده إلى نجاحٍ أكبر، أو يسقط ويَئُول إلى النسيان عندما لا يتجاوز نفسَه في الكتاب الثاني. وقد كنتُ واعيًا لهذه الورطة، ومُدرِكًا لأبعادها، فلم أَتعجَّل في العودة إلى الكتابة، وإنما تابعتُ مَسيرتي المعرفية التي صارت وقفًا على التاريخ العام والميثولوجيا وتاريخ الأديان. وعامًا بعد عام، كان كتاب «لغز عشتار» يَتكامَل في ذهني وأعدُّ له كلَّ عُدَّة ممكنة خلال ثمانية أعوام، ثم كتبتُه في عامين ودفعته إلى المطبعة فصدر عام ١٩٨٦؛ أيْ بعد مرور عشر سنوات على صدور الكتاب الأول، وكان نجاحًا مُدوِّيًا آخَر فاق النجاحَ الأول، فقد نفَدَت طبعتُه الأولى، ٢٠٠٠ نسخة، بعد أقل من ستة أشهر، وصدرت الطبعة الثانية قبل نهاية العام، ثم تتالت الطبعات.

كان العمل الدَّءُوب خلال السنوات العشر الفاصلة بين الكتابَين، الذي كان «لغز عشتار» من نواتجه، قد نقلني من طور الهواية إلى طور التخصُّص، فتفرَّغتُ للكتابة بشكل كامل، ولم أفعل شيئًا آخَر خلال السنوات الثلاثين الأخيرة التي أنتجتُ خلالها بقية أفراد أسرة الأعمال الكاملة، إلى أن دعَتني جامعة بكين للدراسات الأجنبية في صيف عام ٢٠١٢ للعمل مُحاضرًا فيها، وعهدَت إليَّ بتدريس مادة تاريخ العرب لطلاب الليسانس، ومادة تاريخ أديان الشرق الأوسط لطلاب الدراسات العليا، وهناك أنجزتُ كتابي الأخير «الله والكون والإنسان». على أنني أفضِّلُ أن أدعو هذه الطبعة بالأعمال غير الكاملة، وذلك على طريقةِ الزميلة «غادة السمان» التي فعلت ذلك من قبلي؛ لأن هذه المجموعة مُرشَّحةٌ دومًا لاستقبالِ أعضاءٍ جُدد ما زالوا الآن في طي الغيب.

وعلى الرغم من أنني كنت أخاطب العقل العربي، فإني فعلتُ ذلك بأدواتِ البحث الغربي ومناهجه، ولم أكن حريصًا على إضافة الجديد إلى مساحة البحث في الثقافة العربية، قَدْر حرصي على الإضافة إلى مساحة البحث على المستوى العالمي، وهذا ما ساعدني على اختراق حلقة البحث الأكاديمي الغربي المُغلَقة، فدعاني الباحث الأميركي الكبير «توماس تومبسون» المُتخصِّص في تاريخ فلسطين القديم والدراسات التوراتية إلى المشاركة في كتابٍ من تحريره صدر عام ٢٠٠٣ عن دار T & T Clark في بريطانيا تحت عنوان:

Jerusalem in History and Tradition

ونشرتُ فيه فصلًا بعنوان:

Jerusalem during the Age of Judah Kingdom

كنتُ قد تعرَّفت على «تومبسون» في ندوةٍ دولية عن تاريخ القدس في العاصمة الأردنية عمان عامَ ٢٠٠١، شاركت فيها إلى جانبِ عددٍ من الباحثين الغربيين في التاريخ وعلم الآثار، وربطَت بيننا صداقةٌ متينة استمرت بعد ذلك من خلال المُراسَلات، إلى أن جمعَتنا مرةً ثانية ندوةٌ دولية أخرى انعقدَت في دمشق بمناسبة اختيار القدس عاصمةً للثقافة العربية، وكانت لنا حواراتٌ طويلة حول تاريخ أورشليم القدس وما يُدعى بتاريخ بني إسرائيل، واختلفنا في مسائلَ عديدةٍ أثارها «تومبسون» في ورقة عمله التي قدَّمها إلى الندوة. وكان الباحث البريطاني الكبير «كيث وايتلام» قد دعا كلَيْنا إلى المشاركة في كتابٍ من تحريره بعنوان:

The Politics of Israel's Past

فاتفقنا على أن نثير هذه الاختلافات في دراستَينا اللتين ستُنشَران في ذلك الكتاب، وهكذا كان. فقد صدر الكتاب الذي احتوى على دراسات الباحثين من أوروبا وأميركا عام ٢٠١٣ عن جامعة شيفلد ببريطانيا، وفيه دراسةٌ لي عن نشوءِ الديانة اليهودية بعنوان:

The Faithful Remnant and the Invention of Religious Identity

خصَّصتُ آخِرَها لمناقشة أفكار «تومبسون»، ولـ «تومبسون» دراستان الأولى بعنوان:

What We Do and Do Not Know about Pre-Hellenistic Al-Quds

والثانية خصَّصها للرد عليَّ بعنوان:

The Literary Trope of Return – A Reply to Firas Sawah

أي: العودة من السَّبْي كمجاز أدبي – رد على فراس السواح.

الكتاب يشبه الكائن الحي في دورة حياته؛ فهو يُولَد ويعيش مدةً ثم يختفي ولا تجده بعد ذلك إلا في المكتبات العامة، ولكن بعضها يقاوم الزمن وقد يَتحوَّل إلى كلاسيكيات لا تخرج من دورة التداول. وقد أطال القُرَّاء في عمر مُؤلَّفاتي حتى الآن، ولم يَختفِ أحدها من رفوف باعة الكتب، أمَّا تحوُّل بعضها إلى كلاسيكيات فأمرٌ في حُكم الغيب.

فإلى قُرَّائي في كلِّ مكان، أهدي هذه الأعمالَ غير الكاملة مع محبتي وعرفاني.

فراس السواح

بكين، كانون الثاني (يناير) ٢٠١٦

مقدمة

لقد غدا من نافلة القول اليوم التحدُّث عن صحة المرويات التوراتية من الناحية التاريخية، أو المجادَلة في إمكانية اعتمادها مرجعًا على هذه الدرجة من المصداقية أم تلك. ذلك أن المعلومات التاريخية والأركيولوجية التي توفَّرت لدى الباحثين خلال النصف الثاني من القرن العشرين، قد أظهرت بجلاء الطابع غير التاريخي لهذه المرويات، وعدم اتِّساقها مع تاريخ فلسطين وبقية مناطق الشرق الأدنى القديم خلال مُعظَم الفترة التي تُغطيها الأسفار التوراتية. ولقد بدأت ملامح هذا المأزق التاريخي لكتاب التوراة تتوضح منذ العقد الأخير للقرن التاسع عشر، عندما قال بعض الباحثين المرموقين من أمثال E. Meyer و Gunkel، ومنذ ذلك الوقت المبكر، بأن الأسفار التوراتية ليست تاريخًا مُوثَّقًا يُمكن الركون إليه، وأن مصدرها الرئيسي هو الحكايا الشعبية والملاحم والقصص البطولي؛ مما كان مُتداولًا شفاهًا في فلسطين والمناطق المجاورة زمن تحرير أسفار الكتاب. ورغم أن هذا الاتجاه التحرري المبكر قد جرى تعطيله من قِبَل مُدرسة «علم الآثار التوراتي» التي أخذت أفكارها بالانتظام فيما بين عامي ١٩٢٠ و١٩٣٠م بتأثير العلَّامة وليم فوكسويل أولبرايت في أمريكا، ومارست سلطة قوية على الدراسات التوراتية حتى ستينيات القرن العشرين، إلا أن ما أفاضَت به التنقيبات الأركيولوجية الجديدة في فلسطين منذ العقدَين الأخيرين من القرن العشرين، لم يترك من الباحثين الجادين مَن يناقش في صحة الخبر التوراتي، إلا بقية مُتعنتة من تلامذة أولبرايت تجمعها مجلة «علم الآثار التوراتي» الأمريكية التي يرأس تحريرها الباحث اليهودي المعروف هرشل شانكس.

من هنا، فقد كان مِن المُستغرب أن يأتي الهجوم المضاد على الاتجاه الجديد المتحرِّر من اللاهوت التوراتي من قِبل مؤرخ عربي هو الدكتور كمال الصليبي، لا من أية جهة علمية رصينة في الغرب. لقد أدرك الدكتور الصليبي أن الدفاع عن تاريخية التوراة وفق

المعطيات العِلمية الراهنة هو مسألة خاسرة، فقام بالتفافة بارعة على المشكلة برمتها ونقل مسرح الحدث التوراتي في فلسطين إلى منطقة غرب شبه الجزيرة العربية. وبذلك تمت حماية المرويات التوراتية من أية مقارنة جدية مع وقائع علم الآثار وعلم التاريخ؛ لأنَّ المنطقة الجديدة للتوراة مجهولة تقريبًا من الناحية التاريخية والأركيولوجية. وهو إذ يُكرِّر عبر فصول كتابه «التوراة جاءت من جزيرة العرب» بأنَّ المرويات التوراتية قد وقعت بحذافيرها وكما سجلها أحبار اليهود، فإنه يَنطلِق من موقع آمن من هجوم علم الآثار وعلم التاريخ. كما عمد الدكتور الصليبي إلى حماية نظريته بسور دفاعي آخر عندما تجاهَل كليةً مناهج البحث التاريخي ولجأ إلى المنهج اللغوي المقارن، مظهرًا براعةً فائقة في قراءة النصوص العبرية التوراتية وتأويلها، وبراعةً لا تقلُّ عنها في دراسة وتحليل أسماء المواقع في منطقة غرب شبه الجزيرة العربية ومطابقتها على أسماء المواقع التوراتية.

إنَّ المشكلة التي خلَّفها وراءه الدكتور الصليبي لا تَكمن في محتوى نظريته بالدرجة الأولى، بل في المنهج غير التاريخي الذي طبَّقه على مسألة تاريخية في غاية الحساسية؛ ذلك أنَّ المقولات غير المدعَّمة علميًّا تصدر عن مُؤرِّخٍ مرموقٍ، يُمكن أن تقود إلى مزالقَ ومتاهات أكثر مما تُوصِّل إلى حقائق تُساهم في النهضة التي يشهدها علم التاريخ وعلم الآثار اليوم في هذه المنطقة من العالم. وقد ساعدت هذه المقولات بالفعل بعض المؤلفين المتأثِّرين بالدكتور الصليبي على تجاهُل المنهج التاريخي لصالح التبرير والرؤية الانفعالية والأيديولوجية لأحداث التاريخ.

إن ما يلي من صفحات هذا الكتاب هو حوار عِلمي هادئ، يستند إلى الحقائق التاريخية والآثارية في مقابل المنهج اللغوي الأحادي لكمال الصليبي، وفي مقابل المواقف الانفعالية والأيديولوجية التي يصدر عنها آخرون. ويتوجَّب عليَّ أن ألفت نظر القارئ الكريم، منذ البداية، إلى أن التوكيد على منطقة فلسطين كمَسرحٍ للحدث التوراتي لا يتضمَّن الإقرار بتاريخية هذا الحدث. ذلك أن مُحرِّري التوراة الذين عكفوا على تدوين أسفاره منذ أواخر القرن السادس قبل الميلاد، كانوا يَهدفون إلى التأصيل للديانة اليهودية التي أخذت ملامحها بالتوضح عقب عودة بقية سبي يهوذا من بابل، وابتكار جذورٍ للمُعتقَد التوراتي تضرب في تاريخ فلسطين القديم. وقد عمدُوا في سبيل ذلك إلى الاستفادة من كل ما وقع تحت أيديهم من أخبار مملكتي إسرائيل ويهوذا، (وهما مملكتان فلسطينيتان محليتان لم تَعرفا قط الديانة اليهودية) وفسَّروا هذه الأخبار بما يتلاءم والأيديولوجيا التوراتية، إضافةً إلى استخدامهم لمادة قصصية شعبية شائعة في المنطقة تَروي أحداثًا مُغرقة في القدم ويختلط

فيها التاريخ بالخرافة، وصاغوا من كل ذلك روايةً مُضطربة مليئة بالفجوات والثغرات. كما أريد أن ألفت النظر أيضًا إلى مسألةٍ تتعلَّق بأهداف هذا الكتاب، فنحن لسنا معنيين حقًّا بموطن التوراة ولا نُعير كبير اهتمامٍ للتاريخ اليهودي، ولكنَّنا معنيون بالدرجة الأولى بترسيخ أصول منهجٍ علمي في دراسة تاريخ هذه المنطقة. من هنا ينبغي أن يُفهم هذه الكتاب باعتباره أطروحةً في الدفاع عن المنهج، لا وقوفًا إلى جانب هذه الفِكرة أو تلك.

فراس السواح
دمشق، كانون الثاني (يناير) ١٩٨٨م

تنويه من أجل الطبعة السادسة

لقد أنجزتُ هذا الكتاب خلال عامي ١٩٨٧–١٩٨٨م، وكانت مَراجعي في علم آثار فلسطين تنتمي بالطبع إلى سبعينيات القرن العشرين وما قبلها. ولكن هذا العلم كان يشهد خلال السبعينيات نشاطًا محمومًا من قِبَل فريقٍ من علماء الآثار الإسرائيليين قاموا بمسحٍ شامل للضفة الغربية التي قامت عليها مملكتا إسرائيل ويهوذا، مُزوَّدين بأحدث تقنيات التنقيب وبفريقٍ من الاختصاصيين في شتى العلوم المساعِدة لعلم الآثار، ولم تُنشَر نتائج هذا المسح وتوضع بين أيدي الباحثين إلا في أواسط الثمانينيات. واستنادًا إلى هذه النتائج يمكننا القول الآن بكل ثقةٍ علميةٍ أن ما يُدعى بالمملكة الموحدة لكلِّ إسرائيل بملوكها الثلاثة شاؤل وداود وسليمان لم يكن لها وجود خلال القرن العاشر قبل الميلاد، وهي الفترة المفترضة لقيامها، وأن عاصمتها أورشليم إما كانت مدينةً مهجورة، أو بلدة صغيرة لا يُعتدُّ بها ولا تَصلُح لأن تكون عاصمة لمملكة مهمَّة.

وبما أن هذه المعلومات الجديدة لم تكن في حوزتي أو في حوزة غيري خلال تأليفي لهذا الكتاب، فقد كنتُ أكتفي فقط بإثارة الشكوك كلما جئت للحديث عن هذه المملكة وحكامها وعاصمتها، دون أن أُبديَ في ذلك قولًا قاطعًا لأنني لم أكن أملك برهانًا يُخوِّلني ذلك. لهذا فإنني أنصح القارئ الراغب في الاطلاع على خلاصاتي في هذه المسألة الرجوع إلى مؤلفي «آرام دمشق وإسرائيل – في التاريخ والتاريخ التوراتي»، ومؤلَّفي الآخر «تاريخ أورشليم».

مدخل

أطروحات كمال الصليبي ونتائجها

لقد كان الأمر عبارةً عن اكتشافٍ تمَّ بالصدفة، يقول المُؤلِّف فبينما كان يبحث عن أسماء الأماكن ذات الأصول غير العربية في غرب شبه الجزيرة العربية، فُوجئ بوجود أرض التَّوراة كلها هناك، وذلك في منطقة بطول يَصِل إلى ٦٠٠ كيلومتر وبعرض يبلغ حوالي ٢٠٠ كيلومتر، تَشمل ما هو اليوم عسير والجزء الجنوبي من الحجاز. (انظر خريطة الصليبي رقم ١ في آخر كتابنا). وكان أول ما تنبَّه إليه أن في هذه المنطقة أسماء أَمكِنة كثيرة تُشبه أسماء الأمكنة المذكورة في التوراة. وسرعان ما تبيَّن له أن جميع أسماء الأمكنة التوراتية العالقة في ذهنِه، أو جلَّها، ما زال موجودًا فيها، وأن الخريطة التي نَستخلصها من نصوص التوراة في أصلها العِبري، سواء من ناحية أسماء الأماكن أو من ناحية القرائن أو الإحداثيات، تتطابق تمامًا مع خريطة هذه الأرض وهي كما يرى حقيقة ذات أهمية أولية، نظرًا لأنه لم يثبت بعدُ، في رأيه، تطابق الخريطة الموصوفة في التوراة مع الخريطة التي اعتبرت حتى الآن أنها كانت بلاد التوراة. وبما أنه لم يستطع العثور على مثل هذا التجمع لأسماء الأمكنة التوراتية، في صيغتِها عادةً، في أي جزء آخر من الشرق القديم، فقد قدَّم الاستنتاج المُذهل نفسه بنفسه: فاليهودية لم تُولد في فلسطين بل في غرب شبه الجزيرة العربية، ومسار تاريخ بني إسرائيل كما رُوي في التوراة، كان هناك في غرب شبه الجزيرة العربية، وليس في أيٍّ مكان آخر.[1]

---

[1] نحاول في هذا العرض الموجز والوافي لنظرية الصليبي اعتماد كلام المؤلِّف بحرفيته ما استطعنا إلى ذلك سبيلًا. وهو مأخوذ من مقدمته ومن الفصلين الأول والثاني من الترجمة العربية الصادرة عن مؤسسة

وبما أن التوراة عبارة عن نصوص بالغة القدم كُتبت أصلًا بأحرف أبجدية خالية من الحركات والضوابط، ولأنَّ لغة هذه النصوص قد خرجت عن إطار الاستعمال العام من زمن يعود إلى ما قبل القرن السادس والخامس قبل الميلاد؛ أي إلى ما بعد استكمال نصوص التوراة، فإنه لا يُمكن لأحد أن يعرف كيف كانت هذه اللغة تُلفظ وتصوت في الأصل لدى الشعب الذي تكلمها. هذا بِغض النظر عن مَسائل أخرى تتعلَّق بالتهجئة والصرف والنحو. ولقراءة التوراة العبرية وفهمها يَتوجَّب على الباحث إما أن يَتبع تقليد العبرية المتأخِّرة، أو أن يسعى إلى الإرشاد عبر اللغات السامية التي ما زالت حيةً مثل العربية، والسريانية التي هي صيغة مُستمرَّة من الآرامية القديمة. وعلى العموم فإنَّ من الأضمن للباحث في التوراة أن يَعتبر لغتها لغة مجهولة علميًّا، ويجب تفكيك رموزها من جديد بدلًا مِن معاملتها كلغة مكشوفة الأسرار فيما عدا بعض الغوامض.

إلا أنه بفضل الأمانة العِلميَّة الدقيقة التي تحلَّى بها «الماسوريون»، وهم العلماء اليهود التقليديون القدماء، الذين ضبطوا النصوص التوراتية بالإشارات الصوتية فيما بين القرن السادس والتاسع الميلاديَّين، فإن النص المكتوب بالأحرف الساكنة للتوراة العبرية وصل إلينا من القدم دون أن يُمس تقريبًا، رغم أن إدخال الحركات والضوابط عليه، بصورة اعتباطية في أحيان كثيرة، قد غيَّر إعراب الجُمل وحوَّر المعاني، وأدخل على نص التوراة تحريفات هي أضخم بكثير مما يتصوَّره علماء التوراة. ذلك أن عمل الماسوريين قد بدأ بعد مُضيٍّ ألف سنة على الوقت الذي كانت فيه العبرية لغةً حية ومتداولة. ومن هنا وصلتنا أسماء الأمكنة التوراتية بنصِّها العبري غير المصوت دون أن يَطالها تحريف أو تبديل. أما أسماء الأماكن في غرب شبه الجزيرة العربية فقد شهدت بعض التغيير في إطاري علم الأصوات وعلم التشكُّل الكلامي بعد حوالي ثلاثة آلاف سنة فصلت بين الصيغ التوراتية لهذه الأسماء ومَثيلاتها القائمة اليوم. وفي إطار التغييرات اللغوية التاريخية تبدو هذه الفترة الزمنية طويلة جدًّا، ولا بدَّ أنها استوعبت أكثر من تغيُّر لُغوي واحد جرى في بلاد الشرق القديم. ولكن المدهش فعلًا هو أن هذه الأسماء بقيَت في أكثرها قابلة للتميُّز الفوري في زيها العربي الراهن.

الأبحاث العربية ببيروت ١٩٨٥م. وقد أعدنا ترتيب التسلسل في أفكار المؤلِّف بطريقة رأيناها أفضل لإعطاء صورة واضحة ووافية عن نظريته في هذا الحيز الضيق دون أن نُغفل، على ما نعتقد، فكرة أساسية واحدة.

ولا يُمكن معرفة الكيفية التي كانت تُلفظ بها أسماء الأماكن التوراتية. وإذا أراد الباحث أن يُقارن بين الصيغتين المكتوبتين لهذه الأسماء بالعبرية التوراتية وبالعربية الحديثة، فعليه أن يأخذ في الاعتبار طبيعة الأبجدية السامية. هذه الأبجدية كانت تَقتصِر في الأصل على ٢٢ حرفًا ساكنًا، بما فيها الوقفة الحنجرية، أي الهمزة التي تُعتبر في اللغات السامية حرفًا ساكنًا، والحرفين شبه الصوتيين الواو والياء. ولكن النطق بهذه اللغات كان يَعتمِد حروفًا أكثر من هذه الحروف منذ البداية. وفي العبرية المتأخِّرة أُضيف حرف ساكن جديد إلى الأبجدية الأصلية بتنقيط الحرف المسمَّى سين، فصار يمكن تصويته كسين أو كشين. والعربية التي استعارت من شقيقاتها الساميات كتابتها استخدمت هي أيضًا الأبجدية ذات الأحرف الـ ٢٢ الأصلية في البداية، ومع مرور الزمن، أدخلت عليها لا أقلَّ من ستة أحرف جديدة بإضافة النقط إلى ستة أحرف كانت موجودة في الأصل. ولا شك أن الأمر نفسه كان ينطبق على العبرية في زمانها حيث عرفت لغة النطق عدة أحرف ساكنة لم تُكتب بأحرف مستقلة إلا في وقت مُتأخِّر. ولا بد أن الناطقين بالعبرية شأنهم شأن الناطقين بالعربية، كانوا يعُون العلاقة بين أحرف النطق وأحرف الكتابة هذه عن طريق الحدس. ولا يُستبعد إطلاقًا أن يكون المتكلمون بالعبرية في القِدَم قد تلفَّظوا بأحرف ساكنة لم يَكتبُوها، مثل الذال والضاد والظاء. وبناءً على هذا فلا بدَّ أن اللفظ العبري القديم لأسماء الأماكن التوراتية في غرب شبه الجزيرة العربية، كان أقرب إلى اللفظ العربي الحالي. والدراسة الميدانية للطريقة التي تُلفظ بها هذه الأسماء اليوم قد تُساعد كثيرًا على فهم طبيعة الفونولوجيا العبرية القديمة التي لم يُكشف سرها بعدُ.

ولكي يستطيع الباحث أن يتعرَّف على الأسماء التوراتية القديمة في صيغتها العربية والحديثة، لا بدَّ له من تتبُّع عملية القلب والاستبدال في الجذر المُشترك بين اللغتين العبرية والعربية، وهي ظاهرة مشهودة كثيرًا في اللغات السامية (زوج – جوز)، وكذلك عملية تحوُّلات الأحرف، فالأبجديتان تَشترِكان في ٢٢ حرفًا، وتَنفرِد العربية بستة أحرف هي: ث، خ، ذ، ض، ظ، غ. وهناك جذور كثيرة مُشتركة بين العبرية والتوراتية والعربية، وذلك دون تغيُّر في الأحرف في بعض الأحيان، ومع تحوُّل في الأحرف في أحيان أخرى. والتحولات في الأحرف التي يقرُّها علماء اللغات السامية بين اللغتين هي الآتية:

ء: و، ي ك: خ، ق

ج: غ، ق : ن (خصوصًا في لاحقة جمع المذكر)

د: ذ، ز	: م (خصوصًا في لاحقة جمع المذكر)
وأحيانًا ض، ط	ن: م
و: ء، ي	ع: غ
ز: ذ، ي	ف: ث
ض، ظ	ص: س، ض، ز، ظ
ح: خ	ق: ج، غ، ك
ط: ت	ش: س، ث
ي: ء، و	س: ش
	ت: ث، ط

ويُلاحَظ مِن المُقابلة بين أسماء الأماكن التوراتية، وتلك الموجودة إلى اليوم في غرب شبه الجزيرة العربية أن مُعظم هذه الأسماء قد تَعَرَّب في اللفظ وليس في المعنى. ولذلك فإنَّ التغيير في معظم هذه الأسماء قد تمَّ إما عن طريق قلب الأحرف، أو عن طريق تغيير الأحرف شبه الصوتية (ء، و، ي) دون الأحرف الصحيحة. ولم يتعرَّب من هذه الأحرف في أكثر الأحيان إلا الأحرف العبرية التي تقابل الأحرف الصحيحة. ولم يُعرَّب من هذه الأحرف في أكثر الأحيان إلا الأحرف العبرية التي تُقابل الأحرف العربية الإضافية (ث، خ، ذ، ض، ظ، غ)، والميم عندما تكون لاحِقة المُذكر العبرية، فتنقلب نونًا في العربية. ومن ناحية أخرى هناك أسماء أماكن عبرية ما زالت موجودة اليوم بشكل مُترجم لا بشكل مُعرَّب، مثل «شعلبيم» والتي هي اليوم «الثعالب» في صفة جمع التكسير العربي بدلًا من جمع المذكر في الاسم التوراتي. ويُلاحظ أيضًا أن حرف اللام في الأماكن التوراتية، مهما كان موضعه في التركيب، كثيرًا ما ينقلب إلى «ال» التعريف في الاسم المعرَّب؛ فالاسم «جلعد» يُصبح «الجعد» و«المعله» يصبح «المعلاة». أضف أن أداة التعريف العبرية وهي الهاء تنقلب إلى أداة التعريف العربية في مُعظَم الأحيان. وهناك أيضًا أسماء الأماكن التوراتية على وزن «يفعل» و«تفعل» التي تتحوَّل إلى العربية على وزن «فعل» و«فعله»؛ فالاسم التوراتي «يقطن» يصبح في شكله الحالي «قطن». والاسم «تعنك» يُصبح «عنقه».

والمقابلة بين الألفاظ في اللغات السامية تكون بمُقابلة التركيب الأساسي لهذه الألفاظ بين لغة وأخرى دون النظر إلى اللواحق وأحرف العلة عندما تكون مُعتمِدة فقط للتصويت. فاسم المكان التوراتي «شمرون» هو في الأصل «شمرن» بدون تصويت، يُقابله في العربية

اسم المكان «شمران» الذي هو أيضًا «شمرن». و«شبعة» التوراتية هي في الأساس «شبع» يُقابلها في العربية اسم «الشباعة» الذي هو أيضًا «شبع».

اعتمادًا على هذا المنهج في مقابلة الأسماء، عثر المؤلِّف على كامل الأرض التوراتية في غرب العربية. ولكي نُعطي فكرة عن هذه الأرض التوراتية التي وجدها كمال الصليبي، لا بدَّ من إيراد بعض الأمثلة عن أسماء الأماكن التوراتية التي عثر عليها هناك بأسمائها كما يقول، لنُوضِّح بشكل تطبيقي كيفية استخدامه لمنهجِه. وسنقوم فيما يأتي بتقسيم الأمثلة العشوائية التي أخذناها من الكتاب إلى زمرتَين. في الأولى أمثلة عن مقابلات تُؤدِّي إلى نتيجة فيها نظر، وفي الثانية أمثلة عن مقابلات جاءت نتيجة عمليات معقَّدة من القلب والاستبدال لا يُمكن تصور حصولها إلا نظريًّا.

الزمرة الأولى.

جرار «جرر»	القرارة (ص١٠١)
كنعان «كنعن»	القناع (ص١٠٢)
غزه «غز»	آل عزة (ص١٠٠)
صيدون «صيدن»	آل زيدان (ص٩٩)
صور «صر»	زور الوداعة (ص٣٤)
جبيل «جبل»	القابل (ص٣٥)
قادش «قدش»	عين قديس (ص٩٣)
سدوم «سدم»	دامس (ص٩٩)
عموره «عمره»	الغمز (ص٩٩)
مجدو «مجد»	مقدي (ص١١٩)
يافو «يف»	وفيه (ص١٢٠)

الزمرة الثانية.

نتينم «نتين»	طناطن (ص١٦١)
طباعوت «طبعوت»	العثابيات (ص١٦١)
برقوس «برقس»	الكرباس (ص١٦٤)
هسوفرت «هـ سفرت»	رصفة (ص١٦٥)

أدونيفام «ء د – نيقم» القائم (ص١٦٨)

فرعوش «فرعش» الجعافر (ص١٧٠)

مغبيش «مجبيش» مشاجيب (ص١٧٢)

زكاي «زكي» الضيق (ص١٧٣)

نفتوحيم «نفتحيم» المفاتيح (ص٢٤٩)

فتروسيم «فترسيم» الشرفات (ص٢٥٠)

كفتوريم «كفتريم» الرفقات (ص٢٥٠)

عقرون «عقرون» الجرعان (ص٢٥٣)

أورشليم «أورشليم» آل شريم (ص١٨٣)

إضافة إلى هاتَين الزمرتين هنام زمرة ثالثة لا تَحتوي على الكثير من الكلمات، فعندما لا يجد المؤلِّف مَوقعًا مُقابلًا للاسم التوراتي، يَعمد إلى الجمع بين اسمَين لموقعَين مُتجاورَين. فكَّر كميش، الموقع المعروف تاريخيًّا على الفرات في الشمال السوري، يجده في القريتَين المُتجاورتَين «القر» و«القماشه» في منطقة الطائف (ص٣٧)، وكأحد البدائل المُقترحة لأورشليم يضع القريتَين المتجاورتين «أروي» و«آل سلام» قرب النماص (ص١٨٣).

وإذا كان من الأضمن للباحث في التوراة أن يَعتبر لغتها العبرية لغة مجهولة يجب تفكيك رموزها مِن جديد، كما يقول المؤلف، فإنه يَنظر إلى النص التوراتي بأحرفه الساكنة ويَقرُؤه بعيدًا عن التصويت التقليدي، مخالفًا في قراءته الخاصة للأمثلة التي يقدمها، ليس فقط النص الماسوري العبري المحرك، وهو النص العبري الكامل الوحيد، بل كلُّ الترجمات التي وضعت للكتاب منذ الترجمة اليونانية المعروفة بالسبعينية التي تمَّت أواسط القرن الثالث قبل الميلاد. ثم يُضيف إلى ذلك وجهات نظر خاصة جدًّا في نحوِ وصرف اللغة العبرية لم يَقُل بها أحد من علماء التوراة قديمهم وحديثهم، ويعمد إلى استنباط معانٍ جديدة لبعض الكلمات العبرية استنادًا إلى اللغة العربية أو الآرامية.

هذا الاكتشاف المذهل، كما يَصفُه المؤلف، والذي جاء نتيجة مقابلة الأسماء، قد قادَه إلى تقديم الأطروحة الرئيسة لكتابه. ففي دراسته تنقلب الأمور رأسًا على عقب، وبدلًا من أخذ جغرافية التوراة العبرية كمُسَلَّمة ومناقشة صحتها التاريخية، فإنه يأخذ تاريخيتها كمسلَّمة ويُناقش جغرافيتها. فمن بين شعوب الشرق الأدنى القديم، يبدو أن بني إسرائيل كانوا وحدهم المالكين لإحساس مرهف بالتاريخ، وتقدم كتبهم المقدسة رسمًا ذاتيًّا حيًّا

ومُفصَّلًا. وعليه فليس هناك أدنى شك بأن أسلاف الإسرائيليين كانوا ذات يوم قومًا قبليًّا وقع في الأسر وأُجبر على العمل والسخرة في مكان يُسمى «مصريم»، لم يكن بالضرورة مصر، وأنهم خرجوا من هناك برعاية قائد يُسمَّى موسى نظمهم في مجتمع ديني وأعطاهم الشريعة، وأنهم عبروا نقطة معينة تُسمى «هـ يردن» ليست بالضرورة نهر الأردن ليستقرُّوا في أرض كانت لهم عليها أخيرًا السيطرة السياسية، وهي ليست من حيث المبدأ فلسطين. وبعد عصر القضاة والمملكة الموحدة تحت راية شاول فداود فسليمان، تابع التاريخ الإسرائيلي مساره كما ذكرت التوراة العبرية أنه فعل.

ولكن افتراض أن كل هذا التاريخ حصل في فلسطين، ودراسة النصوص التوراتية على هذا الأساس سيُؤدي إلى الإبقاء على بحر من الأسئلة بلا جواب. ولكن إذا نقلت جغرافية التوراة من فلسطين إلى غرب شبه الجزيرة العربية، لا تبقى هناك أي صعوبة وتُصبح الصورة التاريخية العامة للتوراة العبرية، التي هي الوحيدة التي تروي القصة الكاملة لأحد شعوب الشرق الأدنى القديم، مفتاح اللغز لكل الأحاجي الغامضة لتاريخ الشرق القديم، بدلًا من أن تكون هي نفسها الأُحجية وهي بعيدة كل البُعد عن كونها ذلك.

أما لماذا كانت نصوص التوراة بمثابة اللغز في تاريخ الشرق القديم فيرجع كما يرى المؤلف إلى أن الدراسات والأبحاث الضخمة التي أنتجها علماء الآثار والباحثون التوراتيون خلال مائة السنة الأخيرة، تَلفت النظر إلى أمر في غاية الغرابة. ففي حين أن تاريخية عدد مِن الروايات التوراتية بقيت عُرضةً للنقاش الحادِّ، فإنَّ جغرافية هذه الروايات استمرَّت معتبرةً من المسلَّمات، والحقيقة الساطعة هي أن الأراضي الشمالية للشرق الأدنى قد مُسحت وحُفرت من قِبَل أجيال مِن علماء الآثار، من أقصاها إلى أقصاها، وأن بقايا العديد من الحضارات المنسية قد نُبشت من تحت الأرض ودُرست وأُرِّخت، في حين أنه لم يُعثَر في أي مكان كان على أثر واحد يمكنه أن يُصنَّف جديًّا على أنه يتعلق مباشرة بالتاريخ التوراتي. وأكثر من ذلك، فإن التوراة العبرية تذكر الآلاف من أسماء الأمكنة، وليس بين هذه أكثر من قلة قليلة تماثَلَت لُغويًّا مع أسماء أمكنة في فلسطين. وحتى في هذه الحالة فإن الإحداثيات المُعطاة في النصوص التوراتية لا تنطبق على المواقع الفلسطينية.

ومع أنه قد جرى التحقيق في كامل ميدان التاريخ القديم للشرق الأدنى بعمق، وبالعلاقة مع دراسة التوراة العبرية، فإن هذا التاريخ، في الموقع الذي هو فيه حاليًّا، ما زال مليئًا بألغاز عدم اليقين، مثله مثل علم التوراة الحديث. وسجلات مصر والعراق القديمة التي قُرئت على ضوء النصوص التوراتية، والتي أُخذت تلميحاتها الطبوغرافية تقليديًّا

على أنها تتعلَّق بفلسطين والشام ومصر والعراق، أُجبرت على إعطاء مُؤشِّرات جغرافية أو تاريخية تتوافَق مع الأحكام المُسبقة لدى الباحثين التوراتيين، والحملات المصرية والآشورية التي فُهمت على أنها كانت موجَّهة ضد فلسطين وبلاد الشام، كانت في الواقع موجَّهة نحو غرب شبه الجزيرة العربية. وأخبار هذه الحملات إذا قُرئت في نصوصها الأصلية، لا من خلال الترجمات التي وضعت لها حتى الآن، سوف تُساعد في كشف حقيقة مجريات الأحداث في الشرق القديم.

كل هذا لا يعني في رأي المؤلف، أن اليهود لم يكن لهم أي وجود في فلسطين خارج غرب شبه الجزيرة العربية في أيام التوراة، بل جلَّ ما يعني هو أن التوراة هي بالدرجة الأولى سجل التجربة التاريخية اليهودية في غرب شبه الجزيرة العربية في زمن بني إسرائيل. وفي غياب السجلات الضرورية لا بدَّ من التكهُّن بكيفية استقرار اليهودية في وقتٍ مُبكرٍ في فلسطين. وهنا يقول الصليبي أنه سيُغامر بتفسيرٍ يُقدِّمه.

فأولًا: يرى الصليبي أن بني إسرائيل قد طوَّروا في منطقة عسير منذ مطلع القرن العاشر قبل الميلاد ديانة قادِرة على اجتذاب المُهتدين إليها من خارج موقعها الأصلي؛ لا سيما وأنها كانت ديانة ذات كتاب طورها أناس قادرون على القراءة والكتابة. والمُرجَّح أن الانتشار المبكِّر لليهودية من موطنها الأصلي إلى فلسطين وبقاع أخرى في الشمال اتبع مسار القوافل التجارية؛ لأنَّ منطقة عسير كانت نقطة تقاطُع الخطوط التجارية الرئيسية في ذلك الزمن.

ثانيًا: بسبب مَواردها الطبيعية وموقعها التجاري كان غرب شبه الجزيرة العربية محطًّا لأنظار الفاتحين. وبعد كل هجوم شامل من ناحية مصر أو بلاد الرافدين، كانت موجات جديدة من المهاجرين تتَّجه نحو جنوب بلاد الشام.

ثالثًا: كانت للحروب التي نشبت بين ملوك يهوذا وملوك إسرائيل والتي لم تتوقَّف منذ انهيار مملكة سليمان الموحَّدة، أكبر الأثر في دفع الهجرات نحو فلسطين كما كانت هذه الهجرات تتعزَّز بالغزوات الخارجية.

رابعًا: في عام ٧٢١ق.م. قام الملك الآشوري صارغون الثاني بتصفية مملكة إسرائيل واستاق الأعيان من سكانها أسرى إلى بلاد فارس. ثم في العام ٥٨٧ق.م. قضى الملك البابلي نبوخذ نصر على مملكة يهوذا واقتاد الألوف من رعاياها إلى بابل. ويبدو أن وجودًا يهوديًّا، قويًّا كان قد قام خلال هذه المرحلة في فلسطين، فلمَّا ساءت أحوال

الإسرائيليين في غرب شبه الجزيرة العربية صار اليهود هناك يتوسَّمون الخير في أرض الاستيطان الجديدة.

خامسًا: بعد انهيار الدولة البابلية الجديدة على يد الفرس الذين كانوا يَميلون إلى مصادقة اليهود، سمحوا لهم بالعودة فرجع منهم حوالي ٤٠ ألفًا مع عائلاتهم إلى غرب شبه الجزيرة العربية وفي نيتهم إعادة بناء مُجتمعهم هناك. غير أن الوضع الدولي الجديد كان قد عبَر مسالك التجارة من الجنوب إلى الشمال ممَّا أدى فجأةً بشبه الجزيرة العربية وشبكاتها التجارية إلى الركود الاقتصادي.

سادسًا: عندما عاد المنفيُّون إلى بلادهم وجدوا كل ما حولهم خرابًا وقفرًا، ولم تكن الأوضاع العامة في شبه الجزيرة العربية تَسمح لهم بإعادة بناء مجتمع متوازن اقتصاديًّا واجتماعيًّا. ويبدو أنهم أخفقوا في إعادة الروح إلى دولة ماتت وعفا عليها الزمن. وأما ما تلا ذلك فلا يُمكن اكتشافه إلا بالتكهُّن؛ لأنَّ الرواية التاريخية للتوراة تتلاشى وتنتهي عند هذه النقطة ويَنتهي معها تاريخ بني إسرائيل الذين زالوا من الوجود كشعب، أما اليهودية كدين فاستمرَّت. ويُحتمَل أن يكون معظم العائدين في المرحلة الأخمينية قد رجعوا إلى بلاد فارس والعراق. ومنذ ذلك الوقت فصاعدًا وحتى تدمير الرومان لأورشليم الفلسطينية عام ٧٠ ميلادية تركَّز التيار الرئيسي للتاريخ اليهودي حول فلسطين. وقبل أن يمرَّ وقت طويل كانت أصول اليهودية في غرب شبه الجزيرة العربية قد دخلت غياهب النسيان.

سابعًا: منذ بدايات استيطانهم في فلسطين قادمين مِن غرب شبه الجزيرة العربية، أطلق اليهود على مُستوطناتهم التي أحدثوها وعلى مُستوطنات بائدة أحيوها أسماء مدنهم القديم في موطنهم الأصلي. وفعلت مثلهم الشعوب التي جاورتهم هناك والتي هاجرت أيضًا إلى فلسطين وبلاد الشام مثل الفلستيين والكنعانيين والآراميين والمؤابيين.

ثامنًا: من العوامل التي ساعَدَت على طمس ذكرى الماضي اليهودي، ما يتعلَّق بالتطورات السياسية في غرب شبه الجزيرة العربية وفي فلسطين بعد انقراض بني إسرائيل. ففي غرب شبه الجزيرة العربية، أدَّى الضعف التدريجي الذي أصاب الإمبراطورية الأخمينية إلى نشوء كيانات سياسية جديدة، مثل دولة معين التي قامت في المنطقة ذاتها التي شهدت قبلًا قيام مملكة الإسرائيليِّين. وقد تشتَّت يهود شبه الجزيرة العربية بين هذه الكيانات المحلية. أما في فلسطين فقد رسمت فتوحات الإسكندر عام ٣٣٠ق.م. نهاية

الإمبراطورية الفارسية، وبعد موته وإقامة المملكة السلوقية في سورية ومملكة البطالسة في مصر، خضعت فلسطين للسلوقيِّين بعد نزاع عليها مع البطالسة. وخلال القرن الثاني قبل الميلاد، اغتنمَ اليهود فرصة استمرار النزاع على فلسطين بين السلوقيِّين والبطالسة فقاموا بثورة ناجحة حوالي سنة ١٤٠ق.م.، وتمكَّن قادة الثورة من الحشمونيين الكهنة من السيطرة على أورشليم وتوسيع رقعة الأراضي اليهودية في فلسطين. وكان يهود العالم قد اعتادُوا على النظر إلى هيكل أورشليم الفلسطينية على أنه قدسهم الرئيسي، على ما يَبدو فاعتَبر الهشمونيُّون أنفسهم الورثة الشرعيِّين لإسرائيل القديمة واستمرت مملكتهم حتى مجيء الرومان الذين أنهوا استقلالهم.

وبِغضِّ النظر عما كان الاسم الأصلي لأورشليم الفلسطينية في الحقيقة، فمن المؤكد أنه قد تمَّ الاعتراف بها كأورشليم داود وسليمان الأصلية، وذلك في أيام الحشمونيِّين، إن لم يكن أبكر. وفي ذلك الوقت كان قد تمَّ أيضًا اعتبار فلسطين بأنها هي الأرض الأصلية لشعب إسرائيل البائد وللتوراة العبرية. وكان المسرح الجغرافي للروايات التوراتية قد أصبح يُفهم على أنه يضمُّ بشكل رئيسي بلاد الشرق الأدنى الشمالية، وليس غرب شبه الجزيرة العربية.

(١) نتائج أطروحات الصليبي

بعد هذا العرض المُوجز والوافي للأطروحات الرئيسية لنظرية كمال الصليبي، نُريد أن نبسط عددًا من النتائج الخطيرة التي تُوصِّلنا إليها النظرية. ونحن معنيُّون بهذه النتائج وحريصون على مُناقشتها أكثر من حرصنا على مناقشة مسألة أصل التوراة وتاريخ قدماء الإسرائيليين. وإذا كان لحوارنا المُقبل عبر صفحات هذا الكتاب أن يتركَّز حول مسرح الحدث التوراتي، فذلك من أجل المسألة الرئيسية التي أثارت نظرية الصليبي الشكوك حولها، وأعني تاريخ الشرق الأدنى القديم برمته وخصوصًا خلال النصف الثاني من الألف الثاني، وكامل الألف الأول قبل الميلاد.

أولًا: إنَّ النقاش الدائر داخل حلقات علماء التوراة والتاريخ والآثار حول مصداقية التوراة ككتاب تاريخي يمكن الركون إلى معلوماته المتعلقة بأحداث الشرق القديم، وهو نقاش لم يُحسَم بعدُ، قد حسمه كمال الصليبي لصالح كتاب التوراة الذي اعتبره كتابًا تاريخيًّا موثوقًا في جميع تفاصيله. فالإسرائيليون من بين جميع شعوب الشرق القديم كانوا

وحدهم المالِكين لإحساس مُرهَف بالتاريخ، وتُقدِّم كتبُهم المقدَّسة رسمًا ذاتيًّا حيًّا ومُفصَّلًا، وهو رسمٌ فريد من نوعه بالنِّسبة إلى عصره (ص٥٣). ولم يأتِ هذا الحسم لصالح المسائل التي صمتَت عنها وثائق الشرق القديم وأوردها كتاب التوراة، بل تعدَّى ذلك إلى التشكيك في مصداقية كل وثائق الشرق القديم لصالح النصوص التاريخية التوراتية.

ثانيًا: تَضع نظرية كمال الصليبي تاريخ منطقة الشرق القديم على أرضية مُهتزَّة؛ لأنه يرى أن السجلات التاريخية للمنطقة قد قُرئت حتى الآن بشكلٍ مغلوط، وأُجبِرت على إعطاء مؤشِّرات جغرافية أو تاريخية تتوافَق مع الأحكام المسبقة لدى الباحثين التوراتيِّين (ص٥١–٥٢). وبذلك يُسقط المؤلف من اعتباره كل الجهود المُضنية لعلماء اللغات القديمة، التي بذلت خلال أكثر من قرن ونصف القرن بكل دقة ودأب المناهج العلمية الحديثة، ويَضرب صفحًا عن شبكة المعلومات المتماسكة التي وصل إليها علم التاريخ استنادًا إلى وثائق الشرق القديم المكتوبة. وبذلك يُخرج كتاب التوراة من دائرة الشكوك لتدخل إليها ألواح الشرق القديم.

ثالثًا: أسقط المؤلف من حسابه كل نتائج علم الآثار في فلسطين وبلاد الشام، وكلَّ شبكة المعلومات المتماسِكة والمتقاطعة مع شبكة المعلومات التاريخية، التي رسمتْها بدقة أجيال متعاقبة من علماء الآثار خلال قرن ونصف القرن؛ وذلك لصالح معلوماته المتحصلة عن طريق مقابلة أسماء الأماكن. وهو يرى «أنَّ الدراسة اللغوية لأسماء الأماكن هي ضربٌ من علم الآثار» (ص١٨)، بل تتفوق عليه أحيانًا «لأن الاكتشافات الأثرية اكتشافات خرساء ما لم تتضمَّن كتاباتٍ منقوشةً، في حين أن أسماء الأماكن ناطقة، لا تُخبرنا بما هي فحسب بل تُخبرنا أيضًا بكيفية نطقها الفِعلي وبمعناها وباللغة أو نوع اللغة التي انبثقت عنها. وفي غياب الكتابات والنقوش تبقى الاكتشافات الأثرية صعبة التفسير، وإلى درجةٍ تجعل الجدل بين علماء الآثار حول المغزى التاريخي لاكتشافات معيَّنة كثيرًا ما يتدنى إلى مستوى الضغائن الشخصية» (ص٦٠). وهكذا تتحول كل انتصارات علم الآثار الحديث إلى معلوماتٍ مُتناقضةٍ، عند المؤلف تهبط إلى مستوى الضغائن الشخصية.

رابعًا: يرسم كتاب الصليبي خارطةً سياسية وبشرية فريدة من نوعها لبلاد الشام وغرب العربية، فبعدَ أن نقل مسرح الحدث التوراتي إلى غرب العربية، كان عليه أن يَنقُل معه كل مواطن الشعوب التي تشابكت أخبارها في الرواية التوراتية. وبما أن هذه الشعوب

موجودة تاريخيًّا وآثاريًّا بأسمائها ومواطنها في منطقة مصر والهلال الخصيب، فقد عمل على إيجاد مَثائلها في غرب العربية. فالكنعانيُّون موجودون في فلسطين والساحل السوري وأيضًا في عسير وغرب العربية، ومُدنُهم تحمل الأسماء ذاتها هنا وهناك. والآراميون موجودون في بلاد الشام الداخلية وأيضًا في غرب العربية ومُدُنهم تحمل الأسماء ذاتها، وكذلك الفلستيون بمُدنِهم الخمس الرئيسية القائمة على الجهة البحرية من فلسطين، وفي أماكن مُتفرِّقة من غرب العربية، ومثلهم الآموريون والموآبيون والعمونيون وغيرهم. حتى لكأنها مرآة عاكسة وُضعت عند خطٍّ ما في شماليِّ شبه الجزيرة العربية تُلقي بصورة بلاد الشام نحو غرب العربية، لتخلق هناك طيفًا لا تظنُّه إلا وهمًا لا سند له.

خامسًا: غير أن تلك الصورة المعكوسة تغدو هي الأصل وَفق نظرية المؤلف، ونصوص الشرق القديم يجب إعادة دراستها من جديد في نصوصها الأصلية، لتظهر بما لا يدع مجالًا للشك بأنها كانت سجلات لوقائع جرت في غرب العربية لا في بلاد الشام. كل ذلك يَخلُق مُعضلة تاريخية لم يُحدِّد المؤلف أبعادها ولم يُعنَ بتقديم مفتاح واحد لحلها: فإذا كانت سجلات مصر وبلاد الرافدين (خصوصًا آشور) معنية بتاريخ غرب العربية، فأين الوثائق المعنية ببلاد الشام وهي الجار القرب سواء بالنسبة لمصر أم لآشور؟ وأين تاريخ بلاد الشام في أخبار الوثائق القديمة التي تتقاطَع فوقها دون أن تَحفل بها؟ إنَّ النتيجة التي لم يَنتبه إليها المؤلِّف لمثل هذا الطرح هي تغييب تاريخ بلاد الشام وإبراز تاريخ بني إسرائيل.

هذه النتائج هي موضوع حوارنا مع كتاب «التوراة جاءت من جزيرة العرب» عبر الصفحات المقبلة.

حول المنهج

سوف يعتمد منهجنا في هذا الكتاب، أساسًا على مناقشة النتائج لا على الدخول في جدل عقيم حول الوسائل. ففيما يتعلَّق بكل مسألة من المسائل الرئيسية التي أثارها كمال الصليبي، سوف نفترض الصحة في منهجه ووسائله، حتى نتوصَّل إلى نتائج معاكسة نستمدها من البيِّنة التاريخية والبيِّنة الأركيولوجية والبيِّنة النصِّية المستمَدة من كتاب التوراة ذاته ومن مواضع غير مُختلَف على قراءتها؛ أي إن هذا الكتاب سيكون بمثابة الفصل المفقود في كتاب الصليبي، الذي يُعنى باختبار النتائج المتحصلة وفق منهج مقابلة أسماء المواقع، ومقاطعتها مع النتائج المتحصلة باستخدام منهج مغاير.

ففي حالة بارزة هي حالة مدينة «صور» الوارد ذكرها مرارًا في التوراة، يصل الصليبي إلى نتيجة مفادها أن صور التوراتية ليسَت هي «صور» الفينيقية الواقعة على الساحل السوري، بل هي الواحة المُسماة اليوم «زور» أو «زور الوادعة» في منطقة نجران بمُحاذاة بلاد «يام» المجاورة للصحراء العربية الداخلية، وسفن صور التي تَروي عنها التوراة كانت في الحقيقة قوافل حيوانات محملة لا سفن تَمخر البحر (ص٣٤–٣٥). إن امتحاننا لهذه المسألة لن يَبتدئ بمُجادلة المؤلِّف في نوعية القلب والاستبدال التي طرأت على الاسم التوراتي ولا في الطريقة التي قرأ بها كلمة «سفن» بالعبرية، وما إلى ذلك من وسائل منهجِه، بل بالتعامُل مع النتيجة مباشرةً.

فإذا كانت وثائق وادي الرافدين التاريخية هي سجلات لأحداث جرَت في غرب العربية، كما يُؤكِّد المؤلف، فإننا واجدون فيها ولا شك ما يؤيد صحة نتائجه حول مدينة صور التوراتية. وهنا نبدأ في إجراء التقاطع الأول للنتيجة مع البينات التاريخية، فتأخذ في التفتيش عن صور في وثائق وادي الرافدين، فإذا تبيَّن لنا أن صور، أينما وردت في تلك الوثائق، هي مدينة بحرية وأنها تتألف من قسمين واحد يقع على جزيرة قرب الشاطئ

والآخر على البر المقابل، حصلنا على الدليل الأول الذي يُشير إلى «صور» المدينة الفينيقية على الساحل السوري لا إلى «زور» الصحراوية في غرب العربية. ثم ننتقل بعد ذلك إلى إجراء التقاطع الآثاري، فإذا كانت الاكتشافات الأركيولوجية في موقع صور الفينيقية تُؤكد أن المدينة القديمة كانت مؤلَّفةً من قسمين واحد في البحر وآخر على البر المقابل، حصلنا على الدليل الثاني. أخيرًا يبقى أن نجد في نصوص التوراة ما يؤكد هذا أو ذاك. فإذا قرأنا في سِفر حزقيال: ٢٦ عن صور ما يأتي: [كيف بُدْت يا معمورة من البحار، المدينة الشهيرة التي كانت قوية في البحر هي وسكانها الذين أوقعوا رُعبَهم على جميع جيرانهم]، وفي سِفر زكريا: ٩ [... وقد بنَتْ صور لنفسها حِصنًا وكومت الفضة كالتراب والذهب كطين الأسواق. هو ذا الرب يمتلكها ويضرب في البحر قوتها، وهي تُؤكَل بالنار]. ثم إذا اتَّفقَت مُعظَم المواضع التي ورَد فيها ذكر صور مع ما ورد في سِفرَي حزقيال وزكريا من وصف لمدينة بحرية، نكون قد حصلنا على الدليل الثالث، وتوصلنا إلى نتيجة مدعمة علميًّا تُناقض نتيجة كمال الصليبي، التي تبدو عقب ذلك مُعلَّقة في الفراغ وفي حاجة إلى دفوع جديدة يقدمها صاحب النظرية، خارج منهجه في مقارنة أسماء المواقع والأمكنة.

وقد قسَّمنا هذا الكتاب إلى ثلاثة أبواب: واحد يُعنى بتقديم البيِّنة التاريخية وآخر بتقديم البيِّنة الآثارية (الأركيولوجية) وثالث بتقديم البيِّنة النصية. ولغرض تعميم الفائدة على جميع شرائح القرَّاء، فقد حاولنا أن نصوغ حوارنا بطريقة نَعرض من خلالها، بشكل سَلِس ومُتَتابع، المفاصل الرئيسية في تاريخ الشرق القديم وبعضًا من أهم معضلاته وإشكالاته، وغامَرنا بكلِّ حذر عِلمي في إبداء وجهات نظر شخصية نُبقيها مفتوحة للمناقشة والتعديل، لما قد نتعلَّمه من الزملاء الباحثين السباقين في هذا الميدان.

الباب الأول

البيِّنة التاريخية

وثائق الشرق القديم

قبل حملة نابليون على مصر، كانت معلوماتنا عن تاريخ الشرق القديم مُستمَدةً من المصادر الإغريقية والرومانية (المصادر الكلاسيكية)، إضافةً إلى ما تضمَّنه كتاب التوراة من أخبار مُتفرِّقة. ولم تكن هذه المصادر موثوقةً بما فيه الكفاية؛ لأن تدوينها لم يَعتمِد المنهج العلمي في التدقيق والتمحيص وتقصِّي الحقائق، كما هو شأن علم التاريخ الحديث، بل اعتمد الأخبار المنقولة والقصص المُتداولة والمشاهَدات الشخصية العابرة وتداخلَت فيها الأهواء الشخصية للمؤلِّفين.

ولكن التنقيبات الأركيولوجية في المنطقة التي افتتحتها حملة نابليون، وما نتَج عنها من حلٍّ رموز الكتابات الشرقية وفهمِ لغاتها، قد وصلتنا بالحضارات القديمة مُباشرةً من دون وسيط، وأمدتنا بحقائق لا يُمكن الشك بصحتها. وقد تكوَّنت لدينا الآن وبعد أكثر من قرن ونصف من بذل الجهود المتضافِرة لعلماء الآثار والتاريخ واللغات القديمة، صورة واضحة عن تاريخ وحضارات بلاد الشرق القديم. وبشكلٍ خاصٍّ، لعبت الوثائق التاريخية التي دوَّنتها تلك الشعوب عن أحداث زمنها دورًا أساسيًّا في معرفتنا بها وبحضارتها ومُجريات تاريخها وتاريخ الشعوب التي احتكَّت بها.

لقد حُلت منذ زمن، الكتابات الهيروغليفية المصرية والحثية، والمسمارية السومرية والأكَّادية والآشورية والأوغاريتية، والأبجدية الكنعانية والآرامية، وفُهمت لغاتها، وقُرئت نصوصها وصُحِّحت قراءاتها مرارًا وتكرارًا من قِبل علماء كرَّسوا حياتهم لهذه الغاية، وبنت أجيال من المختصِّين علمها على إنجاز مَن سبقها وطوَّرته وفق المستجدات والمُستحدَثات، حتى صارت قراءتنا لنصوص الشرق القديم إلى حالة من الاستقرار لا يَطاله نقضٌ جذري، رغم بقائها مُنفتحةً على التعديل والتنقيح مما يَطال الغوامض والإشكالات الطفيفة من دون الأساسيات، من هنا، فنحن نرى أنه من التعميم الظالم أن تُتَّهم كل هذه الجهود بالانطلاق من وجهة نظر تَوراتية والسير في ركاب علماء التوراة؛ لأن الواقع في معظم جوانبه هو عكس ذلك تمامًا. فلقد كان اكتشاف رقم سومر وبابل وآشور وماري وأوغاريت، بداية لظهور اتجاه علمي جديد في نقد كتاب كلمة الإله الموحاة، وتمَّت إعادة النظر في مجمل معطياته التاريخية والأدبية والدينية على ضوء النصوص المُكتشَفة.

لهذا كله، فنحن نَنظر إلى عودة كمال الصليبي إلى إعادة النظر بقراءات وثائق الشرق القديم بكثير من التردُّد والحذر، خصوصًا وأنه لم يُبيِّن ولو بمثالٍ واحد موضع الخطأ في قراءة أيِّ نصٍّ آشوري أو بابلي أو مصري، ولم يُبيِّن لنا أي منهج جديد نَستبدله بالمناهج القائمة في قراءة هذه النصوص. نَستثني من ذلك نصًّا فلسطينيًّا من بضعة أسطر مكتوبًا بالكنعانية الفلسطينية (المدعو خطأً بالعبرية المُبكِّرة) يَنقد فيه قراءة العالم التوراتي والأركيولوجي واختصاصي اللغات السامية المعروف وليم. ف. ألبرايت، وهو الشخصية البارزة في المدرسة التوراتية في مجال تاريخ وآثار ولغويات فلسطين. وفيما عدا ذلك فهو لا يَني عن تكرار القول بأنَّ علينا أن نُعيد قراءة سجلات مصر وبلاد الرافدين بلغاتها الأصلية من دون الترجمات التي وُضعت لها حتى الآن، وذلك من غير أن يُقدِّم نموذجًا نقديًّا واحدًا، سواء أكان هذا النموذج من نتاجه أم نتاج غيره من الباحثين.

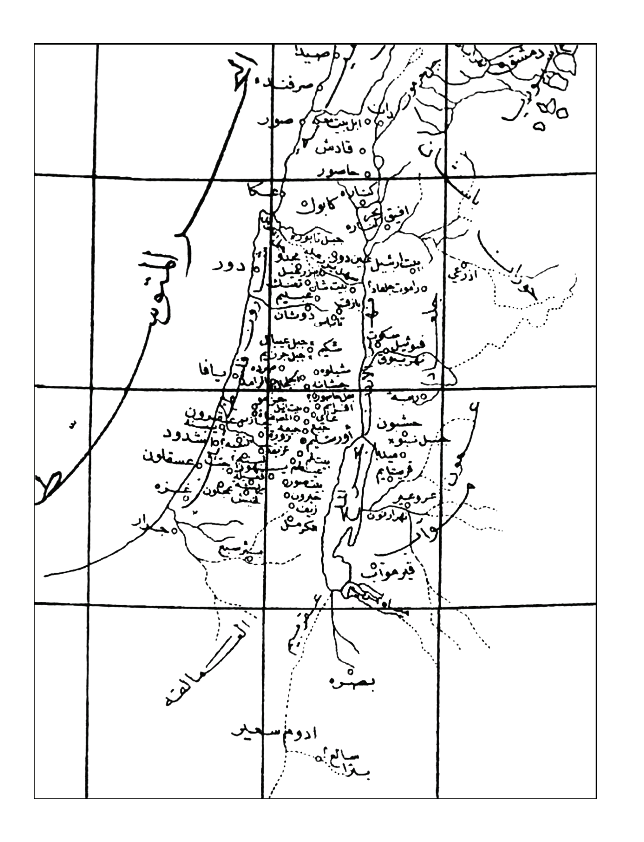
ولما كانت سجلات الشرق القديم، التي تُعتَبر إحدى ركائز علم التاريخ الحديث، مجهولة لدى غالبية قُرَّاء كتاب كمال الصليبي، وحبيسة الكتب الاختصاصية جدًّا، فإننا سنَعمِد في هذا الباب من كتابنا إلى إيراد عدد كافٍ منها في حدود موضوعنا المطروح، ونختبر أطروحات المؤلِّف الرئيسية على محكِّ المعلومات الثابتة التي تقدمها، مركزين بشكل خاص على سجلات الحملات المصرية والآشورية وما تضمنته من معلومات طبوغرافية وجغرافية، مع إجراء التقاطعات بين هذه المعلومات ونتائج التنقيب الأركيولوجي الحديث في المنطقة.

وكما أشرنا سابقًا، فإن جُهْدنا لن يكون منصبًّا على تاريخ بني إسرائيل، بل على تاريخ أرض كنعان، وبلاد الشام عمومًا. ذلك أن الإسرائيليين ما شكَّلوا يومًا قوة سياسية

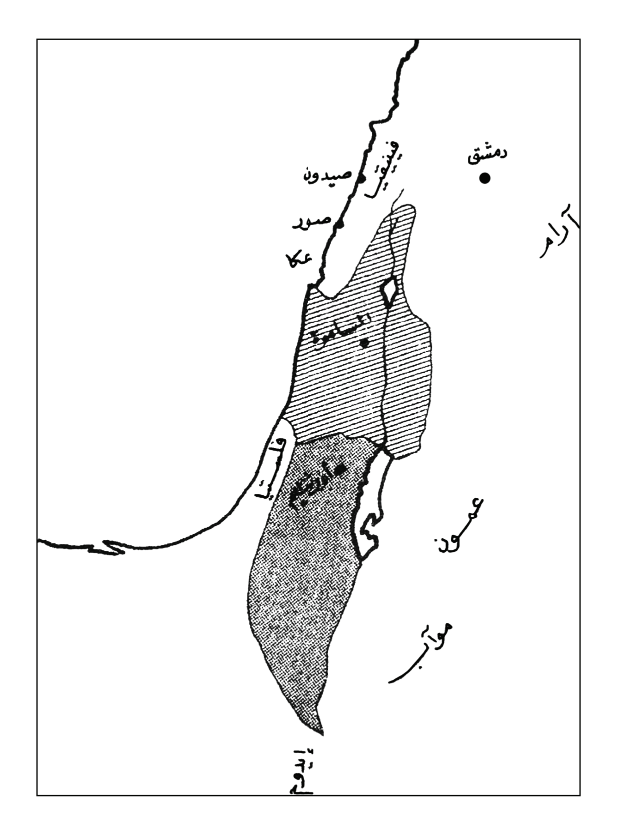
يُعتدُّ بها، ولا قدَّموا إسهامًا حضاريًّا يمكن وصفه بالإسهام الإسرائيلي المتميز بخصائص واضحة، بل عاشوا طيلة تاريخهم القصير تحت مظلَّة كنعان الوارفة.

فبعد مملكة داود وسليمان الموحَّدة التي لم تَدُم أكثر من خمسين سنةً إبان القرن العاشر قبل الميلاد، والتي بسطت سلطتها السياسية لفترة مؤقتة على كامل أرض كنعان الفلسطينية، وفق الرواية التوراتية، (انظر خريطتنا رقم ١) انقسمت السلطة السياسية إلى مملكتين، مملكة إسرائيل في الشمال تبعها عشرة أسباط، ومملكة يهوذا في الجنوب وتبعها سبط واحد إضافة إلى سبط يهوذا (انظر خريطتنا رقم ٢). لم تَدُم حياة مملكة إسرائيل، التي عاشت كمملكة كنعانية في ديانتها وشتى مظاهر حضارتها، أكثر من قرنين من الزمان؛ إذ تمَّ محوها من الخارطة بشريًّا وسياسيًّا على يد الآشوريين عام ٧٢١ق.م.، وحُملت أسباطها العشرة إلى المنفى حيث ضاعت إلى الأبد، ولم يَعُد أحد من المنفيين قط، على ما تُؤكده الرواية التوراتية. وقد أحلَّ الآشوريون في الأرض سكانًا جُددًا من مناطق بلاد الشام المقهورة الأخرى، على ما تذكره الرواية التوراتية وتُؤكِّده السجلات الآشورية، التي تَذكر بالتفصيل المناطق التي جرى ترحيل السكان منها إلى إسرائيل. أما مملكة يهوذا فاستمرَّت بعد دمار مملكة إسرائيل قرابة قرن ونصف من الزمان إلى أن دمَّرها «نبوخذ نصر» البابلي واقتاد جُلَّ أهلها إلى المنفى (عام ٥٨٧ق.م.). ولم يعد من هؤلاء المنفيين سوى قسم منهم أيام «قورش» الفارسي الذي قضى على المملكة البابلية الجديدة عام ٥٣٩ق.م. وقد حاول العائدون تشكيل دولة صغيرة جدًّا في أورشليم وجوارها لم تتجاوَز مساحتها سدس مساحة فلسطين الإجمالية (انظر خريطتنا رقم ٣). وبعد ذلك تدخل فلسطين تحت الحكم اليوناني فالروماني، ويتم القضاء على الوجود اليهودي من قِبَل روما بعد الثورة التي قام بها اليهود ضد السلطة الرومانية عام ٧٠م.

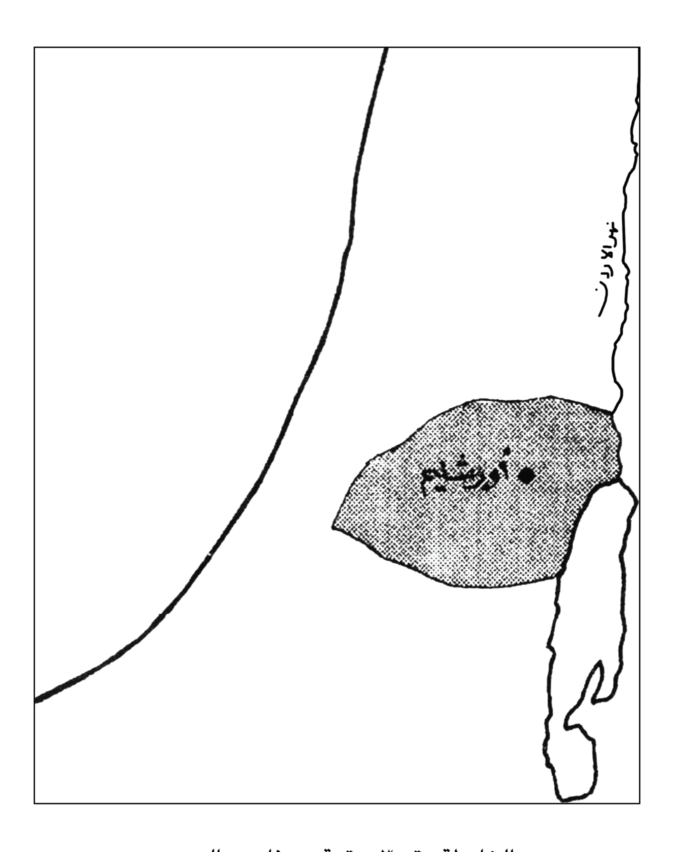
فالوجود السياسي للإسرائيليين، إذن لم يستمرَّ أكثر من ثلاثة قرون ونصف القرن في أرض كنعان التي يضرب تاريخها الطويل في مطالع التاريخ إبان الألف الرابع قبل الميلاد. ومأثرتهم الثقافية الوحيدة كانت كتاب التوراة الذي بدأ أحبار اليهود بتحريره، نقلًا عن وثائق مُتفرِّقة وروايات مُتناقلة، إبان الأَسر البابلي وأنهوا عملَهم بعد العودة من السبي. وهذه المأثُرة الوحيدة هي في الواقع ظاهرةٌ ثقافية لا يُمكن فهمُها ودراستها إلا في السياق العام للحضارة الكنعانية إجمالًا، واعتبارها إنجازًا من إنجازاتها تم على يد فئة لم تزد عن كونها فئة كنعانية في شتى مناحي حياتها وثقافتها.



الخارطة رقم ١: فلسطين الكنعانية.



الخارطة رقم ٢: مملكة إسرائيل ومملكة يهوذا.



الخارطة رقم ٣: رقعة يهوذا بعد السبي.

الفصل الأول

سجلات مصر الفرعونية

(١) المملكة القديمة والمتوسطة

رغم أن مصر كانت أقلَّ تطلعًا إلى الخارج وأقلَّ رغبةً في التوسُّع قبل طرد الهكسوس (حوالي عام ١٥٧٠ق.م.) وإعادة توحيد البلاد، إلا أنَّ علاقتها مع جيرانها الشرقيين في بلاد الشام لم تَنقطِع قطُّ منذ بدايات التاريخ المصري، يَشهد على ذلك العديد من النصوص التاريخية المصرية والأعمال الفنية. فمن سجلات المملكة القديمة وصلتنا وثيقة للفرعون «سنفرو» الذي حكم حوالي ٢٦٥٠ق.م.، تتحدَّث عن وصول أربعين سفينةً محمَّلة بخشب الأرز لاستخدامها في صنع أبواب القصر الملَكي.[١] ورغم أنَّ مصدر الخشب غير مذكور في النص، إلا أنَّ السفن التي صعدت به نهر النيل لا يُمكن أن تكون قد أبحرت إلا من أحد الموانئ السورية على شاطئ المتوسِّط.

ويبدو أن إبقاء خطوط التجارة مفتوحة مع سورية كان يتطلب بين الحين والآخر القيام بحملات عسكرية. ولدينا نصوص ورسوم تصف مثل تلك الحملات منذ عصر الأسرة الخامسة، منها رسم يُصوِّر سفنًا عائدة بأسرى آسيويين من عهد «ساهو - رع» الذي حكم حوالي ٢٥٥٠ق.م.، ورسم آخر عُثر عليه في أحد أضرحة الأسرة السادسة يُصوِّر هجومًا مصريًّا على قلعة يدافع عنها آسيويون.[٢] وهناك نصٌّ من موقع «أبيدوس» تركه قائد عسكري عمل لدى الفرعون «بيبي الأول» وهو أحد فراعنة الأسرة السادسة،

---

١ John A. Wilson, Egyptian Historical Texts (in: James Pritchard's Ancient Near Eastern Texts, Princeton 1969).

٢ Ibid., p. 227.

وحكم حوالي عام ٢٣٧٠ق.م. يتحدَّث فيه عن انتصارات المصريين على الآسيويين[٣] دون أن يُقدِّم معلوماتٍ كافيةً عن نوع الشعوب الآسيوية التي تعرَّضت للهجوم، أو تفاصيل جغرافية تُعين على تحديد المناطق التي غطَّتها الحملات المصرية في ذلك الوقت.

تُقدم نصوص المملكة المتوسِّطة معلومات أكثر تفصيلًا تساعدنا على معرفة الأماكن والشعوب الآسيوية التي كان المصريون على احتكاك بها. ففي نصٍّ ترَكه أحد أفراد حاشية الفرعون «سنوسرت الثالث» الذي حكم حوالي عام ١٨٨٠ق.م.، يتحدَّث كاتب النص عن حملة الفرعون جنوبًا نحو بلاد النوبة، ثمَّ انقلابه شمالًا لتأديب الآسيويين: [اتجه جلالته نحو الشمال لقهر الآسيويين فوصل المنطقة الأجنبية المُسمَّاة «شكميم»، فسقطت بيده شكميم مع الـ «ريتينو» الأنذال ...][٤] ورغم قِصر هذا النص واختزاله، فإنه يُقدِّم لنا معلوماتٍ لا بأس بها عن مسرح حملة الفرعون. فبعد انتصاره في حملات النوبة جنوبًا، يتوجَّه شمالًا للقاء الآسيويين في فلسطين، لا شرقًا نحو عسير عبر البحر الأحمر. وهو يَصِل إلى «شكميم» التي هي «شكيم» التوراتية، المدينة الكنعانية المزدهرة في فلسطين خلال عصر البرونز الوسيط، والتي تذكر الرواية التوراتية أن إبراهيم قد نصب خيامه بجوارها (التكوين ١٢: ٦) وأن يعقوب قد ابتاع فيها قطعةً نَصب فيها خيمته (التكوين ٣٤: ٢) ويبدو أن شكيم في هذا النص كانت على رأس حِلفٍ من الدويلات المجاورة؛ لأن الفرعون يَهزمها ومعها الـ «ريتينو»، وكلمة الريتينو تُشير بإجماع علماء الهيروغليفية المصرية إلى بلاد سورية وفلسطين،[٥] ولا يُوجد في النصوص المصرية ما يدلُّ على علاقتها بجزيرة العرب.

وفي الحقيقة يقدم لنا هذا النص أقدمَ مثال عن أحلاف الدويلات السورية التي كانت تُعقَد لمواجهة الخطر الذي يأتي إما من وادي النيل أو وادي الرافدين دون أن تتحوَّل هذه الأحلاف إلى دولة مركزيَّة واحدة.

إلى جانب النصوص والمَشاهد التصويرية الفنية المصرية، تُساهم المُكتشَفات الأثرية في سورية في إعطاء صورة عن العلاقات المصرية السورية خلال عصر المملكة المتوسِّطة. فقد عُثر في العديد من المواقع السورية على مصنوعاتٍ يدَوية مصرية عليها أسماء فراعنة من المملكة المتوسِّطة أو أسماء لمبعوثين مصريين، وذلك في «جبيل» (بيبلوس) و«بيروت»

[٣] Ibid., p. 228.

[٤] Ibid., p. 230.

[٥] Ibid., p. 230.

و«أوغاريت» على الساحل السوري، وفي «قطنا» (تل المشرفة) أواسط سورية، وفي «مجدو» بفلسطين.[٦] ويبدو أن هذه المصنوعات كانت هدايا مَلكيَّة للتعبير عن العلاقات الدبلوماسية بين الفراعنة وملوك الدويلات السورية. وقد أمدَّتنا حديثًا مُكتشفات موقع «إيبلا» بشمال سورية بمثال جديد عن العلاقات المصرية السورية في مطلع الألف الثاني قبل الميلاد. فقد عثرت بعثة التنقيب هناك خلال حملة ١٩٧٨–١٩٧٩م على صولجان ملَكي عليه اسم الفرعون «حوتيب إبرا» من الأسرة الثالثة عشرة، والذي حكَمَ بين عام ١٧٧٥م وعام ١٧٦٥ق.م.، وكانت الحملات التنقيبية في فلسطين قد اكتشفت في «أريحا» نحتَين صغيرين يُمثِّلان جُعلًا، عليهما اسم الفرعون نفسه. كما عثر في «جبيل» على نحت بارز للفرعون «نيفر حوتب الأول» وفي «تل حزين» قرب «بعلبك» عُثر على تمثال للفرعون «سوبيك حوتب الرابع» وكلاهما من الأسرة الثالثة عشرة نفسها.[٧]

كان اجتياح الهكسوس القادمين من بلاد الشام، لمصر بمَثابة ردٍّ على محاولات التوسُّع لفراعنة المملكة المتوسِّطة. وقد أحكم الهكسوس سيطرتهم على مصر قرابة مائتي عام من ١٧٣٠ إلى ١٥٧٠ق.م.، عندما تمَّ طردُهم على يد «أحمس الأول». ولدينا نصٌّ هيروغليفي من تلك الفترة يتحدَّث عن الحملة الأخيرة على مدينة «أفاريس» عاصمة الهكسوس في منطقة الدلتا، ومطاردتهم مِن ثَم إلى مواطنهم الأصلية في سورية. نقرأ في الجزء الأخير من النص على لسان أحد قادة الحملة: [... ثم سقطت أفاريس ونُهبت، فغنمَت رجلًا وثلاث نساء وهَبهم لي جلالته عبيدًا. بعد ذلك حوصرت «شاروحين» لمدة ثلاث سنوات سقطت بعدها ونُهبت، فغنمت امرأتين ورجلًا جعلوا لي عبيدًا وأُعطيت ذهبًا لشجاعتي. وبعد أن قضى جلالتَه على الآسيويين اتجه جنوبًا لمحقِ النوبيين. بعد هذه الأمور أتى «تحوتمس الأول» فتوجه إلى بلاد «ريتينو» ليشفيَ غلَّة فؤاده في الأراضي الأجنبية فوصَلَ جلالته إلى «نهارين»؛ حيث التقى بالأعداء بينما كان يُنظِّم صفوف الجند، فأعمل فيهم مذبحة عظيمة ...][٨]

يُقدِّم لنا هذا النص معلومتَين مُهمتين تتعلقان بموضوعنا، الأولى حول «شاروحين» والثانية حول منطقة «نهارين»، فبعد هدم عاصمة الهكسوس في الدلتا، يُتابع الجيش

---

[٦] Ibid., p. 228.

[٧] Scandone and Matthiae, The Mace of Hotepibra (in: Studies in the History and Archaeology of Palestine, Aleppo University, 1987), pp. 49–52.

[٨] John A. Wilson, op. cit., pp. 233–234.

المصري مُطارَدة الهكسوس الذين تحصنوا في مدينة شاروحين عند الطرف الجنوبي الغربي لأرض كنعان في فلسطين، ويبدو أن المدينة كانت واقعة تحت سيطرتهم نظرًا لقربها من الحدود. ومدينة شاروحين مذكورة في التوراة كإحدى المدن الكنعانية التي أُعطيت لسبط شمعون ضمن أراضي سبط يهوذا في جنوب فلسطين. تقرأ في سِفر يشوع ١٩: ١–٥. [وكان نصيبهم داخل نصيب بني يهوذا. فكان لهم في نصيبِهم بئرُ سبعٍ وشَبَعُ ومُولادةُ وحصَرُ شُوعالَ وبالةُ وعاصَمُ وألتُولَدُ. وبتول وحُرمة وصِقلغُ وبيت المركبوت وحصر سُوسة وبيت لَباوُتَ وشاروحين].

وهكذا يتحدَّد معنا المكان التقريبي لإحدى المدن الحدودية الجنوبية لأرض «يهوذا»؛ فالجيش المصري لم يُطارِد الهكسوس، بعد تدمير عاصمتهم في الدلتا، قاطعًا صحراء سيناء ثم مُلتفًّا حول خليج العقَبة هابطًا شواطئ البحر الأحمر إلى مناطق عسير حيث المكان المفترض لأرض يهوذا التوراتية في نظرية الصليبي (انظر الفصل ٨ من كتابه)، وإنما توجَّه مباشرةً من أفاريس إلى الطرف الجنوبي الغربي لأرض كنعان حيث داهم خط الدفاع الثاني الذي أقامه الهكسوس في شاروحين أثناء تراجعهم نحو الأراضي التي أتوا منها أصلًا، كموجة من موجات العموريِّين التي انساحت في منطقة الهلال الخصيب مع مطلَع الألف الثاني قبل الميلاد.

كما أنَّ تحديد موقع شاروحين في جنوب فلسطين يُساعدنا على تحديد موقع توراتي مهم استبعد الصليبي وجودَه في أرض كنعان وهو «بئر السبع» (انظر الفصل ٤ من كتابه). فبئر السبع تردُ في النص التوراتي المذكور أعلاه بالترافق مع شاروحين ومجموعة المدن التي أُعطيَت لسبط شمعون ضمن أراضي يهوذا. وبذلك يتحدَّد موقعها في جنوب فلسطين وفي مكان لا يبعد كثيرًا عن موقع بئر السبع الحالية. وتُحدد بئر السبع بدورها مكان صحراء النقب التوراتية (هـ - نجب) باعتبارها البادية الواقعة جنوبي فلسطين، وهي التي نقلها الصليبي مع بئر السبع إلى أواسط منطقة عسير في غرب العربية.

(٢) المملكة الحديثة

تحوتمس الأول

بعد أحموس الأول يُتابع الفرعون «تحوتمس الأول» في النَّص أعلاه مُطاردة الهكسوس واستئصال شأفتهم، فيَسير على خُطا أحمس إلى بلاد «ريتينو» حتى يَصِل «نهارين»

فيَقضي على العدو في معركة حاسمة ويعود أدراجه. وبلاد ريتينو، كما ذكرنا منذ قليل، هي حصرًا سوريا، وفلسطين في النصوص المصرية، أما نهارين فهي مُثنى «نهر»، وتُشير في النصوص المصرية كما سنرى مرارًا فيما بعدُ إلى حوض الرافدين وإلى حوض الفرات الشمالي بشكلٍ خاص. وسوف نتحدَّث بالتفصيل عن علاقة «نهارين» النصوص المصرية بآرام النهرين التوراتية لاحقًا.

تحوتمس الثالث

تراخَت قبضة مصر عن الدويلات السورية قليلًا إبان حكم «تحوتمس الثاني» والملكة «حتشبسوت» ولكن ما إن ارتقى العرش «تحوتمس الثالث» (١٤٩٠–١٤٣٦ق.م.) حتى بدأ بسلسلة من الحملات على بلاد الشام دامت طيلة حياته. وكانت معركة «مجدو» بفلسطين، التي قادها ضد تحالف سوري، فاتحة معاركه الكبرى، والمؤسسة الحقيقية لسُلطة الأسرة الثامنة عشرة في آسيا. ولدينا نصٌّ طويل منقوش على جدار معبد الكرنك يسرد الحوليات الحربية لتحوتمس الثالث ويتحدَّث بتفصيل وإفاضة عن حملة مجدو، مع ذكر الأماكن والتواريخ بدقة. وسنُقدم فيما يأتي ملخصًا لأهم فقراته:

في مطلع النص، يجتاز تحوتمس الثالث حصن «صايل» Sile على الحدود المصرية قُرب بلدة القنطرة الحالية في برزخ السويس؛ وذلك في اليوم الخامس والعشرين من الشهر الرابع من الفصل الثاني للسنة، ثم يتقدَّم نحو بلدة «شاروحين» التي كانت الحامية المصرية مُعسكِرة فيها، ويجتازها إلى «غزة» التي يصلها في اليوم الرابع من الشهر الأول من الفصل الثالث للسنة؛ أي خلال مدة مقدارها تسعة أو عشرة أيام، وفي اليوم السادس عشر من الشهر نفسه يصل الجيش المصري إلى مدينة «ياهيم» Yehem، التي حدد الباحثون موقعها عند الطرف الجنوبي لجبل الكرمل؛ أي خلال مدة مقدارها أحد عشر يومًا، هناك يَعقد الفرعون اجتماعًا لقادة جيشه شارحًا لهم الوضع العسكري:

[لقد دخل جيش «قادش»، العدو اللئيم، إلى مدينة «مَجِدو» وهناك جمع إليه أمراء كل البلاد الأجنبية التي كانت مُوالية لمصر. وكذلك «نهارين» و«ميتاني» من حوريين Hurru وكوديين Kode، بأحصنتِهم وجيوشهم ورجالهم. وكما نُمي إلينا، فقد قرَّر العدو أن يَنتظر في مجدو ليقاتل صاحب الجلالة فهلا أفضيتُم لي برأيكم في هذه المسألة؟ بعد الاستماع إلى الفرعون، شرح له القادة الوضع الميداني للعدو، فجناح دفاعه الجنوبي في «تعنك» Taanak، والشمالي في «وادي قينا» Qina قرب مجدو، وهناك ثلاثة محاور تؤدي

إلى العدو. الأول مباشر وقصير ولكنه ضيِّق لا يَسمح بالتقدم إلا في رتل واحد، والآخران أطول ولكنهما أسلم، واحد يَنتهي في تعنك والآخر في «زفته» Djefti. ورجوه ألا يأخذ الطريق القصير المباشر. ولكن الفرعون خلافًا لنصيحة قُوَّاده، قرَّر التقدم على الطريق القصير الضيق مُباغتًا العدو الذي لم يكن يتوقَّع ذلك فهزمه هزيمةً مُنكَرة، أتى بعدها الأمراء المُتحالفون لتقبيل قدميه وطلب العفو].[٩]

يُعطينا هذا النص القيِّم معلومات جيدة حول عدة مواقع كنعانية قديمة ورَد ذكرها في التوراة، وهي: غزة وشاروحين وتعنك ومجدو كما يذكر مدنًا وشعوبًا عرَّفَنا بها علم الآثار وعلم التاريخ، مثل قادش وميتاني وكود. ورغم أن كمال الصليبي لم يتعرَّض لحملات تحوتمس الثالث الشرقية بشكل خاص، إلا أنه حدَّد في مواضعَ متفرقةٍ من كتابه أماكن بعض المواقع الواردة أعلاه في غرب العربية؛ فغزة هي «آل عزة» القرية الجبلية في أواسط سلسلة السراة جنوب النماص (ص١٠٠)، وميتاني هي «وادي متان» في منطقة الطائف، ونهارين هي قرية «النهارين» في موقع غير بعيد عن وادي متان في منطقة الطائف (ص٢١٩)، ومَجِدو هي «مقدي» في منطقة القنفذة (ص١١٩)، وتعنك هي «الكنعة» في تهامة زهران (انظر خريطة الصليبي رقم ٣).

فإلى أي حدٍّ يَنطبق مسار حملة تحوتمس الثالث على هذه المواقع في غرب العربية؟

يتَّضح من النص أن حلف الدويلات السورية قد عُقد هذه المرة تحت لواء مملكة «قادش»، التي كانت مملكة مُزدهرة في تلك الأيام وتحكم منطقة واسعة في أواسط وجنوب بلاد الشام، وقد ورد ذكرها مرارًا في السجلات الحثية والآشورية وغيرها من وثائق الشرق القديم، ممَّا ساعد المؤرِّخين على تحديد موقعها التقريبي، إلى أن تمكَّن علم الآثار من اكتشاف مدينة قادش تحت تلِّ النبي مند على الطرف الجنوبي الغربي لبحيرة قطينة إلى الجنوب من مدينة «حمص» الحالية.[١٠] ويبدو أن ملك قادش قد جمَع إليه العديد من حكام الممالك الشمالية، يذكر النص منها الحوريين والميتانيين والكوديين. وكان الحوريون، وهم شعب يتكلَّم لغة غير سامية، قد بدءوا بالتسرُّب إلى مناطق بلاد الشام الشمالية والجزيرة العليا منذ أوائل الألف الثاني قبل الميلاد، واستغلُّوا فترة ضعف السلطة في وادي الرافدين لتشكيل ممالكهم هناك، وأهمها مملكة «ميتاني» التي ازدهرت

[٩] Ibid., pp. 235–238.

[١٠] الدكتور علي أبو عساف، آثار الممالك القديمة في سورية، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٨٨م، ص٤١٢.

أواسط الألف الثاني قبل الميلاد في حوض نهر الخابور، ومُعظم معلوماتنا عن مملكة ميتاني مُستمَدة مباشرةً من وثائق مدينة «نوزي» الميتانية التي تمَّ الكشف عن أطلالها قُرب «كركوك» في الأراضي العراقية الآن.[١١] أما «كود» و«كوديون» فهي تسمية أطلقها المصريون على مناطق وسكان كيليكيا وشمال غربي سورية.[١٢]

وقد انضمَّت الممالك الشمالية بقيادة قادش إلى الممالك الجنوبية التي انضوت تحت لواء «مَجِدو» الكنعانية في فلسطين. وقد استطاع علم الآثار التعرُّف على مَجِدو القديمة تحت تلِّ المتسلِّم على بُعد عشرين ميلًا جنوب شرقي حيفا، وهو تلٌّ بيضوي الشكل يتحكَّم بالممر الاستراتيجي الذي يفصل جبل الكرمل الذي يندفع نحو البحر، عن سلسلة الجبال المركزية في فلسطين. وقد كانت مصر دائمًا راغبةً في إبقاء هذا الممر الاستراتيجي تحت سيطرتها من أجل تأمين تحرُّكاتها نحو فلسطين الداخلية. كما كشفَت التنقيبات أيضًا عن بلدة «تعنك» على مسافة خمسة أميال جنوبي غربي مجدو تحت التل المعروف اليوم بتل تعنك، وقد أثبتَت نتائج التنقيب الأركيولوجي أن الموقعَيْن قد تهدَّما وانقطع فيهما الاستيطان منذ مطلع القرن الخامس عشر، أي منذ حملة تحوتمس الثالث ومعركة مَجِدو، إلى أواخر القرن الرابع عشر حيث انتعشتا مجددًا واستمرتا إلى فترة الحكم الإسرائيلي.[١٣]

ويَرِد في التوراة أن الإسرائيليين قد فتحُوا مجدو أيام يشوع بن نون (راجع سِفر يشوع ١٢: ٢١ و١٧: ١١) وهناك انتصر «باراق» و«دبوره» على الكنعانيين المدافعين بقيادة «سيسرا» (راجع سِفر القضاة ٤: ١٦–١٧). وتُذكر مَجِدو مع تعنك باعتبارهما جارتَين في منطقة واحدة (راجع سِفر القضاة ٥: ١٩؛ ويشوع ١٧: ١٩).

والآن نُتابع مسار حملة تحوتمس الثالث على ما تذكره الوثيقة المصرية، وعلى ضوء ما تشكَّل لدينا من معلومات حديثة. فالجيش المصري يجتاز حصن صايل المعروف في السجلات المصرية بوقوعِه على الحدود المصرية مع شبه جزيرة سيناء قرب قرية القنطرة الحالية، ويُدعى أيضًا حصن «تجاور».[١٤] ثم يجتاز بلدة شاروحين التي حدَّدنا موقعها

---

[١١] المرجع نفسه، ص٤٠٣–٤٠٥.

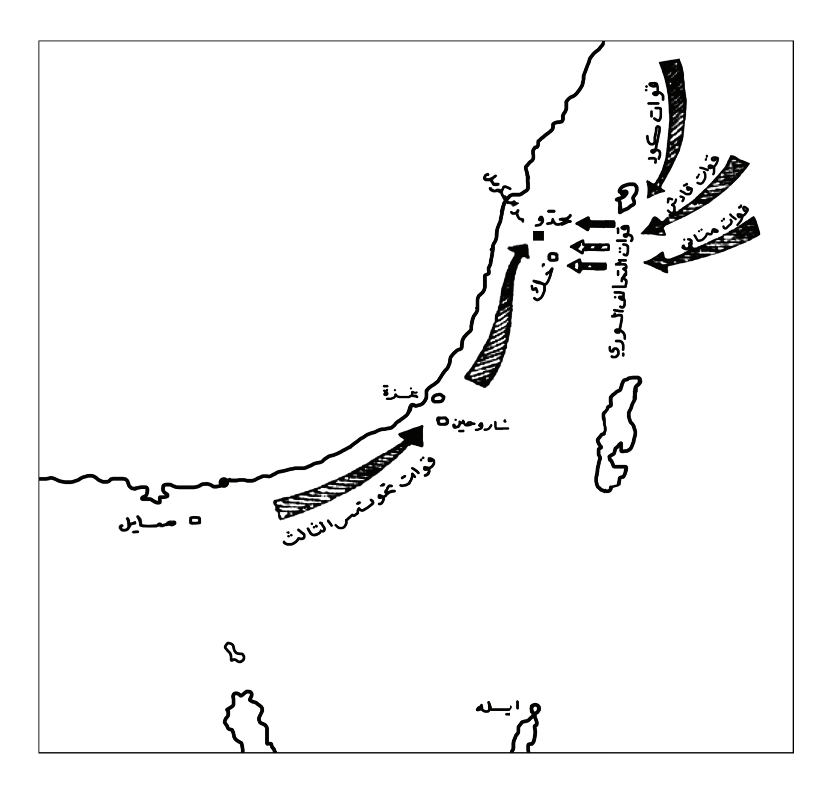
[١٢] John A. Wilson, op. cit., p. 262.

[١٣] Kathleen Kenyon, Archaeology in the Holy Land, Methuen, London, 1985, pp. 181–202, p. 342, 335.

[١٤] John A. Wilson, op. cit., p. 235.

سابقًا عند الطرف الجنوبي الغربي لفلسطين، ليَصل إلى مدينة غزة بعد عشرة أيام، وهي المدة اللازمة لقطع المسافة بين القنطرة وغزة وطولها حوالي مائة وخمسون ميلًا، ضمن أراضٍ مُسالمة واقعة تحت تهديد الحاميات المصرية التي كانت معسكرةً في شاروحين. وبعد قضاء ليلة في غزة يتابع الجيش مسيرته إلى سفح جبل الكرمل على مَقربة من مَجِدو التي تعسكر حولها قوات التحالف السوري بقيادة ماك قادش، فيقطع المسافة بين غزة وجبل الكرمل، وطولها ثمانون ميلًا في أحد عشر يومًا، وهي مدة طويلة نسبيًّا والسبب في ذلك عائدٌ إلى كون القوات المصرية تتقدَّم على طول الساحل الفلسطيني عبر مناطق عاصية ومعادية؛ وذلك على عكس تقدمها في المقطع الأول من الحملة. عند بلدة ياهيم، يتوقَّف تحوتمس الثالث ليضع خطة الهجوم، فيعرف من حديث قادتِه العسكريين أن المتحالفين كانوا يُدافعون على خطوط مُتتابعة، حيث المؤخرة في تعنك والقلب حوالي مَجِدو والمقدمة إلى الشمال منها. ولكن مفاجأة الفرعون تُفشل خطة التحالف ويسقط المدافعون فريسةً سهلة في يد تحوتمس الثالث، وهكذا نجد أن مسار حملة تحوتمس الثالث يَنطبِق بكامل تفاصيله ومسافاته على جغرافية فلسطين من دون غرب العربية، فإذا كانت غزة المقصودة في هذه الوثيقة المصرية هي «آل عزة» الواقعة في أواسط جبال السراة جنوب النماص، لتُوجب على الجيش المصري بعد اجتيازه حصن صايل عند برزخ السويس أن يقطع صحراء سيناء، ثم يلتف حول خليج العقبة ويهبط سواحل البحر الأحمر إلى منطقة القنفذة حيث يَلتفُّ شرقًا نحو جبال السراة في طريق وعرة وشاقة لا تقلُّ مسافتها عن ١٢٠٠ ميلٍ. وهي مسافة لا يُمكن اجتيازها في عشرة أيام على ما ذكره النص المصري بوضوح، بل تتطلَّب قرابة الشهر ونصف الشهر، إذا أخذنا المعدَّل العصري لمسيرة جندي المشاة في الساعة وهي ثلاثة أميال ونصف الميل. وإذا كانت «مَجِدو» التي نظمت حولها قوات التحالُف السوري صفوفها هي «مقدي» غرب العربية، لوجب أن تكون «الكنعة» التي هي «تعنك» عند الصليبي على مقربة منها، ولكن نظرة إلى خريطة الصليبي رقم ٣ توضح أن المسافة بين «مقدي» في منطقة القنفذة و«الكنعة» في تهامة زهران لا تقلُّ عن مائتي كيلومتر، الأمر الذي يجعل من المُستحيل تكتيكيًّا توزيع فِرَق المُتحالفين على هذه المساحات الشاسعة، يُضاف إلى ذلك أن النص المصري كان واضحًا كل الوضوح بخصوص تجمُّع قوات العدو في مَجِدو وجوارها (انظر خريطتنا رقم ٤).

وفي نصٍّ آخر قصير وقليل التفاصيل منقوش على مسلَّة معروفة بمسلة «عرمات» نسبة إلى المكان الذي اكتُشفت فيه بمصر، نجد إشارة أخرى إلى حملة تحوتمس الثالث



الخارطة رقم ٤: معركة مَجِدو.

على مَجِدو. فالفرعون يتَّجه إلى بلاد «زاهي» Djahi وبلاد «ريتينو» لإخماد العصيان فيها، ويخوض معركة فاصلة ضد العدو الذي جمع قواته في مَجِدو.[١٥] وبلاد ريتينو كما رأينا هي فلسطين وسورية، أما بلاد زاهي، فهي كما يَعرف كل دارس للنصوص المصرية، الساحل الفينيقي بشكل خاص، وقد تُستعمَل الكلمة بشكلٍ مَرنٍ أحيانًا للدلالة على المناطق الداخلية التي تَلي الساحل نحو سورية وفلسطين.[١٦]

١٥ John A. Wilson, op. cit., p. 234.

١٦ Ibid., p. 234.

بعد حملة مَجِدو تتابعَت حملات الفرعون تحوتمس الثالث على بلاد الشام حتى بلغت ستَّ عشرة حملةً خلال عشرين سنةً. بعض هذ الحملات كان حروبًا حقيقيةً صعبة، وبعضها الآخر كان استعراضًا للقوة وجمعًا للجزية. وسنُتابع فيما يأتي استعراض بعض النصوص ذات العلاقة بموضوعنا؛ لأن المجال لا يتَّسع لعرضها جميعًا.

في حملته السادسة يتوجَّه تحوتمس الثالث إلى قادش، ثم يَنقلِب إلى مدن الساحل: [والآن كان جلالته في بلاد ريتينو إبان حملته السادسة المظفَّرة. وصَل إلى قادش وجعلها خرابًا، قطع أشجارها وحصد قمحها. بعد ذلك اجتاز جلالته «ريات» Reyet مُتوجِّهًا إلى «سيميرا» ومنها إلى «أرداتا» ففعل بهذه المدن فعله بقادش، وحصل منها على الجزيات الآتية ... (تعداد لأصناف الجزية المقدمة). وأخذ أولاد الأمراء أسرى إلى مصر، حتى إذا ما مات أمير منهم أرسل بولده خلفًا له][١٧] من المدن الواردة أعلاه، نعرف على وجه التأكيد قادش التي تمَّ اكتشافها كما ذكرنا، تحت تلِّ النبي مند قُرب مدينة حمص الحالية في سوريا. كما تمَّ التعرف على «أرداتا» إلى الشمال الشرقي من مدينة طرابلس الحالية في لبنان،[١٨] وبشكلٍ شبه مؤكَّد على «سيميرا» المدينة الكنعانية الساحِلية الكبيرة، وذلك تحت «تلِّ الكزل» قرب ميناء طرطوس السوري، على ما تُفيد التقارير الأولية لبعثة التنقيب الأثرية العاملة في الموقِع الآن برئاسة الدكتورة ليلى بدر من الجامعة الأمريكية في بيروت. وبذلك يتوضَّح مسار هذه الجملة التي ابتدأت من ضفاف نهر العاصي عند بحيرة قطينة ثمَّ انعطفَت شرقًا نحو الساحل القريب.

وعن حملته الثامنة تذكر حوليات الكرنك ما يأتي: [كان جلالته في بلاد ريتينو. وصل إلى «قَطْنا» في حملته المظفرة الثامنة، اجتاز بعد ذلك مُنعطف نهارين الكبير إلى شرق هذه المياه حيث نصَب مسلَّة إلى جانب مسلة أبيه. ثم مضى شمالًا فاجتاح مدن نهارين وسلبها ودمَّر مُعسكرات الأعداء. ثم طاردَهم بالمراكب مسافةً، فكانوا أمامه يفرُّون كقطيع حيوانات صحراوية لا يلتفتون إلى الوراء. بعد ذلك اتجه جلالته جنوبًا فوصل ببلاد «ني» Ni وقفل عائدًا بعد أن وسَّع حدود مصر].

وفي نصٍّ آخر يُعطي الفرعون تفصيلات عن كيفية عبوره مياه نهارين: [لقد صنعتُ سُفني من خشب الأرز عند جبال «بلاد الإله» قرب «سيدة جبيل» وحملتُها على عربات

١٧ .Ibid., p. 239

١٨ الدكتور علي أبو عساف، المرجع السابق، ص٤١٤.

تجرُّها الماشية سارت أمامي من أجل عبور النهر الكبير الذي يفصل بين هذه البلاد الأجنبية ونهارين ... وفي كل عام كانت أخشاب الأرز تُحتطَب من لبنان ويؤتى بها إلى بلاطي].[١٩]

في نصِّ الحملة الثامنة هذه، يَرِد ذكرُ مدينةٍ سورية مهمَّة جدًّا هي مدينة «قَطْنا» التي كانت عاصمةً لمملكة قوية منذ مَطلع الألف الثاني قبل الميلاد. ويرِد ذكرُ هذه المملكة في وثائق الدول المجاورة وخصوصًا وثائق مدينة «ماري» المعروفة على الفرات، فقد تزوَّج «يمسخ حدد» ملك ماري من ابنة ملك قَطْنا، على ما تذكره إحدى الوثائق العديدة المتعلِّقة بالصلات مع مملكة قَطْنا، كما عُثر حديثًا على وثائق تذكر مملكة قَطْنا في أرشيف مدينة «إيبلا» في الشمال السوري. وقد كشفت التنقيبات الأثرية موقع قطنا تحت «تل المشرفة» على مسافة ١٨كم إلى الشمال الشرقي من مدينة حمص الحالية في وسط سورية. وقد كشفت التنقيبات التي تقوم بها بعثة سورية عن المعبد والقصر الملكي، وعددٍ لا بأس به من النقوش الكتابية التي تُؤكِّد هوية المدينة، وتذكر أسماء الملوك الذين تتابعوا على حكمها.

كما ورَد ذِكر مدينة قَطْنا أيضًا في الوثائق الحثية بالأناضول. وفي إحدى هذه الوثائق، يَذكر الملك «شوبيلوليماس» أخبار انتصاراته في الجزيرة العُليا وسورية الداخلية. فبعدَ توجُّهه إلى آشور، يعود الملك فيقطع نهر الفرات مُتوجِّهًا إلى «حلبا» (حلب) وبعد فتحها يُتابع مسيرته شرقًا إلى مملكة «موكيش» (التي تمَّ اكتشاف عاصمتها تحت تل عطشانة شرقي أنطاكيا)، ثم يتَّجه جنوبًا إلى «قَطْنا» فيدمرها ويتابع إلى «دمشق» التي يُهاجمها بالتعاون مع قوات قادش.[٢٠]

من قَطْنا هذه تَبتدي، حملة تحوتمس الثالث، الثامنة، في الأرض التي يدعوها النصُّ ببلاد الإله وهي تَسمية معروفة في الوثائق المصرية للدلالة على بلدان المشرق عمومًا حيث يَصدُر إله الشمس المصري كل صباح من أُفقِه الشرقي. وبعد القضاء على مقاومة المدينة يتوجَّه الفرعون نحو المنعطف الكبير لنهر الفرات، حاملًا معه السفن التي صُنعت له خصوصًا في مدينة «جبيل» وقُطعَت لبنائها أخشاب الأرز من جبل لبنان. أما تعبير «سيدة جبيل» الوارد في النص فهو اسم تبادلي للآلهة «عستارت» إلهة الساحل الكنعاني عمومًا ومدينة جبيل على وجهِ الخصوص، وكان المصريون يُقدِّسونها ويَقرنونها بآلهتهم

[١٩] J. A. Wilson, op. cit., pp. 239–240.

[٢٠] A. Goetze, Hittite Historical Texts (in: James Pritchard, Ancient Near Eastern Texts, Princeton, 1969), p. 318.

«هاتور». عند نهارين يجتاز الفرعون النهر الكبير إلى الضفة الشرقية فيَقضي على مدن الأعداء ويُطارد فلولهم بمراكبه.

فأين مسار هذه الحملة من مواقع كمال الصليبي المفترضة في غرب العربية؟ لم يتعرَّض الصليبي لمدينة قَطْنا القديمة، ولم يُعطِ لها مقابلًا في غرب العربية، أما جبيل (بيبلوس عند الإغريق) المدينة البحرية المعروفة على الساحل اللبناني، والتي تدعوها النصوص المصرية «جبيال» Gebal،[٢١] فقد وجد مُقابلها في موقع «القابل» في إقليم نجران الداخلي، ونهارين في «وادي متان» قرب الطائف (انظر الصفحات ٢٣٥ و٢٢٩)، أما «لبنان» نصوص التوراة ووثائق الشرق القديم فهو ليس لبنان الشام، بل «لبينان» في شمال اليمن، وهو مُرتفِع تَكثُر فيه أشجار العرعر. وليس هناك ما يمنع في رأيه أن يكون أرز لبنان هو عرعر لبينان؛ لأن القواميس العربية تُفيد بأنَّ الأرز قد يكون العرعر (انظر الصفحات ٧٨ و١٥٢). وفي الحقيقة لا يُمكن لمسرح الحملة الثامنة لتحوتمس الثالث أن يكون في غرب العربية. فالهدف الأول للحملة كان مملكة قَطْنا التي عثر عليها المُنقِّبون في سورية وقرءوا نصوصها المكتوبة، وبعد إخضاع قَطْنا جاءت إلى الفرعون سفن مَبنية من مدينة جبيل التي لا يُمكن أن تكون «القابل» في إقليم نجران الجبلي الداخلي في غرب العربية؛ لأنَّ السفن تُبنى على الشواطئ لا على قمم الجبال، والخشب الذي استخدم في بناء مراكب تحوتمس الثالث، هو خشب الأرز المتحطِّب من جبل لبنان القريب من جبيل لا خشب العرعر الآتي من لبينان نجران؛ لأنه إذا كانت كلمة الأرز في القواميس العربية قد تعني العرعر، فإنَّ المصريين كانوا قادِرين على التمييز بين الأرز والعرعر دون الرجوع إلى القواميس العربية، وهم عندما يذكرون الأرز فإنما يَعنون هذا الشجر تحديدًا، وموطنه الوحيد في المنطقة هو مُرتفَعات سلسلة الجبال السورية الساحلية. وأخيرًا كيف تكون مياه نهارين التي تقطعها المراكب ويُبحِر بها المصريون إلى الجهة الشرقية هي وادي مثان قرب الطائف على ما يقول؟

وتعريف مياه نهارين على أنها نهر الفرات، يُساعد على إزالة الشكوك التي أثارها كمال الصليبي في كون مدينة «كركميش» الواردة في النصوص المصرية هي كركميش السورية الواقعة على نهر الفرات إذ يقول: [... والدراسة الصحيحة لحملة مِصرية أخرى

[٢١] John A. Wilson, Egyptian Myths (in: James Pritchard's Ancient Near Eastern Texts, Princeton, 1969), p. 27.

تذكرها التوراة العبرية هي حملة نخو الثاني في السنوات الأخيرة من القرن السابع، تدلُّ على أن هذه الحملة أيضًا كانت موجَّهة بدورها ضد غرب شبه الجزيرة العربية الذي كان يُسيطر عليه البابليون آنذاك، ومعركة كركميش الواردة في أخبار الأيام الثاني وإشعيا وإرميا التي جرت بين المصريِّين والبابليين بهذه المناسبة، إنما جرت قرب الطائف في جنوب الحجاز، حيث ما زالت هناك قريتان مُتجاوِرتان تُسميان «القر» و«قماشه». ولعل الحملات العسكرية الأبكر والتي تعود بتاريخها إلى الألف الثاني قبل الميلاد، والتي يُفترض عمومًا أنها كانت موجهة ضد فلسطين والشام، إنما كانت موجهة بدورها ضد غرب شبه الجزيرة العربية] (ص٣٧). والحقيقة أن مدينة كركميش في سجلات حملات تحوتمس الثالث ترد كمدينة واقعة على مياه نهارين، والآتي إليها يعبر مياه النهر من عندها. نقرأ في نصٍّ ترَكه أحد قادة تحوتمس الثالث في حملته على نهارين: [... ومرةً أخرى كسبتُ الغنائم في هذه الحملة بأرض كركميش فحصلتُ على عددٍ مِن الأسرى الأحياء، ثم عبرتُ فوق مياه نهارين].[٢٢] فإضافةً إلى ما أثبتناه من تطابُق مياه نهارين مع نهر الفرات، فإنَّ موقع كركميش الواضح في هذا النص يتطابق مع موقع كركميش السورية على الضفة اليُمنى لنهر الفرات،[٢٣] (انظر خريطتنا رقم ٧).

وكانت كركميش عاصمة لمملكة سورية مُهمَّة تتحكَّم في حوض الفرات الشمالي منذ مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، وورد ذكرها مرارًا في وثائق أرشيف مدينة ماري المُجاورة لها والتي كانت على علاقات طيبة معها. وقد تمَّ اكتشاف موقع المدينة قرب مدينة جرابلس الحالية على الضفَّة اليُمنى للفرات عند الحدود التركية. خضعت المدينة للحثيين الأناضوليين في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وبعد انهيار الإمبراطورية الحثية على يدِ شعوب البحر حوالي ١٢٠٠ق.م.، صارت كركميش من أقوى الدويلات السورية الشمالية التي دُعيت بالدويلات الحثية الجديدة،[٢٤] وهي تسمية خاطئة درج استعمالها بين المؤرِّخين، رغم دعوة بعضهم حديثًا إلى تغييرها. هذا، وسيكون لنا عودة إلى كركميش عندما نأتي إلى دراسة النصوص الآشورية التي ذكر فيها هذا الموقع مرارًا.

---

[٢٢] L. Oppenheim, Babylonian and Assyrian Historical Texts (in: James Pritchard's Ancient Near Eastern Texts, Princeton, 1969), p. 241.

[٢٣] يُحدِّد اتجاه مجرى النهر عادةً ضفَّته اليُمنى واليُسرى، فإذا جرى جنوبًا كانت ضفته اليمنى شرقية.

[٢٤] Paolo Matthiae, op. cit., p. 19.

الدكتور علي أبو عساف، المرجع أعلاه، ص٣٢٢.

قبل أن نَترك سجلات تحوتمس الثالث، سنتوقف عند حملته السادسة عشرة والأخيرة:
[والآن كان جلالته على الطريق الساحلي في سبيله إلى تدمير «عرقاتا» Irqata والمراكز الواقعة إلى جوارها ... تمَّ التوصُّل إلى «تونيب» Tunip التي أُحرقت واجتثَّت مزروعاتها وقُطعت أشجارها. ثم عاد الجيش مُظفَّرًا إلى منطقة قادش واستولى على ثلاث مدن هناك وأسر أعدادًا كبيرة من المرتزقة الأجانب القادِمين من نهارين للمعونة ...][٢٥]

ومرةً أخرى فإنَّ مسرح هذه الحملة لا يُخفي نفسه. فمدينة «عرقاتا» التي توجَّه إليها الفرعون على الطريق الساحلي، قد تمَّ التعرف عليها في موقع «عرقا» اليوم وهي قربة تقع إلى الشمال الشرقي من مدينة طرابلس الحالية في لبنان،[٢٦] وقد وردت أيضًا في النصوص الآشورية مرارًا كمدينة ساحلية وباسمها الحالي عرقًا دون تحوير.[٢٧] أما «تونيب» فرغم عدم تمكُّن علماء الآثار حتى الآن من تحديد موقعها بدقةٍ، إلا أنَّنا نعرف من تقاطعات أخبارها في وثائق بلاد الشام أنها كانت عاصمةً لمملكة صغيرة سيطَرت على المناطق الممتدة غربي مدينة حمص. وهناك نصُّ معاهدة مكتوبة بين أحد ملوكها واسمه «آري – تشوب» وملك أوغاريت «نقم – عفا» تمَّ العثور عليه في أوغاريت.[٢٨] كما تمَّ العثور في أرشيف مدينة «ألالاخ» عاصمة مملكة «موكيش»، التي اكتُشفت تحت «تل عطشانة» في سهل العمق في الشمال السُّوري غربي حلب، على مُعاهَدة مكتوبة بين ملك ألالاخ «نقميبا» وملك تونيب المدعو «ياريم» تنظم علاقات حُسن الجوار بين البلدين نقتطف منها الفقرات الآتية الموضوعة على لسان ملك ألالاخ:

- إذا أراد تاجر من أحد البلدَين أن يَبيع بضاعته في البلد الآخر، سواء أكانت قمحًا أم شعيرًا أم زيتًا أم ... فإنه يفعل ذلك دون الحصول على ترخيص مُسبَق بذلك.
- إذا تآمر في بلادك أفرادٌ ضدِّي، وكانوا من مواطني «موكيش» وسمعتَ بالأمر، عليك أن تبحث عنهم، ثم لا تَقتلهم بل تقوم بتسليمهم إليَّ.
- إذا أبقَ عبدٌ أو جارية في بلدي ولجأ إلى بلدك، عليك أن تَقبض عليه وتعيدَه إليَّ.

[٢٥] John A. Wilson, op. cit., p. 241.

[٢٦] الدكتور علي أبو عساف، المرجع أعلاه، ص٤١٤.

[٢٧] Leo Oppenheim, Babylonian and Assyrian Historical Texts (in: J. Pritchard's Ancient Near Eastern Texts), p. 283.

[٢٨] الدكتور علي أبو عساف، المرجع أعلاه، ص٤١٢.

- إذا رحلت بعض الأُسر من بلدي إلى بلدك سعيًا وراء الرزق، عليك باستقبالهم وتأمين معاشهم. فإذا أرادوا العودة عليك أن تعمل على تسفيرهم، ولا يحقُّ لك احتجاز أيِّ أسرة في بلدك منهم.[٢٩]

أخناتون وفترة تل العمارنة

بعد وفاة تحوتمس الثالث، تراخت قبضة مصر تدريجيًّا عن مناطق نفوذها التقليدية في بلاد الشام. وقد بلَغَت مرحلة الانحسار أوْجها إبان حكم الفرعون أمنحوتب الرابع (أخناتون) الذي حكم بين عامي ١٣٦٩ و١٣٥٣ق.م. حيث تُركت الممالك السورية لصراعاتها الداخلية ولهجمات جماعات «العابيرو» التي استهدفت فلسطين بالدرجة الأولى، بينما انشغل الفرعون بإصلاحه الديني الشامل وديانته التوحيدية المُتمركزة حول الإله «آتون» القوة الإلهية الوحيدة المتمثِّلة في قرص الشمس الملتهب. اتخذ أخناتون عاصمة جديدة في مدينة «أخيت آتون» أي أفق آتون، ليَبتعِد عن مراكز القوى الدينية القديمة. وقد تمَّ اكتشاف هذ المدينة تحت «تل العمارنة» بمصر العليا في نهاية القرن الماضي، وكان أهم ما عُثر عليه هناك أربعمائة وثيقة مكتوبة باللغة الأكَّادية التي كانت لغة الدبلوماسية الدولية في ذلك العصر، دُعيت برسائل تل العمارنة ومعظمها عبارة عن مراسلات تمَّت بين الفرعون وحكام آسيا الغربية في بابل وآشور وميتاني وكنعان وحاتي (مملكة الحثيين). وغطَّت الرسائل فترة زمنية امتدت بين أواخر حكم «أمنحوتب الثالث» والد أخناتون، وكامل سنوات حكم أخناتون، مما اصطُلح على تسميتِه بعصر تلِّ العمارنة.

شغلت المُراسلات المتبادَلة مع ملوك الدُّويلات السورية حيزًا كبيرًا من رسائل تل العمارنة، فهناك مراسلات مع ملوك «جبيل» و«عكا» و«مجدو» و«شكيم» و«جازو» و«أورشليم» وغيرها. إلا أن كمال الصليبي يرى في وثائق تل العمارنة رسائل مُتبادَلة مع ملوك وحكام دويلات غرب شبه الجزيرة العربية فيقول: [إنَّ بعض أسماء الأماكن المفردة الواردة في رسائل تل العمارنة تُطابق فعلًا أسماء أماكن موجودة في فلسطين وفي غرب شبه الجزيرة العربية في آنٍ معًا. وأبرز هذه الحالات تلك المتعلِّقة بـ «عكا» و«يافا»

---

[٢٩] Erica Peiner, Akkadian Treaties from Syria, (in: James Pritchard's Ancient Near Eastern Texts, Princeton, 1969), pp. 531–32.

أما إذا أُخذت أسماء تل العمارنة جماعيًّا، فإنها لا تندرج عمليًّا إلا في غرب شبه الجزيرة العربية] (ص١١٧). وقد توصَّل الصليبي إلى هذه النتيجة من غير أن يقدِّم لنا نموذجًا واحدًا من رسائل تل العمارنة، بل اكتفى بعرض جدول بأسماء بعض المواقع الواردة في الرسائل ومقابلاتها في غرب شبه الجزيرة العربية.

وقد قمنا بدراسة جميع رسائل تل العمارنة المتعلقة بالدويلات السورية في بلاد الشام، بكل عنايةٍ، فتبيَّن لنا بما لا يدع مجالًا للشك بأنها مراسلات قد جرت مع ملوك سوريا وفلسطين، ولا يُمكن بحال من الأحوال أن تَنطبِق المعلومات التاريخية والأركيولوجية الواردة فيها على غرب العربية وسنُقدِّم الدليل على ذلك من خلال عرض بعض تلك الرسائل.

نقرأ في النص EA, NO 190 وهو عبارة عن إحدى رسائل ملك أورشليم الكنعانية في فلسطين إلى الفرعون ما يأتي: [إلى الملك مولاي، هكذا يقول خادمُك «عبدي هبة» انظر إلى ما فعله «مِلك إيلو» Milkilu و«شوارداتا» Shuwardata بأراضي الملك مولاي. لقد دفعوا بقوات من «جازر» Gezer ومن «جت» Gath ومن «كيلة» Keilah. أخذوا أراضي «روبوتو» Rubutu، وأراضي الملك سُلِّمت إلى شعب «العابيرو». حتى بلدة في أراضي «أورشليم» من أملاك سيدي اسمها «بيت لحم» Bit-Lahm قد أُعطيت إلى «كيلة»، فليُصغِ مليكي إلى خادمه «عبدي هبة» ويرسل قوات تُعيد الأراضي الملكية إلى الملك. وإذا لم تَصِل القُوات، فإن أراضي الملك ستغدو للعابيرو].[٣٠]

في هذا النَّص، كما في أي نص تاريخي آخر، هناك مواقع لم يتم التعرُّف عليها، وأخرى مرجَّحة، وثالثة ثابتة بالدليل الأركيولوجي. فموقع «كيلة» مشكوك بأمره، و«روبوتو» يُرجَّح أن تكون في مكانٍ ما جنوب غربي موقع «مَجِدو».[٣١] أما «جازر» فمدينة كنعانية مهمة تقع على المنحدرات الغربية للسلسلة المركزية في فلسطين، بدأ التنقيب في موقعها منذ مطلع القرن الحالي، وتمَّ التعرف عليها خلال الحملات المتتابعة بإجماع كل علماء الآثار. وقد أفادت التنقيبات الأخيرة أن المدينة ترجع بأصولها إلى الألف الرابع قبل الميلاد،

---

[٣٠] W. F. Albright, Akkadian Letters (in: J. Pritchard's Ancient Near Eastern Texts, Princeton, 1969), p. 489.

[٣١] Ibid., p. 489.

وبقيَت مسكونةً مع بعض الانقطاعات إلى الفترة التوراتية.[٣٢] (ويمكن مراجعة أخبارها في التوراة في المواضع الآتية: يشوع ١٠: ٣٣؛ و١٦: ٣؛ و١٠؛ و٢١: ٢١؛ والأيام الأول ٦: ٦٧ و٢٠: ٤؛ والقضاة ١: ٢٩؛ وصموئيل الثاني ٥: ٢٥؛ والملوك الأول ٩: ١٥–١٧).

وأما «جت» فكانت إحدى مدن الفلستيِّين الرئيسية وحصنًا من حصونهم، أمكن لعلم الآثار التعرُّف عليها في موقع «تل جت» في الشريط الساحلي الفلستي جنوبًا[٣٣] (ويُمكن مراجعة أخبارها في التوراة في المواضع الآتية: (صموئيل الأول ٦: ١٧ و٧: ١٤ و١٧: ٤؛ وصموئيل الثاني ٢١: ١٥–٢٢؛ ويشوع ١١: ٢٢؛ والعدد ١٣: ٣٣؛ والتثنية ٢: ١٠–١١ وغيرها).)

ويلفت نظرها في النص أعلاه ورود ذِكر بلدة «بيت لحم» لأول مرةٍ في السجلات القديمة، وتَرِد هنا مُترافقةً مع «أورشليم» باعتبارها تقع في منطقتها. فماذا قال كمال الصليبي بشأن هذين الموقعَين الواردين في رسائل تل العمارنة؟ فيما يتعلَّق بأورشليم، حدد مكانها جنوب مدينة النماص بعسير حيث تُوجد إلى الآن قريتان توءمان اسم الأولى «أروي» والثانية «آل سلام» قرب التنومة (ص١٢٠) أما «بيت لحم» فلم يأتِ على ذِكرها في جدوله لمواقع تل العمارنة، بل في الفصل الثامن الذي يرسم فيه حدود مملكة يهوذا القديمة في عسير، حيث حدَّد موقع بيت لحم بقرية «أم لحم» الحالية في وادي أضم (ص١٧٢). وبما أننا سنُفرد لاحقًا في باب «البينة الآثارية» حيزًا كبيرًا لأركيولوجية مدينة أورشليم، فإننا سنكتفي هنا بالإشارة إلى تناقض في طبوغرافية موقعي أورشليم وبيت لحم عند كمال الصليبي على ضوء رسالة تلِّ العمارنة؛ فالرسالة تقول إنَّ بلدة بيت لحم تقع في أراضي أورشليم (وهنا يجب أن أُنبِّه إلى أن قراءة أولبرايت لكلمة بيت لحم غير مؤكَّدة) وهو ما يتَّفق تمامًا مع الوضع الطبوغرافي للمُوقِّعين في كنعان حيث لا تبعد بيت لحم عن أورشليم أكثر من عشرة كيلومترات، أما في خريطة الصليبي فإن المسافة بين منطقة جنوب النماص حيث تقع القريتان التوءمان أروي وآل سلام، ومنطقة وادي أضم الشمالي حيث الموقع المفترض لبيت لحم، تبلغ الـ ٢٥٠كم، وهو ما يتعارض مع نَص رسالة تل العمارنة الواضح بهذا الشأن.

[٣٢] Kathleen Kenyon, Archaeology in the Holy Land, Methuen, London, 1985, p. 326.

[٣٣] Ibid., pp. 80, 215.

ولعل من أكثر رسائل تل العمارنة تمثيلًا للوضع السياسي في فلسطين والساحل الكنعاني، رسالة «رب عدي» ملك مدينة «جبيل» إلى الفرعون يشكو إليه فيها تعديات «عازيرو» ملك «أمورو» تقول الرسالة:

[من «رب عدي» Rib-Addi إلى مولاه الملك، إله شمس البلاد. عند قدمَي الملك أسجد سبع مرات وسبعًا. لقد كتبتُ مرارًا في طلب قوات الحماية ولم أحصل عليها؛ فالملك لا يُصغي لكلمات خادمه، ورسولي الذي بعثتُ به إلى البلاط عاد خالي الوفاض وبلا قوات. وعندما رأى أهل بيتي أن الفضَّة لم تعطَ إليَّ هَزِئوا بي، وكذلك قوادي وإخوتي واحتقروني. مضيتُ إلى «هامونيري» Hamuniri وكان أخي يُؤلِّب المدينة ضدي ليعطيها إلى أبناء «عبدو عشيرتَه» Abdu Ashirta وعندما عرف أخي أن رسولي عاد خالي الوفاض وبدون قوَّات لدَعمي، ازدراني وطرَدني خارج المدينة. أرجو من الملك ألا يقف مكتوف اليدَين أمام فِعال ذلك الكلب. انظر إلى حالي، فأنا رجل مريض ومُسنٌّ ولا أستطيع القدوم إلى مصر ... ولكني أرسلت ابني، خادم الملك مولاي. فليَستمِع الملك إلى كلمة خادمه ويرسل قوات من الرماة إلى جبيل لكيلا يدخلها المتمردون وأبناء عبدو عشيرتَه ... إن المتمردين لقلةٌ ومعظم أهل المدينة إلى جانبي، وعندما يسمعون بوصول القوات، ستعود المدينة إلى الملك مولاي ... إن في مدينتنا جبيل ثرواتٍ كبيرةً للملك مولاي، جاءت من أسلافنا، فإن لم يتدخَّل الملك من أجل المدينة فإنه سيَفقد كل مدن كنعان].[٣٤]

ويبدو أن تعديات «عازيرو» بن «عبدو عشيرته» ملك آمورو قد شملَت معظم مناطق الساحل الكنعاني، فلدينا رسالة من «أبي مِلك» Abimilk ملك صور تُكرِّر الشكوى نفسها، يقول في آخرها: [... إنني أحمي «صور» المدينة العظيمة من أجل مولاي الملك، إلى أن تصلَني قواته فتهبني ماءً لأشرب وحطبًا لأدفأ. ثم إن «زيميريدا» ملك «صيدون» قد كتب مرارًا إلى المجرم «عازيرو» Aziru بن «عبدو عشيرتَه» بخصوص كل ما سمعه من مصر، وها أنا قد كتبت إليك بكل ما يتوجَّب عليك معرفته].[٣٥]

«عازيرو» ملك «آمورو» الشخصية المركزية في هاتين الرسالتين، معروف لدينا من وثائق أخرى بعضها من بلاد الشام وبعضها الآخر من مَوطن الحيثيين في الأناضول. ومملكته آمورو، كما نعرف من هذه الوثائق، كانت تسيطر على السهول الممتدة حول

---

[٣٤] W. F. Albright, op. cit., p. 483.

[٣٥] Ibid., p. 484.

نهري الكبير والأبرش وعلى المنطقة الساحلية من طرطوس وحتى البترون. وقد أسَّس فيها «عبدو عشيرتَه» سلالة تسلَّمت زمام الأمور منذ مطلع القرن الرابع عشر وحتى مطلع القرن الثاني عشر عندما قضت عليها موجات شعوب البحر.[٣٦] وكانت عاصمتها مدينة «سيميرا» التي أشرنا سابقًا إلى موقعها في تل الكزل قرب طرطوس عند دراستنا لسجل الحملة السادسة لتحوتمس الثالث. ويبدو أن الملك عازيرو كان يلعب في هذه الأحداث الدامية، التي جرت في فلسطين والساحل الكنعاني أواسط القرن الرابع عشر، دورًا مرسومًا له من قِبل الحثيين الذين استغلوا فرصة ضعف مصر إبان حكم آخناتون لملء الفراغ في سورية ويؤكد لها هذا الاستنتاج معاهدة عُقدت بين الملك الحثي «شوبيلوليماس» وعازيرو ملك آمورو. وقد عُثر على نصِّ المعاهدة في «بوغازكوي» موقع عاصمة الإمبراطورية الحثية بالأناضول منقوشًا على نسختين واحدة حثية والأخرى أكادية، يعود تاريخ هذه المعاهدة إلى فترة تل العمارة، ويرد فيها اسم عازيرو في النسخة الحثية بصيغة «عازيراس». وهذه فيما يأتي مقدمتها الموضوعة على لسان الملك الحثي:

[أنا الملك الشمس جعلتُك يا «عازيراس» تابعي. فإن صُنت أرض ملك «حاتي» سيدك فإن سيدك ملك حاتي سيُقدم لك الحماية بالطريقة نفسها. عليك أن تَحمي رُوح مليكك وشخصه وجسمه وأرضه كما تَحمي روحك وشخصك وجسمك وأرضك، وملك حاتي سيُقدِّم لك بالمقابل الحماية نفسها، وكذلك أولادُه وأحفاده. ويتوجَّب عليك دفع ٣٠٠ شيكل من الذهب الخالص لملك حاتي في كل سنة جزيةً، يَجري وزنها بمَوازين تجار بلاد حاتي. وعليك أن تأتي بلاد حاتي، إلى الملك الشمس مرةً في كل عام. لقد كان ملك «مصر» وملك «الحوريين» وملك ... وملك «كنزا» وملك «نوخاشا» Nuhassa وملك «نيبا» Niya وملك ... وملك «موكيش» Mukis، وملك «حلب» Halba وملك «كركميش» Kargamis، كانوا جميعًا يُناصبُون الملك الشمس عداوةً، غير أن عازيراس ملك آمورو قد ترك بوابة مصر وصار مواليًا للملك الشمس].[٣٧]

إنَّ معظم المدن والممالك الواردة أسماؤها في هذا النص قد كشف علم الآثار عن مواقعها وقُرئت نصوصها وقُوطعت مع نصوص أخرى من ممالك الشرق القديم.

[٣٦] الدكتور علي أبو عساف، المرجع السابق ص٤١٢.

[٣٧] Albrecht Goetze, Egyptian and Hittite Treaties (in: James Pritchard's Ancient Near Eastern Texts, Princeton, 1969), p. 529.

فـ «حاتي» هو اسم مملكة الحيثيين في الأناضول، به دعوا أنفسهم وبه عرفهم جيرانهم. والحوريون هم شعب مَملكة «ميتاني» في الجزيرة العليا التي عرفنا الكثير عن أخبارها من وثائق موقع «نوزي».

و«كنزا» هي مملكة «قادش» على نهر العاصي قرب مدينة حمص الحالية. و«موكيس» هي مملكة ألالاخ في سهل العمق بين مدينتي حلب وأنطاكيا، وقد تمَّ اكتشافها تحت «تل عطشانة» الذي أمدنا بفيض من النصوص المهمة. و«حلبا» هي مملكة حلب أو «يمخاض» التي كان مركزها في مدينة حلب الحالية. أما «نوخاشا» (أو نوخشي) فنعرف مِن تقاطُعات أخبارها في نصوص الممالك الأخرى أنها شغلت مكانًا يقع بين مدينتي «حماة» و«حلب». وهكذا نجد أن مملكة آمورو التي شغلت أخبارها حيزًا لا بأس به من رسائل تلِّ العمارنة قد قامت في بيئة سورية شأنها في ذلك شأن بقية ممالك عصر تلك العمارنة. فأي حُجة تبقى بعد ذلك لنَقلِ مسرح هذا العصر الحافل إلى غرب شبه الجزيرة العربية؟

سيتي الأول: وثائق من كنعان

بعد سقوط أخناتون لم تَستطِع مصر إعادة سيطرتها على مناطق نفوذها في سورية وفلسطين إلا في عهد «سيتي الأول» (١٣٠٢–١٢٩٠ق.م.)، وهو الفرعون الثاني من الأسرة التاسعة عشرة. وتَكمُن أهمية سجلات هذا الفرعون أن بعضها قد وُجد في أرض فلسطين. وهذا ما يُمدُّنا بمعلومات مباشرة من ساحة الحدث ذاتها، لا مِن أرشيفات مصر ومسلاتها ونصبها التذكارية.

فلقد تمَّ العثور في موقع «بيت شان» المدينة الكنعانية المهمَّة في فلسطين، على نصب تذكاري نَقش عليه سيتي الأول أخبار حملته على مدينة بيت شان التي تَمركز فيها مُناوئوه. نقرأ في النص، بعد المقدمة الفخرية المعهودة:

[هو الذي يَنفذ إلى جحافل الآسيويين ويُجبرهم على الرضوخ، الذي يُحطم أمراء «ريتينو» وتطال يدُه كل الخارجين عليه. في هذا اليوم، جاء مَن يُخبره بأنَّ العدو اللئيم في بلدة «حمث» Hamath قد جمَع إليه العدد الغفير من الجنود واستولى على «بيت شان» Bet-Shan، ثم عقدُوا حِلفًا من «باهيل» Pahel، وها هم قد حجزُوا أمير «رحوب» Rehob عن الخروج. عند ذلك قام جلالته بإرسال جيش إلى بلدة حمث وآخر إلى بيت شان وثالث

إلى «ينوم» Yanoam وما إن انقضى النهار حتى هُزموا جميعًا أمام عظمة جلالته ملك مصر العُليا والسُّفلى ...][٣٨]

لقد كشفت التنقيبات الأثرية عن بيت شان تحت «تلِّ الحِصن» قرب مدينة «بيسان» الحالية في فلسطين التي حافظت على الاسم القديم للمدينة الكنعانية، وتبيَّن أن الموقع كان مسكونًا منذ الألف الرابع قبل الميلاد، وبقيَ مأهولًا بالسكان عبر العصر البرونزي وصولًا إلى العصر الحديدي في أواخر الألف الثاني ومطلع الألف الأول قبل الميلاد.[٣٩] أما بقيَّة الأماكن الواردة في النص، فقد أمكَن تحديد مواقعها إما بشكل تقريبي أو مؤكَّد. ف «حمث» هي «تل الحامة» على بُعد عشرة أميال جنوبي بيسان، و«رحوب» من «المُحتمَل» أن تكون «تل الصارم» على بُعد ثلاثة أميال جنوب بيسان، و«ينوم» من المحتمل أن تكون في موقع «تل النعامة» شمالي بحيرة الحولة.[٤٠] هذا وإضافة إلى بيت شان، المدينة التي شهدت أحداثًا مهمَّةً في التوراة فقد ورَد في التوراة أيضًا ذِكر رحوب (راجع سِفر العدد ١٣: ٢١؛ وصموئيل ١٠: ٨٦؛ ويشوع ١٩: ٢٨–٣٠، و٢١: ٣١؛ وأخبار الأيام الأول ٦: ٧٥) ومن أجل ينوم (راجع يشوع ١٥: ٥٣).

وبذلك يُقدِّم لنا نصُّ سيتي الأول دليلًا قاطعًا مُزدوجًا. فمدينة بيت شان التوراتية قد تم العثور عليها في أرض كنعان، والبينة عليها ليسَت أركيولوجية فحسب بل وكتابية أيضًا؛ إذ يظهر بوضوح اسم المدينة في النص المُكتشَف بين أنقاضها. ومن ناحية أخرى يُثبت هذا النص أن الحملات المصرية كانت موجهةً نحو سورية وفلسطين لا نحو غرب شبه الجزيرة العربية، وإلا كيف يترك فرعون مصر حجرًا تذكاريًّا في فلسطين يُخلِّد فيها انتصارًا حقَّقه في عسير؟ إضافة إلى ذلك فقد تمَّ العثور في موقع بيت شان على نصب تذكاري ثانٍ تركه سيتي الأول أيضًا، ورغم تحطُّم النصب وصعوبة قراءة الكتابة المنقوشة عليه، فإننا نَفهَم منه أن الفرعون قد صد هناك هجمات العايبرو والقادمين من الأردن. كما عثر على تمثال للفرعون «رمسيس الثالث»، وعلى نص تركه أحد القادة العسكريين في حملة هذا الفرعون ضد شعوب البحر، يَحكي عن وصول الجيش المصري إلى شمال فلسطين سعيًا وراء فلول القوات المُتراجعة.[٤١]

---

[٣٨] John A. Wilson, op. cit., p. 253.

[٣٩] Bray and Trump, Penguin Dictionary of Archaeology, pp. 37–38.

[٤٠] John A. Wilson, op. cit., p. 153.

[٤١] Kathleen Kenyon, op. cit., pp. 201–204, 227.

أمام كل هذه الحقائق التاريخية والأركيولوجية، لا نستطيع الاتِّفاق مع كمال الصليبي في نقل «بيت شان» السجلات المصرية إلى غرب العربية، حيث وجد مكانها في موقع «الشنية» في منطقة الطائف (ص٢٠٩–٢١٠) ولا نستطيع مُجاراته في القول بأن الباحثين من شتى المشارب قد أساءوا تفسير السجلات الطبوغرافية المصرية، وهو قول ما انفكَّ يُردِّده عبر كتابه دون أن يُقدم شاهدًا واحدًا على ما يقول.

ترك لنا سيتي الأول أيضًا عددًا من الرسوم على جدران الكرنك تُصوِّر معاركه في آسيا وأفريقيا، ومع كل رسمٍ نصٌّ توضيحي قصير. وسنُقدم فيما يأتي ترجمة للنصوص المتعلِّقة بحملاته الآسيوية.[٤٢]

[في السنة الأولى لحكم ملك مصر العُليا والسُّفلى، بطشت يد الملك الجبار بأعدائه من «الشاسو» من حصن «صايل» إلى «كنعان»؛ حيث تغلب عليهم جلالته كأسد هصور فجعلهم أشلاء تَسبح في دمائها بالأودية]. وقد كُتب هذا النص تحت صورة تُظهر حصار الجيش المصري لمكان محصَّن غير محدَّد الهوية. أما الشاسو المذكورون هنا فهم، كما يقول خبراء النصوص المصرية، البدو المتجوِّلون في جنوب فلسطين وشمال العربية،[٤٣] ويبدو أن الفرعون قد طارد هؤلاء حتى وصل إلى بعض المدن الكنعانية التي كان حُكامها يَستأجرونهم أو يُحرِّضونهم على العصيان. وهناك مشهد يصور استيلاء الجيش المصري على بلدة «ينوم» الكنعانية وقد ذكر تحت المشهد اسم المدينة دون أي شرحٍ. ويبدو أن هذه المعركة هي معركة ينوم نفسها الواردة في نصب بيت شان التذكاري. ومشهد آخر يصور مجموعة من الآسيويين تَقطع الأشجار في بلدةٍ أشار النص المرافق إلى حاكمها بأنه أمير لبنان العظيم. ومشهد يصور عودة الفرعون المظفَّرة من حملة له في سورية كُتب تحتَه: [عودة جلالته من ريتينو العليا، بعد أن وسَّع حدود مصر] ومشهد يصور قيام الفرعون بتقديم القرابين للآلهة بعد عودته من قتال الحثيين نقرأ تحته: [تقديم القرابين من الإله الطيب — أي الفرعون — إلى أبيه آمون رع، لدى عودته من بلاد حاتي، بعد سحق المتمرِّدين ومحق الآسيويين وبلدانهم، وقد أتى معه بأمراء ريتينو الأنذال ليضعهم في معبد أبيه آمون رع]. وهناك مشهد يصور حصار مدينة قادش السورية كُتب تحته: [صعود الفرعون لتدمير قادش وبلاد آمورو]. ومما يُؤكد أن قادش المذكورة في هذا النص

[٤٢] John A. Wilson, op. cit., pp. 254–255.

[٤٣] د. محمود عبد الحميد أحمد، الهجرات العربية القديمة، دار طلاس، دمشق ١٩٨٨م، ص١٩٥.

هي قادش بلاد الشام، العثور على بقايا حجر تذكاري للفرعون سيتي الأول في موقع المدينة المكتشفة.[٤٤]

رمسيس الثاني: الوفاق الدولي

تابع «رمسيس الثاني» (١٢٩٠–١٢٢٤ق.م.) ما بدأه سيتي الأول من إعادة النفوذ المصري إلى مناطقه التقليدية في بلاد الشام، بعد فترة الانحسار التي ابتدأت بحُكم الفرعون أخناتون، وهي الفترة التي نشط خلالها الحثيون وبسطوا نفوذهم تدريجيًّا على مُعظَم مناطق بلاد الشام. وكما فعل سيتي الأول فقد ترك لنا رمسيس الثاني عددًا من النُّصب التذكارية في بلاد الشام، أهمها النُّصب الذي تمَّ العثور عليه في موقع بيت شان بفلسطين، وقد نُقش عليه: [في السنة التاسعة، الشهر الرابع من الفصل الثاني اليوم الأول، عند طلوع الفجر تمَّت هزيمة الآسيويين. جميعًا أتوا صاغِرين يَنحنون أمامه في قصره في «بي – رمسيس – ميري – آمون»]،[٤٥] وبي رمسيس المذكورة هنا هي عاصمة رمسيس الثاني التي بناها في منطقة الدلتا. وهناك أيضًا ثلاثة نُصب تذكارية أخرى تركها رمسيس الثاني عند مصبِّ نهر الكلب بين بيروت وجبيل، ولكنَّها أُخرجت من الموقع في حالة مُهشَّمة لا تسمح بالقراءة الواضحة لنصوصها.[٤٦]

وكان لا بدَّ لنشاطات هذا الفرعون الطموح من أن تَصطدِم بعناد الحثيين وتصميمهم على الاحتفاظ بمناطق نفوذهم، وهم القوة العُظمى الثانية في المنطقة إلى جانب مصر بعد أفول بابل، فقامت بين الإمبراطوريتَين حروب شرسة أهمها معركة قادش على ضفة نهر العاصي عام ١٢٨٦ق.م.، التي خلَّدها الفرعون في نصٍّ مفصل طويل، نقتطف فيما يأتي بعض فقراته ونلخص الأخرى.[٤٧]

[السنة الخامسة، الشهر الثالث من الفصل الثالث، اليوم التاسع ... توجَّه جلالته إلى بلاد «زاهي» في حملته المُظفَّرة الثانية. نَصب معسكره على التلال الواقعة إلى الجنوب من

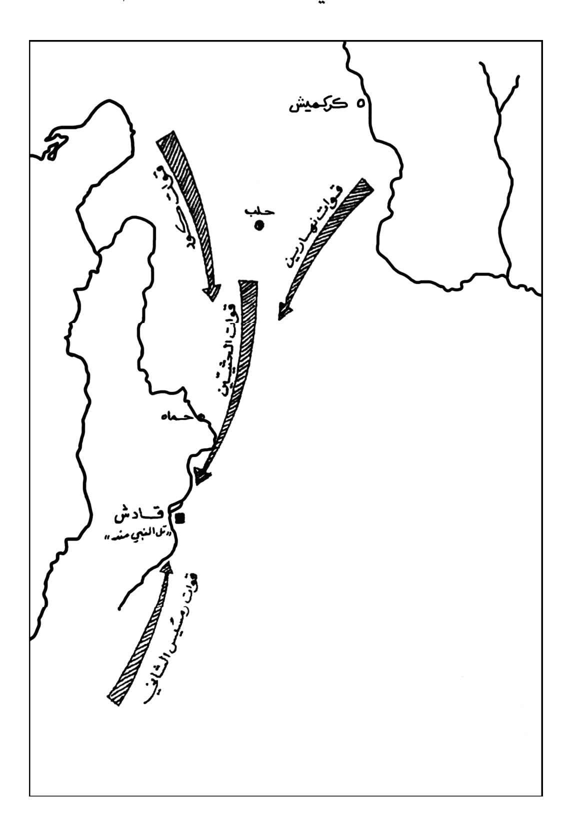
---

[٤٤] John A. Wilson, op. cit., p. 254.

[٤٥] Ibid., p. 255.

[٤٦] Ibid., p. 255.

[٤٧] W. McNeill and J. Sedlar, the Ancient Near East, Oxford University, London, 1968, pp. 16–19.



الخارطة رقم ٥: معركة قادش.

قادش. وعندما أخذ بالتحرُّك شمالًا ووصل إلى بلدة «شاباتونا» أتاه اثنان من «الساشو» وقالا له إنهما ينتميان إلى أكبر الأُسر العاملة إلى جانب ملك الحثيين المهزوم، وأنهما وأصحابهما سيتركون الحثيين وينضمُّون إلى الفرعون. كما أبلغاه بأن ملك الحثيين يُعسكِر في أراضي «حلب» إلى الشمال من «تونيب» ويخشى التقدُّم جنوبًا فزعًا من جلالة الفرعون]. وقد تبيَّن فيما بعد أن هذَين البدويَّين كانا جاسوسين لملك الحثيين، وأنهما أبلغا الفرعون نبأً كاذبًا ليتقاعس عن المُضي شمالًا لملاقاة العدو. وبينما كان المصريون آمنين في معسكرهم جنوبي مدينة قادش وصل الحثيون إلى تخومها وتهيئوا للمُفاجأة [فوصل ملك الحثيين ومعه ملوك بلدان عديدة بمشاتهم وعرباتهم، ساقهم إلى جانبه عنوةً وقسرًا واصطفُّوا للقتال خلف قادش المدينة المُراوغة. وعندما علم جلالته بالأمر حرَّك قواته شمالًا

ونزل إلى الشمال الغربي من قادش]. وهناك قبض جنوده على جاسوس للعدو أخبر الفرعون بمعلومات هامة عن مواقع الحثيين وقُوَّاتهم التي رفدتها جيوش من «نهارين» و«كود» كاملة العدد والتجهيز. وبينما كان يعقد اجتماعًا لقادته على عَجلٍ، أطبق عليهم الحثيون فتضعضعت قوات المصريين، غير أن شجاعة الفرعون وإقدامه رجَّحت كفة الميزان، حيث أعمل في الخصوم تقتيلًا بيده وسلاحه ورمى بجثثهم في نهر العاصي.

لا يمكن لمسرح هذه المعركة أن يكون في غرب شبه الجزيرة العربية (انظر خريطتنا رقم ٥) فجميع المواقع المذكورة في هذا النص كنا قد حدَّدنا أماكنها في بلاد الشام. فرمسيس الثاني يتحرَّك على الطريق الساحلي عبر بلاد «زاهي» وهي في النصوص المصرية المناطق الساحلية لفلسطين ولبنان، ثم يتابع مسيرته شمالًا ليعسكر إلى الجنوب من مدينة «قادش». أما قوات الحثيين فتتجمَّع في أراضي حلب شمال «تونيب» تُرفدها قوات من «نهارين» و«كود»، ويتقدم الحلفاء إلى شمالي موقع قادش حيث تقع المعركة على ضفاف نهر العاصي (ويُدعى بالهيروغليفية المصرية Yarnet التي يقابلها باليونانية Orotes).

لم تكن معركة قادش هي الفاصلة، بين القوَّتين العُظميَين. فقد استمرَّت المناوشات بينهما طيلة ستة عشر عامًا تلتْ ذلك، انتهَت بتوقيع معاهدة بين الطرفين تُعتبر من أشهر معاهدات العالم القديم. وقد أطلقت هذه المعاهدة يد الحثيين في مناطق بلاد الشام الواقعة إلى الشمال من قادش واحتفظ المصريون بسيطرتهم على المناطق الواقعة إلى الجنوب منها. وقد تمَّ اكتشاف نسختي المعاهَدة في موقعين يَبعدان عن بعضهما آلاف الأميال؛ فالنص الحثي للمعاهدة وُجد في مدينة «حاتوسس» عاصمة الحثيين في الأناضول التي اكتُشفت قرب «بوغازكوي»، وهو مكتوب باللغة الأكادية، والنص المصري وُجد على جدار معبد آمون في «طيبة» بمصر وهو مكتوب بالهيروغليفية المصرية.[٤٨] وقد أعقب المعاهدة زواج رمسيس الثاني من ابنة الملك الحثي «حاتوشيلي».

(٣) نصوص أدبية

ترك المصريون القدماء نصوصًا أدبية كثيرة، لا يقلُّ بعضها عن الوثائق التاريخية أهميةً نظرًا لما تتضمَّنه من معلوماتٍ دقيقةٍ ووصفٍ مُفصلٍ للأحداث والأمكنة، مثل قصة «سنوحي» و«الأخوين» و«وينامون» ورسالة «أمين – رام أوبت».

[٤٨] Ibid., pp. 42–43.

وقد اختَرنا النص الأخير لعلاقته الوثقى بموضوعنا، وهو عبارةٌ عن رسالة موجَّهة من كاتب القصر الملَكي المدعو «أمين – رام أوبت» إلى موظَّف رسمي تحت التدريب يتهيَّأ للسفر إلى خارج أراضي المملكة، يَنقل له فيها معلومات جغرافية عن مواطن عمله المقبل. وسنقتطف من الرسالة المقاطع المتعلِّقة ببلاد الشام.[٤٩]

[... أنت تقول إنك كاتب ماهر، فإن كان ذلك صحيحًا، هلمَّ إلى الاختبار. هذا حصان مُسرَّج لأجلك، سريع كابن آوى، وكالزوبعة في انطلاقه ... أنت لم تذهب بعدُ إلى بلاد «حاتي» ولم ترَ أرضَ «أوبه» Upi، ولم تَعرف شيئًا عن «خيديم» Khedem، ولا عن طبيعة «يجدي» Yegdy، ولا كيف تبدو «سيميرا» رمسيس، وإلى أي جهة منها تقع مدينة «حلب» Halba. أنت لم تذهب إلى «قادش» ولا إلى «توبيخي» Tubikhi، أنت لم تَذهب إلى أقاليم البدو مع نبَّالة الجيش ... دعني أُخبرك عن مدينة أخرى هي «جبيل» كيف منظرها وما آلهتها، فأنت أيضًا لا تعرفها، وعن «صيدون» و«بيروت» و«ساريبتا» Sarepta، وأين يَجري نهر «الليطاني». وكيف تبدو «أوزو» Uzu، ومدينة في البحر أخرى اسمها «صور» الميناء، التي يُحمل إليها ماء الشرب بالقوارب، وفيها السمك أكثر عددًا من الرمال].

يبدأ كاتب الرسالة، في هذا المقطع، يُوصِّف جغرافية بلاد الشام من الشمال ثم يَنحدِر نحو الجنوب؛ فالرحلة المتخيَّلة تبدأ من بلاد الحثيين والمناطق السورية الشمالية الواقعة تحت سيطرتهم والتي كان المصريُّون يُطلقُون عليها أيضًا اسم «حاتي» ثم تتَّجه جنوبًا نحو منطقة دمشق التي كانت تتبع في ذلك الوقت مقاطعة «أوبه» وعاصمتها «كوميدو» في البقاع الجنوبي (كامد اللوز الآن) وذلك قبل أن تتحوَّل إلى مملكة آرامية.[٥٠] ومنها تَنعطِف نحو المنطقة الساحلية مُبتدئة بمدينة «سيميرا» عاصمة مملكة «آمورو» في منطقة طرسوس الحالية. من سيميرا تَسير الرحلة بمحاذاة الساحل فتصل إلى «جبيل» الميناء الكنعاني الرئيسي الذي كان المصريون على احتكاك به منذ مَطلع عصر الأُسرات، ومنها جنوبًا إلى «بيروت» و«صيدون» و«ساربيتا» المدينة الفينيقية المهمَّة التي تمَّ اكتشافها مؤخرًا بين صيدا وصور على الساحل اللبناني.[٥١]

---

[٤٩] John A. Wilson, Egyptian Letters (in: J. Pritchard's Ancient Near Eastern Texts, Prince–ton, 1969), p. 476

[٥٠] الدكتور علي أبو عساف، الآراميون، دار أماني، سورية ١٩٨٨م، ص٥٩.

[٥١] Harvey Weiss, Ebla to Damascus, Smithsonian Institution, 1985, p. 264.

أما عن مدينة «صور» فيُقدم النص وصفًا دقيقًا لموقعها، فهي تتألَّف من قسمَين بحري يقع على جزيرة تبعد مسافة ميلَين فقط عن الشاطئ واسمه صور، وقسم برِّي يقع على البر المقابل تمامًا واسمه «أوزو». ومن المعروف تاريخيًّا أن هذه المدينة بقيت موزعةً بين البر والبحر حتى حملة الإسكندر الأكبر الذي ردم البحر بين جزئَيها خلال حصاره لها. بعد ذلك تتابع الرحلة مسيرتها إلى شواطئ فلسطين ثم تَنعطِف نحو أراضيها الداخلية:

[... تعالَ ضعنا على الطريق جنوبًا نحو إقليم «عكا» إلى أين يَنتهي الطريق الآتي من «أكشف» إلى أي مدينة؟ أخبرني عن جبل «أوزير» Oser، كيف تبدو قمَّته؟ وعن جبل «شكيم» ومن أين يبدأ الكاتب رحلته إلى «حاصور»؟ ضعني على الطريق إلى «حمث» و«دجر» و«دجر إيل» Deger El. تعالَ دعني أخبرك عن مدن تقع فوقها (يلي ذلك عدد من المواقع التي لم يُمكن التعرُّف على مُعظمها، ثم يعود كاتب الرسالة إلى حيث انطلَق). أخبرني عن «رحوب» و«بيت شان» و«ترقا إيل»، عن نهر الأردن وكيفية عبوره، وكيف الوصول إلى «مجدو» ...]

في المقطع أعلاه، تجتاز الرحلة المتخيَّلة رأس الناقورة نحو «عكا» ثم تتَّجه غربًا إلى الأراضي الداخلية لفلسطين فتجتاز «أكشف» التي يَعتقِد أنها «تل كيسان» في وادي عكا جنوب الجليل وتصل إلى «شكيم» التي اكتُشف موقعها قرب «نابلس» الحديثة، وجبلها الذي يُدعى اليوم بجبل نابلس، ثم تتحرَّك جنوبًا مسافةً ليسَت بالبعيدة إلى «حاصور» التي اكتُشف موقعها تحت «تل القدح» في وادي الأردن. وهنا يَنعطِف خط الرحلة نحو الشمال إلى «رحوب» وهي «تل الصارم» على بعد ثلاثة أميال جنوب «بيت شان» (بيسان)، فبيت شان، وهناك يتوقَّف المسافر ليُلقي نظرةً على نهر الأردن القريب ويتساءل عن كيفية عبوره، ثم يتَّجه غربًا نحو «مَجِدو» وفي نهاية الرحلة يتم الوصول إلى قرب الحدود المصرية:

[إيه أيها الكاتب، أين كل تلك المدن؟ و«رفح» Raphia كيف تبدو أسوارها وما المسافة بينها وبين «غزة»؟]

وهكذا يُقدِّم لنا هذا النص الفريد صورةً واضحةً مُتكاملةً لجغرافية بلاد الشام بمُدنها وأسمائها القديمة، وخصوصًا مدن الساحل الكنعاني، وفلسطين الداخلية التي حافظَت على أسمائها إلى فترة السيطرة السياسية للإسرائيليِّين، دون أن يكون لهؤلاء

الإسرائيليِّين يدٌ في تسميتِها بأسماء مواقع كانت معروفةً في غرب شبه الجزيرة العربية، وهي المُسوِّغ الأساسي لتشابه أسماء المواقع في رأي كمال الصليبي.

وإذا كان من المُستحيل كما هو واضح لأيِّ قارئ لهذا النص، مُطابقة مضمون رسالة كاتب القصر الملكي الفرعوني، الذي كان بمثابة سكرتير للخارجية في قصر الفرعون، على المواقع التي يَفترضها الصليبي في غرب العربية، فإنَّ ذلك يَستتبِع نتيجة مهمة مفادها أنه إضافة إلى الحملات المصرية التي كانت مُوجَّهةً نحو بلاد الشام، فإنَّ هذه المنطقة أيضًا كانت محور الدبلوماسية المصرية في المشرق، وأن غرب العربية لم يكن له وجود، لا في الاعتبارات العَسكرية ولا في الاعتبارات السياسية المصرية.

(٤) نتائج وتساؤلات

إنَّ النصوص التي قدمناها في الفصل ليست إلا غيضًا من فيض السجلات المصرية القديمة التي قُمنا بدراستها، والتي لا يُمكن لهذا العمل المحدد الهدف أن يستوعبها أو يفيَها حقَّها. ونستطيع القول بكل ثقة، أننا لم نَعثُر على نصٍّ واحد يُمكن أن تَنطبِق مُعطياته على الخريطة القديمة التي يفترضها كمال الصليبي لغرب شبه الجزيرة العربية. إلا أنه يَتوجَّب علينا، توخيًا للدقة والحذر العِلمي، أن نَعترف بوجود نصٍّ واحد غامض، هو سجل حملة الفرعون «شيشانق الأول» (٩٤٥–٩٢٤ق.م.). فالنص يَحتوي على أسماء المدن والمواقع التي قهرها شيشانق في حملته الآسيوية، ومُعظمها لم يُمكن التعرُّف عليه إلا بشكل تقريبي في فلسطين وسورية.

يُضاف إلى ذلك تناقُض معلومات النص مع بعض الحقائق التاريخية، فمملكة «ميتاني» التي يَتباهى الفرعون بإخضاعها لم تكن قائمةً في زمنه. وقد ركَّز السيد كمال الصليبي على سجلِّ حملة شيشانق وأفرد له فصلًا كاملًا في كتابه، فتتبع مسار حملة شيشانق في غرب العربية وطابق الكثير من أسماء الأماكن الواردة فيها على أسماء مواقع قائمة اليوم في غرب العربية، إلا أنَّ مطابقاته لم تكن بأحسن حالًا من المطابقات التي جرت على المواقع الفلسطينية. ويبقى هذا السجل في رأينا، محاطًا بالغُموض وإشارات الاستفهام. إلا أنَّ ما يُرجح أن مسرح حملة شيشانق كان في فلسطين وسوريا، العثور على نُصب تذكاري في موقع «مَجِدو» بفلسطين يحمل اسم ذلك الفرعون، وعلى قاعدة تمثال في مدينة «جبيل» على الساحل اللبناني تَحمل اسمه أيضًا، وإذا كان من المؤكد أن النُّصب

التذكاري في فلسطين قد أُقيم تخليدًا لانتصارات عسكرية، فإنَّ تمثال جبيل كان عربون علاقات ودية بين البلدين ودلالة نفوذ سياسي مصري.[٥٢]

وقد ورَدت أخبار حملة شيشانق على مملكة يهوذا في التوراة، ونعلم أنها تمَّت في عهد «رحبعام» ابن الملك سليمان، أي خلال السنوات الأخيرة لحكم شيشانق الأول. نقرأ في سِفر الملوك الأول ١٤: ٣٥–٣٧ [وفي السنة الخامسة للملك رحبعام صعد شيشانق ملك مصر إلى أورشليم وأخذ خزائن بيت الرب وخزائن بيت المال، وأخذ كل شيء وأخذ أتراس الذهب التي عملها سليمان. فعمل الملك رحبعام عوضًا عنها أتراس نحاس ...]

وفي الحقيقة، يُمكن لعلم الآثار أن يُلقي ضوءًا على ما ورد في السجلات المصرية وفي كتاب التوراة حول حملة شيشانق ففي العديد من المواقع الكنعانية في فلسطين استطاع المُنقِّبون تمييز طبقات تعود إلى مطلع فترة المملكة المُنقسِمة التي أعقبت موت الملك سليمان عام ٩٣١ق.م. وهذه الطبقات قد تمَّ تدميرها بشكلٍ عنيف في تاريخ يتقارَب وتاريخ حملة الفرعون شيشانق الأول. فموقع «تل أبو حرام» على سبيل المثال قد دُمر تمامًا وبقيَ مهجورًا لعدة قرون تلتْ ذلك. وفي «تل بيت مرسيم» تمَّ تدمير المدينة القديمة بكاملها ثم أُعيد بناؤها مجددًا. وتركت آثار الحرائق في «بيت شمش» طبقة كثيفة من الرماد غطت المستوى السابق تمامًا.[٥٣]

إن هناك أكثر من مفتاح لحلِّ غوامض بعض الأحداث والنصوص التاريخية، وليس منهج مُقابلة أسماء المواقع واحدًا منها. وإذا كانت دراستنا للسجلات المصرية قد أوضحَت بما لا يدعُ مجالًا للشك في أنَّ هذه السجلات إنما تروي أحداثًا وقعت في بلاد الشام لا في غرب العربية، وأنَّ علاقات مصر السياسية والدبلوماسية كانت قائمةً مع هذه المنطقة منذ بدايات التاريخ المكتوب لا مع غرب العربية، وأن أسماء الأماكن الكنعانية الواردة في التوراة، هي لمواقع قديمة موجودة في بلاد الشام قبل الظهور السياسي للإسرائيليِّين، فإنَّ في ذلك كله مقدمة للبرهان على أن مسرح الحدث التوراتي كان في الشام لا في غرب العربية. وهو البرهان الذي سوف نتابع حلقاته عبر الفصول المقبلة.

وأخيرًا يحقُّ لنا أن نتساءل إذا كانت المعلومات الواردة في السجلات المصرية كلها تتعلَّق بأماكن وأحداث جرت في غرب العربية، فأين السجلات المتعلِّقة ببلاد الشام؟

---

[٥٢] John A. Wilson, Egyptian Historical Texts, op. cit., p. 464.

[٥٣] Kathleen Kenyon, op. cit., pp. 174–275.

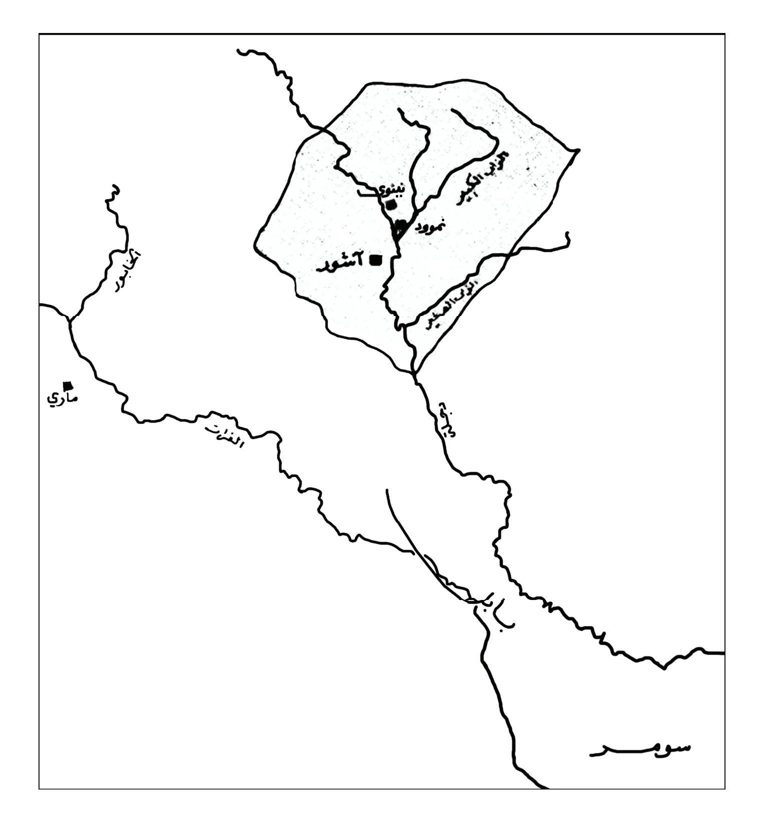
الفصل الثاني

سجلات وادي الرافدين

كان السومريون أول مَن أسَّس لمجتمع المدينة في تاريخ الحضارة، إلا أنهم لم يُعنوا بتشكيل دولة قومية تجمع شتات دويلات مدنهم التي عاشت في شقاق دائم وحروب دامية فيما بينها. وعندما تنبَّه المجتمع السومري إلى ضرورة التوحيد كانت حضارته تقطع أشواطها الأخيرة في نهايات الألف الثالث قبل الميلاد، وكان الأكَّاديون الساميون الذين بدءوا بتنظيم مجتمعهم في شمال سومر يتحفَّزون لقطف ثمار الحضارة السومرية المتعبة. لقد جاءت الوحدة السومرية في وقت مُتأخِّر جدًّا وضمن شروط لم تسمح لها بالحفاظ على مُكتسباتها، فعندما قام ملك «أوروك» «لوغال زاغيري» (٢٣٧١–٢٣٧٤ق.م.) بتوحيد دويلات سومر وكامل بلاد الرافدين والاتجاه بأنظاره نحو بلاد الشام، انتزع الإمبراطورية الغضَّة من يده ضابط أكَّادي اسمه «صارغون» الذي يبدو أنه بدأ حياته حاكمًا لمدينة «كيش» السومرية، ثم أنشأ لنفسِه سُلطة في «أكَّاد» قرب الموقع المقبل لبابل.[١]

وقد بدأت المحاولات التوسُّعية باتجاه بلاد الشام مع تكوين الدولة المركزية الموحدة في بلاد الرافدين. فمن سجلات «لوغال زغيري» نعرف أن سُلطته قد امتدَّت من البحر الأدنى إلى البحر الأعلى الذي جلب من جباله خشب الأرز. وهاتان التسميتان تُشيران، كما هو معروف في كل سجلات وادي الرافدين، إلى الخليج العربي وهو البحر الأدنى، والبحر المتوسط وهو البحر الأعلى. ولكن يبدو أن حملات هذا الملك السومري ضد بلاد الشام لم تكن بهدف توسيع حدود إمبراطوريته، بل لتزويد سومر بالموادِّ الأولية المفقودة في البلاد مثل الأخشاب. أما الاجتياح المنظَّم لبلدان شرق الرافدين فقد بدأ منذ عهد خليفته

[١] أرنولد توينبي، تاريخ البشرية، ترجمة د. نقولا زيادة، الأهلية، بيروت ١٩٨١م، ص٧٤–٧٦.



الخارطة رقم ٦: أرض آشور.

«صارغون الأول» (٢٣٧١–٢٣١٦ق.م.)، نقرأ في أول وثيقة أكادية عن الحروب في بلاد الشام ما يلي:

[صارغون، ملك أكَّاد، ناظر الإلهة عشتار، ملك «كيش»، كاهن الإله آنو الممسوح، ملك البلاد، «إنسي»[٢] الإله إنليل. هزم «أوروك» وهدم أسوارها وانتصر في معاركه على أهلها. قبض على «لوغال زاغيري» ملك أوروك، في القتال، وجرَّه بحبلٍ في رقبته حتى بوابة إنليل. صارغون ملك أكاد انتصر في معاركه على أهل «أور» وهدم أسوار مدينتِهم.

[٢] (إنسي) هو لقب ملوك الدويلات السومرية. ويعني الملك – الكاهن.

هزم مدينة «أنمار» وهدم أسوارها، وهزم المناطق التابعة لها من «لجش» وحتى البحر. انتصر في معاركه على أهل «أوما» وهدم أسوارها الإله إنليل جعل الكل يخضعون لحكم صارغون ملك البلاد، وأعطاه السلطان من البحر الأدنى إلى البحر الأعلى، وقد وقفت «عيلام» و«ماري» طائعة أمام صارغون ملك البلاد. استعاد «كيش» وأمر أهلَها بتولي مقاليدها.

صارغون، ملك «كيش» أحرز نصرًا في أربع وثلاثين حملة، وغنم البلدان كلها حتى شاطئ البحر. عند رصيف أكاد صنع سفنًا أكثر من سفن «ملوحه» Meluha و«ماجان» Magan و«تيلمون» Telmun. صارغون سجد في صلواته أمام الإله «داجان» في «توتول» Tutul فأعطاه حكم الأقاليم العُليا: «ماري» و«لارموتي» Larmuti و«إيبلا» إلى غابة الأرز والجبل الفضي ...][3]

تُحدِّد هذه الوثيقة التاريخية منذ البداية المجال الحيوي للإمبراطورية الناشئة في بلاد الرافدين، التي أسماها الأكَّاديون ثم ورثها البابليون فالآشوريُّون. فنحو الشرق كان توسعها باتجاه «عيلام» والهضبة الإيرانية، ونحو الغرب باتجاه الجزيرة العُليا والأناضول وبلاد الشام. في النص أعلاه نجد صارغون يَستولي على المدن السومرية واحدة تلو الأُخرى: أوروك وأور وإنمار ولجش وأوما وكيش. بعد ذلك يتوجَّه شرقًا فيستولي على عيلام العدو التقليدي للمَمالك السومرية. ويَنقلِب غربًا نحو الفرات حيث يسجد أمام الإله «داجان» أحد الآلهة الرئيسية للساميين الغربيين، وذلك في مدينة توتول الواقعة على رافد «البليخ»،[4] فيُعطيه حكم الأقاليم العليا بحاضرتَيها الرئيسيتَين ماري وإبيلا.

وكانت مدينة ماري في ذلك الوقت عاصمة لدولة سورية قوية مُزدهِرة شملت حوض الفرات الأوسط والأعلى، وقد تمَّ اكتشافها على الضفة اليُمنى لنهر الفرات تحت تلِّ الحريري قرب مدينة «أبو كمال» عام ١٩٣٣م من قِبَل بعثة فرنسية. وكان أهم ما عثر عليه المنقِّبون بين أنقاضها أرشيفات القصر الملَكي التي ضمَّت خمسة وعشرين ألف لوح مكتوب، مُعظمها سجلات تجارية وسياسية ساعدت على فهم وتعديل الكثير من معلوماتنا التاريخية.[5] أما مدينة إيبلا التي تقع في قلب السهول السورية الشمالية،

[3] Leo Oppenheim, Babylonian and Assyrian Historical Texts (in: J. Pritchard's Ancient Near Eastern Texts, Princeton, 1969), p. 267.

[4] أندريه بارو، ماري، ترجمة: رباح النفاخ، منشورات وزارة الثقافة، دمشق ١٩٧٩م، ص١٧٤.

[5] المرجع نفسه، ص١٦٩–١٧٥.

فكانت عاصمة لدولة مُترامية الأطراف امتدَّت من حوض الفرات شرقًا إلى حوض العاصي غربًا، ومن جبال طوروس شمالًا إلى حدود مملكة «حماة» في أواسط سورية جنوبًا. وقد تمَّ اكتشافها تحت «تل مرديخ» الواقع إلى الجنوب من مدينة حلب بحوالي ٥٠كم، خلال التنقيبات التي ابتدأت في الموقع منذ عام ١٩٦٤م. وقد عثر المُنقِّبون في أنقاض قصرها الملَكي أواخر السبعينيات على أرشيف ملَكي يضمُّ حوالي ١٦٠٠٠ لوحًا مكتوبًا أحدثت انقلابًا في معلوماتنا عن تاريخ سورية خلال الألف الثالث قبل الميلاد. وتُرجِّح القراءات الأولى لوثائق إيبلا وُرود اسم صارغون وأكاد، حيث يرد اسم صارغون بالتهجئة الإيبلائية «شارغينو» Sharginuu.[٦]

بعد ماري وإيبلا يُتابع صارغون الأكادي في حملته الموثقة أعلاه، مسيرته غربًا إلى غابة الأرز في جبل «الأمانوس» على الساحل السوري الشمالي، وهو جبل ما زال إلى يومنا هذا مُمتلئًا بشجر الأرز.

ثمَّ أعقب صارغون الأول ابنه «نارام سن» الذي وطَّد أركان الإمبراطورية بحَملاته الشَّرِسة. ولدينا نصٌّ يتحدَّث عن إعادة فتح المناطق الغربية التي اجتاحها صارغون من قبله: [... منذ عهد البشرية الأول، لم يَتسنَّ لملك أن يُدمِّر مدينتي «إيبلا» و«عرمان» Araman، ولكن الإله «نرجال» قد فتح الطريق أمام نارام سن العظيم وأعطاه إيبلا وعرمان وأهداه جبل الأرز والبحر الأعلى].[٧] وهكذا نجد أنَّ أبكر الحملات التي قام بها حكام وادي الرافدين، غربًا، كانت موجهة ضد بلاد الشام. ولسوف نُثبت بالدليل القاطع فيما يأتي من هذا الفصل أن الحملات التي تلتْ كلها كانت في الاتجاه نفسه، ولا علاقة لها من قريب أو بعيد بمناطق غرب شبه الجزيرة العربية.

لم تكد الأسرة الصارغونية تُكمِل قرنها الثاني في الحُكم حتى هاجَمَها البرابرة «الجوتيون» Gutiau القادمون من المناطق الجبلية الشمالية الشرقية حوالي عام ٢٢٣٠ق.م.، واستولوا على سُومر وأكاد قرابة قرن من الزمان. وخلال هذه الفترة تسلَّل العموريون الساميون إلى أكَّاد وأخذوا يَتمركَزُون بشكلٍ رئيسي في منطقة «بابل». وعندما قاد السومريون الجنوبيون حملات التحرير ضد الجوتيِّين وطردُوهم من وادي الرافدين، كانت مدينة بابل هي وريثة أكاد كعاصِمة للدولة الموحِّدة الجديدة التي أقامتها

---

[٦] Paolo Matthiae, Ebla, Hodder and Stoughton, London, 1980, pp. 47, 169, 167, 176.

[٧] Leo Oppenheim, op. cit., p. 268.

الأسرة العمورية الأولى. وقد قام «حمورابي» (١٧٩٢–١٧٥٠ق.م.) أقوى ملوك هذه الأسرة بتوحيد كلِّ وادي الرافدين واستعادة ما فقده الأكاديون في الشرق وفي الغرب. ولكن دور بابل في بلاد الشام قد أَخَذ بالتراجُع أمام القوة الصاعدة لملكة ميتاني ومملكة الحيثيين من بعدها. وعندما هاجم الحيثيون بابل نفسها ونهبوها عام ١٥٩٥ق.م. فتحوا المجال أمام البرابرة الشرقيِّين المُتربِّصين بها، فهاجَمَها «الكاشيون» الذين حكمُوا سومر وأكاد حتى عام ١١٦٩ق.م.[٨]

وفي هذه الأثناء كانت الحملات المُنظَّمة التي شنَّها فراعنة الأسرة الثامنة عشرة بعد طرد الهكسوس قد بدأت، ممَّا أدَّى إلى اصطدامِهم بالميتانيِّين أولًا ثمَّ بالحيثيِّين، ممَّا رأيناه في الفصل السابق. وعندما انهارت الدولة الحيثية أمام ضربات شُعوب البحر حوالي ١٢٠٠ق.م.، ودخلت مصر مرحلة كُمونِها الطويل بعد رمسيس الثالث المعروف بحُروبِه ضد شعوب البحر، أصبح الطريق مُمهَّدًا أمام الدولة الآشورية لاستعادة وحدة وادي الرافدين والتطلُّع نحو المناطق السابقة للنفوذ البابلي في بلاد الشام (من أجل أرض آشور، انظر الخريطة رقم ٦).

(١) سجلات آشور: تغلات فلاصر الأول

تُقدم لنا السجلات الآشورية أكثر النصوص غزارة وأهمية بالنِّسبة إلى موضوعنا، وتأتي مُدوَّنات الملك «تغلات فلاصر الأول» (١١١٤–١٠٧٦ق.م.) فاتحةً لوثائق حروب آشور في بلاد الشام. نقرأ في نصٍّ وُجد في معبد الإلهين «حدد» و«آنو» بمدينة آشور ما يلي:

[تنفيذًا لأوامر إلهي «آشور» فقد قهرت البلدان الواقعة بين الزاب الأدنى والبحر الأعلى الذي في الغرب ... مضيت إلى «لبنان» Lab-na-a-ni حيث قطعت أخشاب الأرز لبناء معبد آنو وحدد، ثم تابعت التحرُّك نحو «آمورو» وأخذت كل بلاد آمورو. تلقَّيت الجزية من «جبيل» Gu-bal و«صيدون» Si-Du-ni و«أرواد» Ar-ma-da. عبرتُ بسفن أرواد عند شاطئ البحر إلى مدينة «سيميرا» Samuri التي في بلاد آمورو على مسافة ثلاثة أميال مضاعفة داخل البر ... وفي طريق عودتي أخضعت جميع بلاد حاتي وفرضت على ملكِها «إيلي تيشوب» جزيةً ...][٩]

[٨] أرنولد توينبي، المرجع أعلاه، ص٩٣–٩٤.

[٩] Leo Oppenheim, op. cit., p. 275.

يُقدِّم لنا هذا النص صورةً جغرافية وطبوغرافية مُطابقة للصورة التي قدمتها لنا السجلات المصرية، فالملك الآشوري يتَّجه نحو الغرب إلى البحر الأعلى، البحر المتوسط، حيث جبال لبنان (بالأكادية كما ورَد في النص «لبناني») فيقتطع من هناك خشب الأرز، وتأتيه من الموانئ الكنعانية القريبة جزية مدينة «جبيل» (بالأكادية جُبَل) وصيدون (بالأكَّادية صيدوني) وأرواد (بالأكادية أرمادا). بعد ذلك يُبحر على السفن الأروادية إلى سيميرا (بالأكَّادية سموري) عاصمة مملكة آمورو مسافة ثلاثة أميال مضاعفة، وهي المسافة الحقيقية بين أرواد و«تل الكزل»[١٠] حيث تَجري التنقيبات الآن عن مدينة سيميرا القديمة. وفي طريق عودته يُخضِع بلاد حاتي التي يُقصَد بها في النصوص الآشورية دويلات الشمال السوري مثل «كركميش» و«حداتو» (أرسلان خاش) و«شمال» (تل زنجرلي على السفح الشرقي لجبل الأمانوس في أقصى الشمال السوري)، وغيرها مما سيمرُّ ذكره معَنا لاحقًا. وقد كانت هذه الدويلات واقعةً تحت النفوذ الحثِّي قبل انهيار الإمبراطورية الحثِّية أواخر الألف الثاني قبل الميلاد، واستمرَّت تسمية «حاتي» تُطلق عليها بعد ذلك. وقد انساق المؤرِّخون الحديثون في إطلاق اسم الدُّويلات الحثِّية الجديدة على هذه المناطق وهي تسمية خاطئة (كما ألَمحنا سابقًا) مُستمرَّة بحكم التعوُّد، ذلك أن اكتشاف مُعظَم المواقع القديمة لهذه الدويلات وقراءة سجلاتها ودراسة فنونها، قد أثبتت بطلان التسمية، فالمنطقة سورية بشتى مناحي ثقافتها رغم استيعابها لعدد لا بأس به مِن القادمين من بلاد حاتي الأصلية بعد دمار مَراكزهم الحضرية على يد شعوب البحر.

هذه الحملة الآشورية المبكِّرة، لا يُمكن بحالٍ من الأحوال أن تكون موجَّهة ضد غرب شبه الجزيرة العربية؛ فالملك الآشوري يتوجَّه غربًا نحو البحر الأعلى، البحر المتوسط، لا جنوبًا نحو جزيرة العرب. و«لبنان» الذي يَحتطِب منه خشب الأرز هو لبنان الشام القريب من الموانئ البحرية، لا «لبينان» شمال اليمن في المناطق الداخلية (انظر خريطة الصليبي رقم ٣). و«أرواد» التي يَركب الآشوريون على سفنها هي أرواد الشام وليسَت

[١٠] يقع تل الكزل في سهل صافيتا الساحلي على بُعد ٢٨كم إلى الشرق من طرسوس على الضفَّة اليُمنى لنهر الأبرش، وقد بقي اسم الموقع القديم سيميرا محفوظًا في مُسمَّيات منطقة الكزل. فهذه المنطقة تُسمَّى أرض سيمريان، يحدها من الشمال نهر سيمريان وقرية صغيرة في سفح المرتفعات تُسمى سيمريان. انظر: دراسة «جوزيت الأيي» عن تل الكزل، تعريب: الدكتور عدنان البني في مجلة الحوليات الأثرية السورية المجلد السادس والثلاثون ١٩٨٦–١٩٨٧م، ص١٠١.

«رواد» مُرتفعات عسير (انظر ص٣٥) لأنَّ النصَّ صريح في الإشارة إلى الموقع البحري للمدينة، وإلى سفنها.

(٢) آشور ناصر بال الثاني

بعد تغلات فلاصر الأول، مرَّت حركة التوسُّع الآشوري بفترة ركود لتبدأ من جدِّي على يد «آشور ناصر بال الثاني» (٨٨٣–٨٥٩ق.م.). نقرأ في نص لهذا الملك عُثر عليه في معبد الإله «ننورتا» في موقع «نمرود» الآشورية:

[غادرت بلاد «بيت عديني» وعبرت الفرات في ذروة فيضانه على قوارب مصنوعة من الجلود (المنفوخة بالهواء) إلى «كركميش»، حيث تلقَّيت جزية ملك الحيثيين (تعداد للوزنات الذهبية والفِضية والمواد الثمينة الأخرى). ملوك البلاد المجاورة جميعًا أتوا إليَّ فأمسكوا قدمي. أخذت منهم رهائن مشوا معي إلى «لبنان» Lab-na-ni مُشكِّلين طليعة جيشي. غادرت كركميش مُتحركًا على الطريق الذي يقع بين جبال «منزيغاني» Manzigani و«هامورجا» Hamurga، تاركًا بلاد «أهانو» Ahanu على يساري، وتقدَّمت نحو مدينة «حزازو» Hazazu التي تخصُّ «لوبارنا» ملك حطينة Hattina؛ حيث تلقَّيت الذهب وعباءات الكتان. ثم تابَعت فعبرت نهر «عبري» حيث قضيت الليل، ثم غادرت شاطئ نهر عبري نحو مدينة «كونولو» Kunulu المقر الملكي للوربانا ملك حطينة، الذي لخوفه من أسلحة جيشي الفتاكة، وقع على قدمي طالبًا حياته (تعداد لأصناف الجزية المقدمة) في ذلك الوقت وصلَتْني جِزية «جوشي» Gusi من بلاد «ياهاني» Iahani (تعداد لأصناف الجزية).

[غادرت «كونولو» المقر الملَكي للوربانا وعبرت نهر «العاصي» Arantu حيث قضَيت الليل، ثم تحرَّكت آخذًا الطريق بين جبل «يراكي» Iraki وجبل «يعتوري» Ia'turi، ثم عبرتُ جبل ... لقضاء الليل عند نهر «سنجارا» Sangara. من هناك تابعت المسير آخذًا الطريق بين جبل «ساراتيني» Saratini وجبل «دوباني» Duppani حيث قضيت الليل على ضفة بحيرة ... دخلت «أريبو» Aribu حصن لوربانا ملك حطينة وضمَمتُها إليَّ حصدتُ قمح وقش منطقة «لوحاتي» Luhati وخزَّنتُ ما حصدتُ هناك وتركت في المكان مواطنين آشوريِّين للإقامة. وخلال إقامتي في أريبو فتحت مدن لوحاتي الأخرى وهزمتُ أهلها وهدمتُ أسوارها وأحرقتها بالنار. أما الناجون فقد رفعتهم على الخوازيق أمام مُدنِهم. بعدها أخذت كل جبل لبنان ووصلت إلى بحر آمورو العظيم حيث غسلت أسلحتي

في المياه العميقة، وقدمت ذبائح إلى الآلهة. هناك جاءتني الجزية من ساحل البحر من سكان «صور» و«صيدون» و«جبيل» و«محلِّلاتا» Mahallata و«ميزا» Maiza و«كيزا» Kaiza و«آمورو» و«أرواد» التي في البحر (تعداد لما حصل عليه)][11]

يرسم هذا النص الفريد خريطة مُفصَّلة لممالك بلاد الشام الشمالية والغربية، استطاع علم الآثار وعلم التاريخ إثبات صحتها وصدقها. ولسوف نتابع فيما يأتي مسار حملة آشور ناصر بال الثاني خطوة بخطوة.

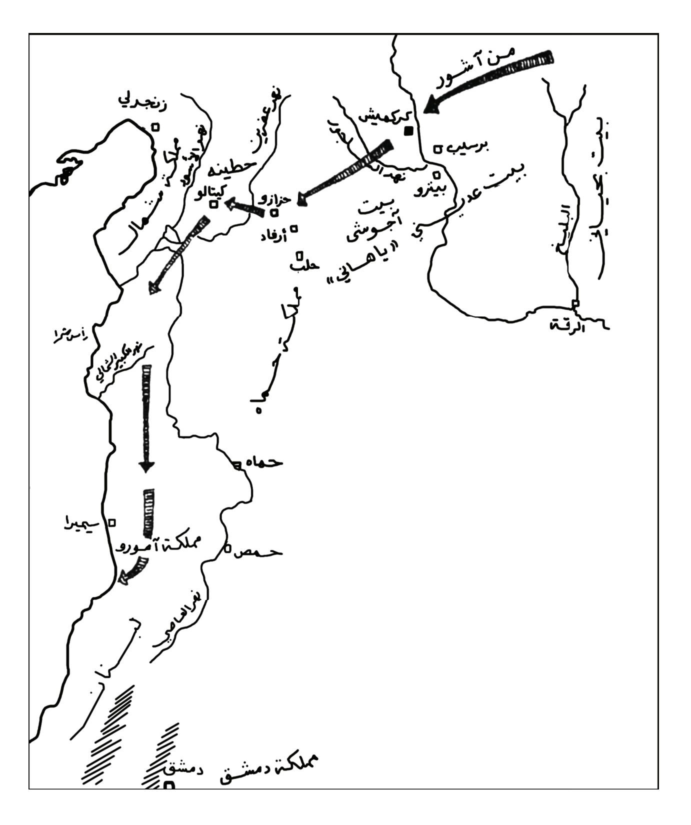
في هذا النص، يبدأ الجيش الآشوري حملته على بلاد الشام، التي تدعوها النصوص الآشورية عادةً ببلاد ما وراء النهر «عبر ناري»،[12] بعبور نهر الفرات. وهذا الفرات لا يُمكن بحالٍ من الأحوال أن يكون «فرات» كمال الصليبي في غرب العربية، الذي وجده في وادي أضم أحد أكبر الوديان في غرب شبه الجزيرة العربية، الذي تَصدُر مياهُه من مُرتفعات الطائف ثم يجري نحو البحر الأحمر، والذي ما زال اسمه القديم قائمًا، في رأيه، في قرية «فرت» الواقعة على مَقرُبة منه (الصفحات ٣٨، ٢٦٠، ١٩٩، ٣٠٢. انظر أيضًا خريطة الصليبي رقم ٣). فعبور نهر الفرات يتمُّ من «بيت عديني» إلى كركميش. وبيت عديني هي إحدى الممالك الآرامية التي ازدهرت في مطلع الألف الأول ق.م. وقد امتدَّت أراضيها بين الفرات ورافد البليخ، ووصل نفوذها في أوج قوتها إلى المناطق الغربية من الفرات. تمَّ اكتشاف عاصمتها «تل برسيب» في موقع «تل الأحمر» وعلى الضفة اليسرى (الشرقية) للفرات، على مسافة ٢٠كم إلى الجنوب من كركميش (جرابلس الحالية). وقد عَثر في الموقع على كتابات بالهيروغليفية اللوفية[13] تذكر اسم ملكها «آخوني» المعروف في السجلات الآشورية، وخصوصًا في سجلات «شلمنصر الثالث». كما عُثر في بوابة قصر برسيب على أسود بازلتية عليها نقوش تَذكُر الحاكم الآشوري «شمسي إيلو» الذي ولِي المدينة بعد أن ألحقها شلمنصر الثالث بآشور وأسماها «كار شلمنصر» أي حصن شلمنصر.[14]

[11] Ibid., pp. 275–76.

[12] James Muhly, End of Bronze Age (in: Ebla to Damascus, Edited by H. Weiss, Smithsonian Ins., 1985), p. 265.

[13] اللوفية هي لغة هندوأوروبية تُكتب بالطريقة الهيروغليفية المصوَّرة وكانت في بلاد الحيثيين بالأناضول ومناطق نفوذهم.

[14] الدكتور علي أبو عساف، الآراميون، دار أماني، سورية ١٩٨٨م، ص٣٤–٣٩. وانظر أيضًا: Eva Strommenger, Til Barsip (in: Ebla to Damascus), op. cit., p. 330.



الخارطة رقم ٧: حملة آشور ناصر بال الثاني.

وقد ورد ذِكر بيت عديني في كتاب التوراة كمَملكة آرامية تحت اسم «بيت عدن»، نقرأ في سِفر عاموس ١: ٣–٥ [هكذا قال الرب من أجل ذنوب دمشق الثلاثة والأربعة، لا أرجع عنهم ... فأرسل نارًا على بيت «حزائيل» فتأكل قصور «بن حدد» وأكسر مِغلاق دمشق وأقطع الساكن من بقعة «آون» وماسك القضيب من «بيت عدن»]. ودمشق الواردة في هذا النص هي دمشق الشام لا دمشق عسير التي وجدها الصليبي في موقع «ذا مسك» في منطقة جيزان بعَسير (ص٣٠)؛ لأن «حزائيل» و«بن حدد» المذكورَين هنا كانا ملكَين تعاقبا على حكم دمشق كما نَعرف من الوثائق الآرامية التي اكتشفت في بلاد الشام. وفي مواضع أخرى في التوراة تذكر بيت عدن بالترافُق مع عدد من الدويلات الآرامية المعروفة

وخصوصًا «جوزان» التي تم اكتشافها في أقصى الشمال السوري بموقع تلِّ حلف الحالي، كما سنُفصِّل لاحقًا (انظر سفر الملوك الثاني ١٩: ١٢؛ وإشعيا ٣٧: ١٢).

يتم عبور الفرات إذن من بيت عديني على الجهة الشرقية للفرات إلى كركميش الواقعة على الجهة الغربية، مما يَستتبِع أن تكون كركميش هذه هي كركميش الشام لا «قر – قماشة» غرب العربية التي وجدها الصليبي في جنوب «الطائف» بالحجاز (ص٣٧ و١١٤)؛ ذلك أنَّ موقع قريتي «القر» و«القماشة» المُتجاورتَين لا يُمكن العبور إليه من أيِّ جهة من «وادي أضم» الذي يرى فيه الصليبي فرات التوراة وسجلات الشرق القديم (انظر خريطة الصليبي رقم ٣). ويَستتبِع ذلك أيضًا أن المواجهة بين الفرعون «نخو» والبابليين الواردة في سفر أخبار الأيام الثاني ٣٥: ٢٠؛ وإشعيا ١٠: ٩؛ وإرميا ٤٦: ٢ قد جرَت عند فرات كركميش الشام لا قرب الطائف في جنوب الحجاز (ص٣٧) تقرأ في إرميا ٤٦: ١–٢ [كلمة الرب صارت إلى إرميا النبي عن الأمم، عن مصر عن جيش فرعون. نخو ملك مصر الذي كان على نهر الفرات في كركميش، الذي ضربه نبوخذ راصر ملك بابل ...]

في كركميش، يتلقَّى آشور ناصر بال الجزية من ملكها ويُتابع مسيرته غربًا وهدفه الأخير لبنان، دون أن يتعرَّض لملكة «بيت أجوشي» (أو ياهاني) (انظر الخريطة ٧) التي وافقت على ما يبدو على دفع الجزية التي تصلُه لاحقًا. فيصل إلى مدينة «حزازو» وهي «إعزاز» الحالية عند السفوح الشرقية لجبل «سمعان»،[١٥] حيث يتلقَّى الجِزية ثم يُتابع فيجتاز نهر «عبري» الذي هو نهر «عفرين»[١٦] اليوم، إلى مدينة «كونولو» عاصمة مملكة «حطينة»، وهي مملكة آرامية شغلت منطقة سهل العمق وخوض عِفرين.[١٧] ويَعتقد بعض البحَّاثة، أن كونولو هي موقع «عين دارا» الحديث حيث تقوم بالتنقيب منذ عدة سنوات بعثة المديرية العامة للآثار بسورية.[١٨] إلا أنَّ الدكتور علي أبو عساف رئيس البعثة التنقيبية إلى عين دارا لا يستطيع عند هذه المرحلة توكيد الاسم القديم للمدينة بسبب عدم توفُّر النصوص الكتابية في الموقع حتى الآن.[١٩] في كونولو يستسلم ملك حطينة للملك الآشوري، كما تأتي إلى هناك أيضًا جزية «جوشي» ملك «ياهاني».

---

[١٥] الدكتور علي أبو عساف، الآراميون، المرجع السابق، ص٤٦.

[١٦] Leo Oppenheim, op. cit., p. 276.

[١٧] الدكتور علي أبو عساف، الآراميون المرجع السابق، ص٤٠.

[١٨] Eva Strommenger, Assyrian Domination, in: Ebla to Damascus, op. cit., p. 325.

[١٩] الدكتور علي أبو عساف، محاضرة ألقيت في «معهد غوته» بدمشق شتاء ١٩٨٨م.

ومملكة «يا هاني» هي مملكة آرامية امتدَّت من حدود الفرات شرقًا إلى أطراف سهل العمق غربًا (انظر الخريطة رقم ٧)، وجاورتها من الجنوب أراضي مملكة حماة، ومن الشمال أراضي مملكة كركميش. وقد دُعيت بمملكة «ياهاني» نسبة إلى مؤسسها الأول «ياهان» ثم صار اسمها مملكة «بيت جوشي» أو «بيت أجوشي» نسبةً إلى أشهر ملوكها جوشي المذكور في هذا النص. وقد تمَّ اكتشاف عاصمتها «أرفاد» تحت «تل رفعت» على مسافة ٣٥كم إلى الشمال الشرقي من مدينة حلب. ورغم أنَّ الموقع نفسه لم يُعطِ الكثير من الآثار المهمَّة، إلا أنَّ مواقع أخرى في المملكة قد أعطتنا آثارًا فنية وكتابية على جانب كبير من الأهمية، ففي قرية «السفيرة» إلى الجنوب الشرقي من حلب، تمَّ العثور على ثلاثة أنصاب حجرية نُقشت عليها مُعاهَدة بين ملك أرفاد المدعو «متع إيل» و«برجاية» ملك «كتك» وهي الآن موزَّعة بين متحف دمشق ومتحف بيروت.[٢٠]

وقد ورد في التوراة ذكر أرفاد مرارًا. ففي سِفر الملوك الثاني ١٨: ٣٣–٣٥، حيث يتفاخر قائد شلمنصر الثالث عند أسوار أورشليم المحاصرة بإخضاع الآشوريِّين لأرفاد وغيرها: [هل أنقذ آلهة الأمم كل واحد أرضه من يد ملك آشور؟ أين آلهة أرفاد وحماة، أين آلهة سفروايم وهينغ وعوًا؟] وفي نبوءة إرميا عن دمشق: [عن دمشق. خربت حماة وارفاد، قد ذابوا … ارتخَت دمشق والتفتت للهرب] (إرميا ٤٩: ٢٣–٢٤).

يترك الملك الآشوري كونولو ويتَّجه جنوبًا فيعبر نهر العاصي (أرانتو في النصوص الآشورية ويُرنت في النصوص المصرية وأورونتس عند الإغريق) إلى منطقة أنطاكيا. ومنها يأخذ الطريق بين جبل «يراكي» وجبل «يعتوري» وهما على الأغلب جبل «حارم» وجبل «الأقرع»، فيَقضي الليل على نهر «سنغارا» وهو على الأغلب «نهر الكبير الشمالي» ثم يأخُذ الطريق بين جبل «ساراتيني» وجبل «دوباني» وهما جبل «الزاوية» و«جبال العلويين»، وصولًا إلى جبل لبنان حيث يغسل أسلحته في «بحر آمورو» أي بحر الغرب، وهو البحر المتوسط. وهناك تأتيه الجزية من مدن ساحل البحر (حسب تعبير النص)، من «صور» و«صيدون» و«جبيل» و«أرواد» (التي في البحر حسب تعبير النص)، ومن «محللاتا» و«كيزا» ومن «ميزا» التي يعتقد أنها حمص (إميسا).

[٢٠] الدكتور علي أبو عساف، الآراميون، المرجع السابق، ص٣٩–٤٥، ٩٤.
الدكتور علي أبو عساف، آثار الممالك القديمة في سورية، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٨٨م، ص٤٧٣.

وهكذا تنتهي حملة آشور ناصر بال الثاني، كما انتهت سابقتها حملة تغلات فلاصر الأول، عند مدن الساحل الفينيقي بمُدنِه القديمة المعروفة أرواد وجبيل وصيدون وصور، لا عند المناطق الداخلية والجبَلية من غرب شبه الجزيرة العربية. وتتقاطع أخبار العديد من الممالك والمدن الواردة في النص مع أخبارها التوراتية.

(٣) شلمنصر الثالث وفترة المد الآشوري

إنَّ مسرح الأحداث الذي ترسمُه السجلات الآشورية في بلاد الشام منذ بداية الألف الأول قبل الميلاد، يختلف في ترتيبة الديمغرافي والسياسي عن مسرح الحدث الذي عرفناه من السجلات المصرية. فالممالك الكنعانية القديمة مثل مَملكة قطنا وقادش وموكيش (ألالاخ) وتونيب وصوبة وغيرها قد غابت لتحلَّ محلَّها في سورية الداخلية الممالك الآرامية الحديثة العهد مثل مملكة بيت عديني وبيت أجوش وحطينة وشمأل وحماة ودمشق. ولم يبقَ في منأى عن المد الآرامي سوى دويلات الساحل الكنعاني المحصورة بين جبل لبنان والبحر المتوسِّط، من جزيرة أرواد إلى صور. وقد حافظت هذه المنطقة على طابعها الكنعاني لغةً وثقافةً، وطورت بشكل مُشترك نمطًا حضاريًّا ذا طابع خاص ضمن الوحدة الحضارية العامة لبلاد الشام، ودُعيَ أهلها بالفينيقيِّين من قِبل الإغريق الذين كانوا على احتكاك بهم. كما حافظت منطقة فلسطين الداخلية وشرقي الأردن على ثقافتها الكنعانية القديمة دون أن يَترك الحُكم السياسي الإسرائيلي القصير الأمد بصمتَه على أيِّ منحًى من مناحي حياتها. وقد انقسمت السلطة السياسية على نفسها في فلسطين الداخلية بعد موت الملك سليمان عام ٩٢٥ق.م. إلى مركزَين واحد في الشمال استقر أخيرًا في «السامرة» وآخر في الجنوب في أورشليم وما تلاها. أما الفلستيون الذين وفدوا مع شعوب البحر وتركزوا في الساحل الفلسطيني منذ مطلع القرن الثاني عشر قبل الميلاد؛ فقد ذابوا في خضمِّ الثقافة الكنعانية الراسخة بعد أن أظهرت آثارهم الأولى التي تمَّ الكشف عنها في المنطقة عناصر متميزة من ثقافة بحر إيجة (انظر الفصل ٧ لاحقًا).

ومع مطلع الألف الأول قبل الميلاد كانت القوى العظمى التقليدية في المنطقة قد غابت، فبابل قد التزمَت حدودها ضمن وادي الرافدين، ومملكة الحيثيِّين التي أنهت إلى الأبد مملكة ميتاني، جاء دورها لتشرب الكأس نفسها على يد شعوب البحر، ومصر الفرعونية قد انتابتها أمراض الشيخوخة الطويلة التي عاشتها حتى الفتح الروماني. وقد أعطى هذا الوضع الفريد فرصة لانتعاش الدويلات الآرامية والكنعانية فيما بين القرن

الثاني عشر والقرن التاسع قبل الميلاد. غير أنَّ الحملات الآشورية التي بدأت بشكلٍ مُتفرِّق وغير منظَّم بهدف جمع الجزية واستعراض القوة، قد تحوَّلت إلى حروب منظَّمة منذ عهد «شلمنصر الثالث» خليفة آشور ناصر بال الثاني، وهدفت إلى توطيد أركان إمبراطورية مُترامية الأطراف، الأمر الذي أدخل عنصرًا جديدًا إلى الصورة استمر خلال كامل النصف الأول من الألف قبل الميلاد.

وكما لم يَدفع التهديد المصري القديم دُويلات بلاد الشام إلى أي نوع من أنواع الوحدة فيما بينَها، كذلك كان شأن التهديد الآشوري الجديد الذي واجهته كل دويلة على انفراد، أو من خلال أحلاف مؤقَّتة ما تلبث أن تنحلَّ عشية المعركة. ولعلَّ أكثر الأحلاف التي واجهها الآشوريون خطرًا، كان حلف معركة «قرقرة» الذي انعقد في مواجهة «شلمنصر الثالث» عام ٨٥٤ق.م.

أمضى «شلمنصر الثالث» فترة حكمِه الطويلة (٨٥٨–٨٢٤ق.م.) في حملات مُتواصِلة على بلاد الشام، كان أهمها الحملة التي شنَّها في السنة السادسة من حكمه ضد مُتحالفي «قرقرة» في منطقة حماة على نهر العاصي.[٢١] نقرأ في أخبار هذه الحملة:

[غادرت نينوى فعبرت نهر «دجلة» وتقدَّمت إلى مدن الملك «غيامو» على نهر «بليخ» فتملكهم الخوف مِن هيبتي ومِن أسلحتي الفتاكة، فقتلوا سيدهم غيامو بأسلحتهم (يلي ذلك تعداد للمدن التي أخذها وللجِزية التي حصل عليها). من «سحلالا» Sahlala توجَّهت إلى «كار – شلمنصر»، وعبرت الفرات في ذروة فيضانِه على أطواف من جلد الماعز. وفي المدينة التي يدعوها أهل حطينة بـ «بيترو» Ptru على الجهة الأخرى للفرات عند نهر «ساجور» Sagur تلقيت الجزية من ملوك الجهة الأخرى للفرات، من «سنغارا» ملك «كركميش» ومن «كونداشبي» ملك «كوماجين» ومن «آرام» ملك «جوشي» ... (تعداد لبقية المدن وأصناف الجزية). ثم غادرت الفرات نحو حلب Halman، التي خاف أهلها وخروا عند قدمي. فتلقيت منهم فضة وذهبًا جزيةً، وقدمت قربانًا إلى «حدد» (إله) حلب. من حلب توجَّهت إلى مدن «إرخوليني» Irhuleni ملك «حماة» Amat، فتحت مدن «أدينو» Adinu و«برغا» Barga، ومقره الملكي في «أرغانا» Argana. وحررتها من سلطته وأضرمت النار في قصره. غادرت أرغانا وأتيت إلى «قرقرة» فدمَّرتُها وأحرقتها.

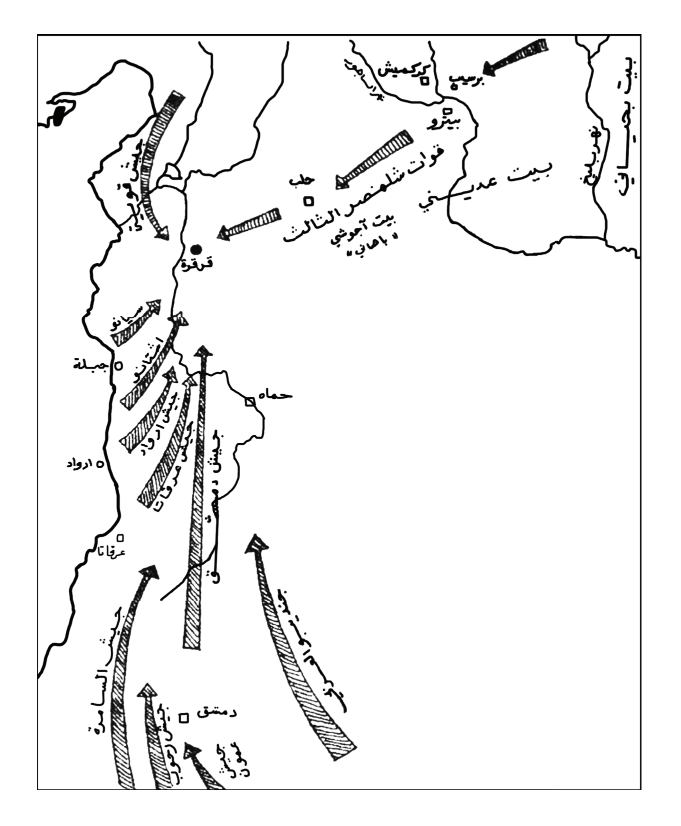
[٢١] يقع الموقع القديم لقرقرة إلى الجنوب من بلدة جسر الشغور الحالية.

هبَّ إلى ساح المعركة «حدد – عدري» Adad-idri ملك «إميريشو» (دمشق) Imerisu، ومعه ١٢٠٠ عربة، و١٢٠٠ فارس و٢٠٠٠٠ جندي. و«إرخوليني» Irhuleni ملك «حماة» Amat ومعه ٧٠٠ عربة و٧٠٠ فارس و١٠٠٠٠ جندي. و«آخاب الإسرائيلي» Aha-ab-bu-Sir-i-la-a ومعه ٢٠٠ عربة و١٠٠٠٠ جندي. ومن «موصري» Musri جاء ١٠٠٠٠ جندي. ومن «قوع» Que ٥٠٠ جندي. ومن «عرقاتا» Arqanata ١٠٠ عربة و١٠٠٠٠ جندي. وجاء «ماتينو بعل» من «أرواد» ومعه ٢٠٠ جندي، وأمير «أشناتو» Usanata ومعه ٢٠٠جندي، و«أدنو بعل» من «سيانو» Shian ومعه ٣٠ عربة و١٠٠٠ جندي، و«جنديبو» العربي ومعه ١٠٠٠ جمل، و«بعشا» أمير «حوبي» ومعه ... ومن «عمون» ... فكانوا اثني عشر ملكًا هبُّوا في وجهي للمعركة الحاسمة، فحاربتهم بما وهبني الإله «آشور» من قوة، وبما وهَبني الإله «نرجال» من سلاح فتاك، وهزمتهم بين مدينتي «قرقرة» و«جيلزو» Gilzu ... وملأت نهر العاصي بجثثهم ...][٢٢]

يقول كمال الصليبي عن معركة قرقرة ما يلي (ص٣٧): [وكما هو الأمر بالنِّسبة لمعركة كركميش، فإن معركة قرقرة التي حاربها الآشوريون ضد ملوك «أمت» و«إمرشو» وحلفائهم «جنديبو العربي» و«آخبُّو سِرئِلا» في أواسط القرن التاسع قبل الميلاد، كانت قد جرت فعلًا في غرب شبه الجزيرة العربية وليس على امتداد نهر العاصي في بلاد الشام كما يُعتقَد عادةً. و«أمت» التي اعتُبرت حتى الآن إشارة إلى «حماة» في وادي العاصي، هي عمليًّا قرية «أمط» الحالية في منطقة الطائف. و«إمرشو» ليسَت دمشق الشام كما تُعتبر حتى الآن. ودون أي أساس لهذا الاعتبار، بل ربما كانت «المراشا» في جنوب مرتفعات عسير. و«جنديبو أربي» يفترض عادةً كونه زعيمًا عربيًّا من بادية الشام، وعمليًّا هناك قبيلة تُدعى بنو جندب ما زالت تعيش في وسط مُرتفَعات عسير، و«أربي» قد تكون اليوم «عربة» أو «عرابة» من قُرى بلاد عسير. «وكركرة» نفسها في هذه الحالة يُمكن أن تكون حاليًّا «قرقرًا» في منطقة القنفذة في تهامة الحجاز المحاذية لعسير وليس أي مكان في وادي العاصي من الشام]. فإلى أيِّ حد يَنطبق مسار حملة شلمنصر الثالث على هذا الكلام؟ (تابع مسار حملة قرقرة على الخريطة رقم ٨).

[٢٢] Leo Oppenheim, op. cit., pp. 278–279.

من أجل تهجئة ولفظ الأسماء الواردة في المقطع الخاص بمعركة قرقرة، راجع الدكتور علي أبو عساف: الآراميون، المرجع أعلاه، ص٥٥.



الخارطة رقم ٨: معركة قرقرة.

يُغادر الملك الآشوري مدينة «نينوى» في آشور فيجتاز نهر دجلة، ويَصل إلى نهر بليخ الذي يرفد الفرات، وهناك يَقضي على عدد من المدن ثم يأخُذ طريقه إلى «كارشلمنصر» وهي مدينة «برسيب» عاصمة مملكة بيت عديني على الضفة الشرقية للفرات. ومن هناك يَعبر نهر الفرات إلى ضفَّته الغربية ويسير إلى مدينة «بيترو» عند نهر «الساجور» إلى الجنوب من كركميش. وهذه المدينة معروفة في النصوص الآشورية الأبكر بأنها مِن المراكز الأولى لاستقرار الآراميِّين في شمال بلاد الشام.[٢٣] أما نهر «الساجور» فما زال باسمه إلى

[٢٣] الدكتور علي أبو عساف، الآراميون، المرجع السابق، ص٣٥.

اليوم، يصبُّ في نهر الفرات إلى الجنوب من جرابلس الحالية (كركميش القديمة). في بيترو يتلقى شلمنصر الثالث جزية عدد من الدويلات القريبة، منها كركميش، وجوشي الواردة الذِّكر أعلاه، ثم يتابع سيره إلى حلب حيث يتلقى الفضة والذهب من أهلها الذين استسلموا دون قتال، وبعد تقديمه قرباناً للإله حدد إله مدينة حلب، يهبط جنوبًا نحو سهول مملكة حماة للقاء ملكها «إرخوليتي».

وكانت حماة في ذلك الوقت أقوى مملكة آرامية في بلاد الشام بعد مملكة دمشق. جاورتها في الشمال مملكة «بيت أجوشي» و«حطينة» وفي الجنوب مملكة دمشق. أما في الغرب فقد وصلت حدودها إلى سلسلة الجبال الساحلية، بينما امتدت حدودها الشرقية عبر البادية. وقد هاجرت إليها من بلاد الأناضول جماعات هندوأوربية وامتزجَت بالآراميِّين الذين حلُّوا فيها قبلهم، وأسسوا جميعًا مملكة قوية كان لها شأن في الأحداث التي تتابعَت على بلاد الشام خلال النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد.[٢٤] وكان «إرخوليني» الوارد ذكره في نص معركة قرقرة أحد ملوكها الأقوياء المَعروفين، وقد أخبرتنا عنه نصوص مملكة حماة المُكتشفة في عدد من مواقعها القديمة. فقد تمَّ العثور حديثًا على عدد من النقوش المكتوبة بالخطِّ الهيروغليفي اللوفي في حماة نفسها، وفي أماكن قريبة منها كانت تابعة للمَملكة القديمة مثل «محردة» و«قلعة المضيق» و«الرستن» تذكر اسم الملك «إرخوليني» وفيها يقول إنه ابن الملك «بارتاس»، وإنه بنى معبدًا للربة «بعلاتي».[٢٥]

في منطقة حماة يَقضي شلمنصر الثالث على العديد من المدن ثم يأتي إلى قرقرة حيث يلتقي بجيوش المُتحالفين وعلى رأسهم ملك دمشق «حدد عدري» يُعاضده ملوك وأمراء الدويلات السورية القوية: قوع؛ وهي مملكة صغيرة على شاطئ المتوسط الشمالي في الأراضي التركية الآن بين نهري سيحان وجيحان. موصري وهي مملكة مجهولة حتى الآن. أشتانو إلى الجنوب من مدينة جبلة الحالية في سوريا. سيانو إلى الشرق من مدينة جبلة الحالية.[٢٦] أرواد على الساحل السوري. بيت رحوب، ورد ذكرُها في السجلات المصرية، راجع سجلات سيتي الأول. وعرقاتا، راجع بشأنها السجلات المصرية. عمون وهي موطن

---

[٢٤] المرجع نفسه، ص٥٣–٥٤.

[٢٥] H. Sader, Les Etats Arameens de Syrie Depuis Leur Fondation Jusqu'à Leur Transor- mation en Provinces Assyriennes (1984) Dissertation, p. 223.

[٢٦] علي أبو عساف، الآراميون، المرجع السابق، ص٥٥.

العمونيِّين الخصوم التقليديين للإسرائيليين في شرقيِّ الأردن. القبائل العربية في شمال الجزيرة العربية وبلاد الشام بقيادة جنديبو العربي. مملكة إسرائيل الشمالية بقيادة ملكها «آخاب» المعاصر لشلمنصر الثالث. وآخاب الإسرائيلي الوارد في نصِّ معركة قرقرة هو ابن عمري، الملك السابع في سلسلة ملوك مملكة إسرائيل الشمالية التي أسسها «ياربعام» عقب موت الملك سليمان حوالي عام ٩٢٥ق.م. وكان أشهر ملوكها «عمري» الذي بنى العاصمة الجديدة في السامرة. وقد تُوفِّي آخاب بعد سنةٍ واحدة من معركة قرقرة؛ أي عام ٨٥٣ق.م.

أما قرقرة نفسها فتقع على مسافة أحد عشر كيلومترًا إلى الجنوب من مدينة جسر الشغور الحالية على الضفة الغربية لنهر العاصي. وما زال اسم الموقع القديم حيًّا في تل يقع في المنطقة نفسها يُدعى اليوم «تل قرقور».

أما عن زعيم التحالف «حدد عدري» ملك «إميريشو» (مملكة دمشق) التي قال عنها الصليبي إنها ليسَت دمشق الشام كما تعتبر حتى الآن، ودون أي أساس لهذا الاعتبار، ووجد مكانها في المراشا في جنوب مرتفعات عسير، فإننا نعرف من نصوص أخرى لشلمنصر الثالث أن عاصمته تُدعى «دمشقي» بالآشوري Di-ma-as-qi وبذلك تقدم لنا السجلات الآشورية، التي يدعونا الصليبي إلى إعادة دراستها، الأساس الذي اعتُبرت بموجبه «إميريشو» على أنها «دمشق» الشام. نقرأ في نصٍّ عُثر عليه في آشور منقوش على تمثال من البازلت للملك شلمنصر الثالث: [لقد هزمتُ حدد عدري ملك إميريشو مع اثني عشر أميرًا من حلفائه، وقتلت ٢٠,٩٠٠ من محاربيه الأقوياء، ودفعت بمَن تبقَّى من قواته إلى نهر العاصي Arantu، فتفرقوا في كل اتجاه يطلبون أرواحهم. أما حدد عدري نفسه فقد انتهى، واغتصب العرش مكانه «حزائيل» ابن لا أحد (= عامي النسب)، الذي دعا إليه الجيوش الكثيرة وثار في وجهي فقاتلتُه وهزمته وغنمتُ كل مركبات معسكره. أما هو، فقد هرب طالبًا حياته، فتعقبتُه إلى «دمشق» Di-ma-as-qi، مقره الملكي حيث قطعت أشجار بساتينه].[٢٧]

وتتقاطع نصوص بلاد الشام مع النصوص الآشورية لتُقدِّم لنا إثباتًا على أن دمشق النصوص الآشورية هي دمشق الشام وليست «ذو مسك» في غرب العربية. فلدَينا نقوش على قطع فنية عاجية من «حداتو» (أرسلان طاش عند الحدود السورية التركية الحالية

---

[٢٧] Leo Oppenheim, op. cit., p. 280.

على بعد ٣٠كم شرقي الفرات) نُقش عليها اسم حزائيل ملك دمشق الذي تصفه الكتابة بلقب سيدنا ومولانا حزائيل.[٢٨] ولدينا حجر تذكاري يرجع تاريخه إلى السنوات الأولى من القرن الثامن قبل الميلاد، عُثر عليه في موقع قرية «أفس» قرب بلدة «سراقب» الحالية على بُعد ٤٠كم إلى الجنوب الغربي من مدينة حلب. وقد نُقش عليه «زاكير» ملك حماة أخبار اعتداءات «بن حدد» ابن حزائل ملك دمشق على مملكة حماة بمعونة عدد من الدويلات الأخرى. نقرأ في مطلع النص: [هذا الحجر التذكاري، وضعه زاكير ملك «حماة» و«لوعاش» Lu'ath من أجل «إيلو - ور» إلهه. أنا زاكير ملك حماة ولوعاش، كنت رجلًا من العامة ولكن الإله «بعل شمين» وقف إلى جانبي وجعلني ملكًا على «حاتريكا» Hatarika. «بن حدد» بن «حزائيل» ملك آرام، جمع ضدي سبعة ملوك: بن حدد وجيشه، ملك «غوروم» وجيشه، ملك «شمأل» وجيشه، ملك كيليكيا وجيشه، «بن جوش» وجيشه، ملك «العمق» وجيشه، ملك «ميليز» وجيشه. كل هؤلاء الملوك الذين جمعهم بن حدد[٢٩] وجيوشهم قد حاصروا حاتريكا ... ولكن بعل شمين كلمني عبر العرافين والمتنبِّئين قائلًا لا تخف؛ فلقد جعلتك ملكًا ولسوف أقف إلى جانبك وأنقذك من كل هؤلاء الملوك الذين ضربوا حصارًا حولك].[٣٠]

إلى جانب دمشق الواردة في النصوص الآشورية والتوراتية، يُطلعنا نصُّ زاكير ملك حماة على أخبار عدد من المَمالك الأخرى المعاصرة لها. فـ «بن جوش» الوارد ذكره بين حلفاء مملكة دمشق هو ابن ملك «جويش» أو «جوشي» ملك ياهاني أو بيت أجوشي، الوارد ذكره في سجلات آشور ناصر بال الثاني. ومملكة «لوعاش» التي يبدو أن زاكير قد ضمَّها إليه كانت تمتد إلى الشمال والشمال الشرقي من حماة وعاصمتها «حتريكا» التي هي على الأرجح «أفس» الحالية حيث وُجد النصب التذكاري، وكانت هذه المملكة تُعرف في الألف الثاني قبل الميلاد باسم مملكة «نوخشي».[٣١] أما مملكة «شمأل» فكانت تُسيطِر على أقصى

[٢٨] Harvey Weiss, Ebla to Damascus, Smithsonian Inst., Washington DC, 1985, pp. 263–345.

[٢٩] بالآرامية بر حدد، حيث «بر» تعني ابن.

[٣٠] Franz Rosenthal, Canaanite and Aramaic Inscriptions (in: Ancient Near Eastern Texts), op. cit., pp. 655–56.

[٣١] الدكتور علي أبو عساف، الآراميون، المرجع السابق، ص٥٧–٥٨ انظر أيضًا: Paolo Matthiae, Ebla, op. cit., p. 40.

المناطق السورية الواقعة إلى الشمال الغربي من البلاد، (انظر خريطتنا رقم ٨) وسُميَت أيضًا بمملكة «يأدي» نسبةً إلى مؤسسها الأول، كما سمَّاها الآشوريون في بعض نصوصهم «بيت جبر» نسبةً إلى أحد ملوكها. وقد تمَّ اكتشاف عاصمتها «شمأل» في موقع «زنجرلي» الحديث على السفح الشرقي لجبال الأمانوس، وعُثر فيها على عدد من النصوص المهمَّة.[٣٢]

ورغم هزيمة حلف قرقرة فإن بلاد الشام لم تُسلم القياد بسهولة للآشوريين وكان على شلمنصر الثالث أن يعود مرارًا إلى المنطقة لإعادة فرض السيطرة الآشورية. نقرأ في نصِّ حملة أخرى لشلمنصر الثالث: [في السنة الثامنة عشرة من بدء مُلكي، عبرت الفرات للمرة السادسة عشرة. حزائيل ملك دمشق وضع ثقته بجيشه العرم، وجمع قواته بأعداد كبيرة جاعلًا من جبل «سنيرو» Sa-ni-ru المقابل لجبل لبنان قاعدة له، قاتلته وهزمته وصرعت ستة عشر ألفًا من جنوده المدرَّبين، وغنمت ١١٢١ عربةً و٤٧٠ جوادًا وكل معسكره. أما هو فقد هرب طالبًا حياته، فتبعتُه إلى دمشق، مقرِّه الملكي، وحاصرته هناك وقطعت بساتينه (المحيطة بالمدينة) ومضيت. سرت إلى جبال «حوران» Ha-u-ra-ni، فهدمت وأحرقت عددًا لا يُحصى من المدن وأخذت منهم جزيةً لا حصر لها. كما سرت إلى جبل «بعل راسي» الذي يقع إلى جانب البحر، وأقمتُ هناك نصبًا تذكاريًّا عليه صورتي. في ذلك الوقت تلقَّيت الجزية من صور وصيدون ومن «ياهو» ابن عمري La-u-a mar Hu-um-ri-i.[٣٣]

و«ياهو» المذكور في هذا النص، هو ملك إسرائيل الذي قضى على بيت آخاب بن عمري، وأحلَّ نفسَه مَلِكًا في السامرة. أما تسمية كاتب النص الآشوري له بابن عمري، فهي إما خطأ من الكاتب الذي اعتقد أن الملك الجديد هو من سلالة عمري، أو أن يكون المقصود بابن عمري هنا، النسبة إلى «أرض عمري» وهي التسمية التي أطلقها الآشوريون على إسرائيل؛ إذ نسبوها، على عادتهم، إلى أشهر ملوكها الذي بنى مدينة السامرة فكانت عاصمةً له ولكل مَن تسلسلوا بعده من الملوك إلى دمارها الأخير. وكان ياهو معاصرًا لحزائيل ملك دمشق، وكلاهما كان يدفع خطر الآشوريين على طريقته الخاصة. فبينما تابع حزائيل سياسة التمرد والمجابهة، لجأ ياهو إلى الدبلوماسية واتِّقاء شر الملك الآشوري بدفع الجزية والأتاوى له. فإضافة إلى النص الآشوري الآنف الذكر، لدينا كتابة على مسلة

[٣٢] الدكتور علي أبو عساف، آثار الممالك القديمة في سورية، المرجع السابق، ص٤٧٨.

[٣٣] Leo Oppenheim, op. cit., p. 280.

سوداء محفوظة الآن في المتحف البريطاني نُقشت تحت صورة تُمثِّل رجلًا ساجدًا عند قدمي شلمنصر الثالث، وترجمتها كما يلي: [جزية ياهو ابن عمري. تلقيت منه فضةً وذهبًا، طاسة ذهبية ومزهرية ذهبية مدبَّبة القاعدة (تعداد لبقية الأصناف المقدمة)[٣٤] ورغم أن جزية ياهو المدفوعة لشلمنصر غير مذكورة في التوراة بشكلٍ صريح، ربما حفاظًا على سمعة هذا الملك الذي تُبجِّله أسفار التوراة؛ لأنه أعاد عبادة يهوه إلى السامرة وأزال المعابد الكنعانية منها، فإنَّ هناك إشارات واضحة إشارات واضحة إلى العطايا التي كانت تُقدَّم إلى آشور في ذلك الوقت، ويُمكن بهذا الخصوص مراجعة سِفر هوشع ٥: ١٧ و١٢: ١.

غير أنَّ دمشق والسامرة (بعد أن تباينت مواقفهما من آشور بعد معركة قرقرة) لم تُوفِّرا فرصة للاقتتال فيما بينهما كلما تراخت قبضة الآشوريِّين. نقرأ في سفر الملوك الثاني ١٣: ٣–١٣، و٢٢–٢٥: [مَلَك «يهو آحاز» بن «ياهو» على إسرائيل في السامرة سبع عشرة سنةً. وعمل الشر في عيني الرب ... فحمي غضب الرب على إسرائيل ودفعهم ليد حزائيل ملك آرام وليد بنهدد بن حزائيل كل الأيام] ... [ثم مات حزائيل ملك آرام ومَلَك بن لعدد ابنه عوضًا عنه. فعاد «يهوآش» «بن يهو آحاز» وأخذ المدن من يد بنهدد بن حزائيل التي أخذها من يد يهو آحاز أبيه بالحرب].

وهكذا تتقاطَع نصوص التوراة مع النصوص الآشورية والنصوص الآرامية لتثبت أن مسرح الحدث التوراتي ومسرح السجلات الآشورية كان في بلاد الشام ولا علاقة له من قريب أو بعيد بغرب العربية.

(٤) حدد نيراري الثالث

بعد شلمنصر الثالث، تتراخى قبضة آشور عن بلاد الشام مدة عشرين سنةً بسبب النزاعات الداخلية بين ورثة العرش والانشغال بالحروب ضد المناطق الشرقية. وفي عام ٨١٠ق.م. يرتقي العرش «حدد نيراري الثالث» (٨١٠–٧٨٣ق.م.) تحت وصاية أمه «شامورامات» (سميراميس عند الإغريق) نظرًا لصغر سِنِّه. وما إن يشتدَّ عوده حتى يسير في درب أسلافه نحو سورية. نقرأ على قاعدة تمثال مكسورة، عُثر عليها في «نمرود» بآشور النص الآتي:

[... ومن شاطئ الفرات أخضعت بلاد حاتي، وكل أراضي آمورو، وصور، وصيدا، وأرض عمري، وآدوم، بلاد الفلستيين Pa-la-as-tu، إلى البحر الكبير حيث تغرب الشمس.

[٣٤] Ibid., p. 281.

جميعهم أخضعتُ تحت قدمي وفرضتُ عليهم الجزية. سرتُ نحو بلاد دمشق، وحبست ملكها «ماري» في «دمشقي» مقر مُلكه، فغمَرَه الخوف من بهاء مولاي الإله آشور وأمسك قدمي خضوعًا لي. فتلقيت منه الجزية في قصره الملكي: ٢٣٠٠ وزنة من الفضة و٢٠ وزنةً من الذهب و٥٠٠٠ وزنةٍ من الحديد (تعداد لبقية أصناف الجزية) ...][٣٥]

إلا أن مَن أعاد هيبة الحُكم الآشوري فعلًا إلى مناطق نفوذِه السابقة شرقًا وغربًا كان الملك «تغلات فلاصر الثالث».

(٥) تغلات فلاصر الثالث

في سجلات «تغلات فلاصر الثالث» (٧٤٤–٧٢٧ق.م.)، تأخُذ أخبار التوراة بالتقاطُع مع النصوص التاريخية الآشُورية بشكلٍ أكثر دقة. نقرأ في نصٍّ قصير يَسرد أسماء الملوك الذين أرسلوا جزياتهم إلى ملك آشور: [تلقَّيت الجزية من «رصين» Ra-hi-a-nu ملك دمشق و«منحيم» Me-ni-hi-im-me ملك «السامرة» Sa-me-ri-na و«حيرام» Hi-ru-um-mu ملك «صور» و«سيبيتي بعل» ملك «جبيل» و«أوريكي» ملك «قوية»، و«بيسيريس» ملك «كركميش»، و«إنليل» ملك «حماة»، و«بنامو» ملك «شمأل» ... ومن «زبيبه» Za-bi-be ملكة العرب].[٣٦]

إنَّ أسماء ممالك بلاد الشام الواردة في هذا النص جميعها، صار معروفًا لدينا عند هذه المرحلة من دراسة النصوص القديمة. ولكنَّنا نودُّ التوقُّف قليلًا عند «بنامو» ملك شمأل، لنُورد بعض النصوص الآرامية التي تأتي على ذِكر هذا الملك والتي تتقاطَع مع السجلات الآشورية. فلقد أمدَّتنا التقنيات الأثرية في «زنجرلي» على السَّفح الشرقي لجبل الأمانوس في أقصى الشمال السوري، وهي عاصمة مملكة شمأل أو يأدي، بالعديد من النصوص التي كشفت لنا عن أحوال المملكة الاجتماعية والسياسية خلال النِّصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد. و«بنامو» المذكور في النص الآشوري هو «بنامو الثاني» الذي تذكره النصوص بكلِّ إكبار وإجلال على أنه المصلح الذي أحلَّ العدل في البلاد واهتمَّ بإعادة بنائها بعد فترة من الفَوضى والاضطرابات. وكان هذا الملك، على ما تَرويه النصوص

---

[٣٥] Ibid., pp. 281–282.

[٣٦] Ibid., p. 283.

صديقًا للآشوريِّين يدفع لهم الجزية بانتظام، وعندما هاجم تغلات فلاصر الثالث دمشق، شارك بنامُو في حملته وقاتل إلى جانبه، ولكنه أصيب في المعركة ومات على ما يَذكره النص: [مات على رجلي سيده تغلات فلاصر ملك آشور في المعركة، فبكاه أقرباؤه الملوك وبكَتْه قوات سيِّده ملك آشور كلها. وأخذه سيِّده ملك آشور وأقام له نصبًا على الطريق ونُقلَ مِن دمشق إلى أرض آشور].[٣٧] وقد ترك حفيد بنامو المدعو «بر راكب» (ابن راكب) نصًّا على تمثال له محفوظ الآن بمتحف إستانبول يذكر فيه جده ينامو:

[أنا «بن راكب» بن «بنامو»، ملك شمأل وعبد تغلات فلاصر ملك جهات الأرض (الأربعة). بسبب صلاحي وصلاح أبي، أحلني سيدي «راكب إيل» وسيدي تغلات فلاصر على عرش أبي، وبيت أبي قد غنم أكثر من الجميع، لقد سِرتُ في ركاب سيدي ملك آشور بين ملوك عظام يملكون الفضة ويَملكون الذهب، وأخذت بيت أبي وجدَّدته (فصار) أفضل من بيوت الملوك العظام ...][٣٨]

أما «منحيم» ملك السامرة المذكور في نصِّ فلاصر أعلاه، إلى جانب ملوك دويلات بلاد الشام الذين دفعُوا الجزية لآشور، فقد عاصر السنوات الأولى لحكم تغلات فلاصر، واتَّقى شرَّه بالجزية. وكان خلفه «فقح» هو الذي منع الجزية عن آشور وتمرَّد على تغلات فلاصر على ما تذكره السجلات الآشورية وأخبار التوراة. نقرأ في سِفر الملوك الثاني ١٦: ٥ [حينئذٍ صعد رصين ملك آرام وفقح بن رمليا ملك إسرائيل إلى أورشليم للمُحاربة، فحاصَرُوا آحاز ولم يَقدِرُوا أن يغلبوه ... وأرسل آحاز رُسلًا إلى تغلت فلاصر ملك آشور قائلًا: أنا عبدك وابنك، اصعد خلِّصني من يد ملك آرام ومن يد ملك إسرائيل القائمين عليَّ. فأخَذ آحاز الفضة والذهب الموجودة في بيت الرب وفي خزائن بيت الملك وأرسلها إلى ملك آشور هديةً، فسمع ملك آشور وصعد إلى دمشق وأخذها وسباها إلى قير وقتل رصين وسار الملك آحاز للقاء تغلت فلاصر ملك آشور إلى دمشق].

وهدية آحاز المُرسلة في هذا النص إلى ملك آشور مذكورةٌ في عداد الجزيات التي يذكر نص آخر لتغلات فلاصر وصولها إلى آشور: [تلقَّيت جزية «خاشتاشبي» ملك «كوماجين» و«أوريك» ملك «قوع» و«سيبيتي بعل» ملك «جبيل» و«إنليل» ملك «حماة»

---

[٣٧] الدكتور علي أبو عساف، الآراميون، المرجع السابق، ص١٢٥.

[٣٨] Franz Rosenthal, op. cit., p. 655.

للمقارنة راجع أبو عساف، الآراميون، المرجع السابق، ١٢٧.

و«بنامو» ملك «شمأل» ... و«متان بعل» ملك «أرواد» و«سابينو بعل» ملك «بيت عمون»، و«سلمانو» ملك «موآب» و«ميتيني» ملك «عسقلان» و«آحاز» la-u-hazi ملك «يهوذا» la-uda-aa و«كوش ماليكو» ملك «آدوم»، و«هانو» ملك «غزة» Ha-za-at-aa (تعداد لأصناف الجزية)].[٣٩]

لقد كانت حملة تغلات فلاصر على مملكة إسرائيل بداية لنهايتها، وقد جاءت حملتُه هذه في نطاق حملة واسعة على بلاد الشام وخصوصًا دمشق التي عاضدت السامرة ضد أورشليم، حيث دمر مدنها وقُراها. وبعد دمشق انقلب إلى الساجل السوري (البحر الأعلى) هبوطًا إلى غزة التي فرَّ ملكها إلى مصر ناجيًا بحياته. أما عن ملك السامرة، فيُتابع النص: [أما منحيم، فقد هبطتُ عليه كما العاصفة الثلجية، ففرَّ وحيدًا ثم عاد فانحنى عند قدمي، أعدته إلى مكانه وفرضت عليه جزية (تعداد للأصناف المقدمة). وسقت الكثيرين من «بيت عمري» (مملكة إسرائيل) ومُمتلكاتهم إلى آشور، ثم انقلبوا بعد ذلك على ملكهم «فقح» Pa-qa-ha فأحللت بدلًا عنه «هوشع» A-u-si ملكًا عليهم، وتلقَّيت منه جزيةً (تعداد للأصناف المقدمة)].[٤٠]

وتتطابق هذه الرواية الآشورية في خطوطها العامة مع رواية سِفر الملوك الثاني ١٥: ٢٩–٣٠ حيث نقرأ: [في أيام فقح ملك إسرائيل، جاء تغلت فلاصر ملك آشور وأخذ عيون وآبل بيت معكه ويانوح وقادش وحاصور وجلعاد والجليل وكل أرض نفتالي وسباهم إلى آشور، وفتن هوشع بن إيله على فقح بن رمليا وضرَبه فقتَله وملك عوضًا عنه].

وفي عهد هوشع تحلُّ النَّكبة الأخيرة بمملكة إسرائيل ويختفي ذكرها إلى الأبد.

(٦) صارغون الثاني

بعد تغلات فلاصر الثالث، يَعتلي العرش ابنه «شلمنصر الخامس» (٧٢٦–٧٢٢ق.م.) الذي يعزو إليه كتاب التوراة فتح السامرة وإجلاء أهلها إلى آشور، بينما تتحدَّث نصوص خليفته «صارغون الثاني» (٧٢١–٧٠٥ق.م.) عن قيامه بفتح السامرة. ويبدو أن صارغون الثاني كان قائدًا للعمليات العسكرية في فلسطين، وهو الذي أكمل ما بدأه شلمنصر الخامس

[٣٩] Leo Oppenheim, op. cit., pp. 281–282.

[٤٠] Ibid., pp. 288–284.

وعزاه جميعًا إلى نفسه. نقرأ في نص مبكر لصارغون الثاني ما يلي: [... صارغون ملك آشور فاتح السامرة Sa-mir-i-na وكل بيت عمري (إسرائيل) Bet-hu-um-ri-a الذي غنم «أشدود» و«شينوختي» Shinuhti، وأمسك الـ «يماني» la-ma-ni في البحر كالسَّمك، الذي قضى على «كاسكو» و«طابالي» و«خيلاكو» الذي طارد «ميتا» ملك «موشكو» الذي قهر «مصر» في «رفح» Rapihu، الذي أخذ «هانو» ملك «غزة» غنيمةً، الذي أخضع الملوك السبعة في «يا» la بأراضي «يدنانا» la-ad-na-na على مسافة سبعة أيامٍ في البحر].[٤١]

إضافةً إلى السامرة وبيت عمري، التي أثبَتْنا حتى الآن أنها مملكة إسرائيل، فإنَّنا نعرف من جدول صارغون أعلاه الأسماء الآتية: أشدود وهي مدينة الفلستيِّين المعروفة على ساحل فلسطين، خيلاكو وهي كيليكيا على ساحل المتوسط الشمالي، موشكو ويغلب أن تكون بآسيا الصغرى، غزة وهي مدينة الفلستيين المعروفة في جنوب الساحل الفلسطيني، تليها رفح عند الحدود المصرية. أما «اليامانى» الذين أمسكهم صارغون في البحر كالسَّمك فهم الأيونيون الإغريق، و«يدنانا» التي تقع على مسافة سبعة أيام في البحر انطلاقًا من غزة فهي قبرص.[٤٢] وتعريف هذه الأماكن متَّفقٌ عليه بين جميع المؤرِّخين ودارسي النصوص الآشورية. إلا أنَّ لكمال الصليبي رأيًا مختلفًا بخصوصها.

يقول الصليبي: [إنَّ الجداول الطبوغرافية الآشورية مثل آشور بانيبال الثاني وشلمنصر الثالث وصارغون الثاني تقدم سجلات للفُتوحات في غرب شبه الجزيرة العربية وليس في الشام، ولإعطاء مثال واحد لا أكثر فإنه في الأسطر الأولى مِن جدول صارغون الثاني، يصف هذا الملك نفسَه بأنه فاتح «سا-مي-ري-نا» (سيمرن) و«بيت خو-ءم-ري يا» (خمري). وقد ساد الاعتقاد حتى الآن أن الإشارة في هذَين الاسمَين هي إلى «السامرة» (شمرون) و«بيت عمري» أي إسرائيل. وقد كانت مملكة عمري الإسرائيلية بالتأكيد في جنوب الحجاز؛ أي في عسير الجغرافية، والسامرة ما زالت هناك وتدعى «شمران» باسمها في صيغته الأصلية التوراتية بلا تغيير. لكن الإشارة في جدول صارغون الثاني ليسَت إلى السامرة وبيت عمري بل إلى منطقة جيزان حيث ما زالت هناك قرية في جبل هروب اسمها «الصرمين» وقرية أخرى اسمها «الحمراية» في وادي عقاب بناحية أبي عريش] (انظر: ص١١٦–١١٧).

---

[٤١] Ibid., p. 284.

[٤٢] Ibid., p. 284.

ثم يتابع الصليبي العثور على أماكن بقية الأسماء الواردة في جدول صارغون الثاني أعلاه في عسير وغرب العربية، مما لا يتَّسع مجالنا هنا لإيراده. غير أننا سوف نتوقَّف عند حالتَين ممَّا ذكر، الأولى تتعلَّق «باليماني» وهم الأيونيون الإغريق، والثانية تتعلق بـ «يا» Ia الواقعة في «يدنانا» التي هي قبرص فبخصُوص اليماني يقول الصليبي إنه [في النهاية الشرقية لوادي نجران اقتنص الملك الآشوري الـ «يا - ما - نو» كالسَّمك. والإشارة هنا هي إلى «اليمينيِّين» أي شعب الجنوب وهم «البنياميون التوراتيون» الذين لم يعيشوا في البحر «يم»، بل في بلاد «يام» بين وادي نجران ورمال الربع الخالي]. وفي الحقيقة، لو أنَّ الصليبي قد أورَد ذكر نص آخر لصارعون الثاني الذي يتعرَّض فيه للياماتي (هكذا وردَت في النص الآشوري) لعرفنا منه أن هؤلاء الإغريق إنما يعيشون في جزر قائمة في البحر المتوسِّط فالنص يقول: [لقد فتحت السامرة وكيل بيت عمري وأمسكت اليماني الذين يعيشُون في وسط بحر الغرب، كالسمك].[٤٣] فكلمة «يامو» في هذا النص وتعني بحر بالآشورية (يم)، ويرى فيها الصليبي بلاد «يام» الصَّحراوية، لم تبقَ مُغفَّلةً بل أضيفت إلى كلمة الغرب «أمورو» بالآشورية، لتُصبح «بحر الغرب» وهي التَّسمية المعروفة في نصوص بلاد الرافدين للبحر المتوسِّط. ثم إننا بصرف النظر عن الإيضاح الذي يُقدمه النص الثاني، نسأل كيف شبَّه النص الآشوري إمساك اليماني بصيد السَّمك إذا كان هؤلاء يعيشُون في الصحراء، وإذا كان مُطاردة الآشوريين لهم تتمُّ في الفيافي والقفار؟

أما فيما يتعلق بـ «يا» Ia فيقول الصليبي أنها وادي «عياء» على بُعد حوالي ٢٠٠كم إلى الجنوب من «خزاعة» (وهي «غزة» المقصودة في جدول صارغون) أي على مسافة سبعة أيامٍ كما جاء في منقوشة صارغون، دون أن يتطرَّق إلى أن الجدول قد قال بنصِّه الصريح أن «يا» هذه هي مقاطعة في «يدنانا» الواقعة في البحر على مسافة سبعة أيامٍ في البحر (انظر النص أعلاه) ودون أن يتطرَّق إلى نصٍّ آخر لصارغون يَزيد على ذلك بأن «يدنانا» تقع على مسافة سبعة أيام في البحر وسط بحر الغرب: [والملوك السبعة في «يا» Ia بأراضي «يدنانا» Ia-ad-na-na التي في وسط بحر الغرب على مسافة سبعة أيام، والتي لم يَسمع بها أحد من أجدادي الملوك لبُعدها، قد عرفوا في بقعتهم النائية عما فعلت ببلاد «حاتي» وبلاد «الكلدان»، فارتجفُوا فرقًا وأرسلوا إليَّ في بابل ذهبًا وفضة ...][٤٤]

[٤٣] Ibid., p. 284.

[٤٤] Ibid., p. 284.

وفي نهاية تحليله لأسماء المواقع الواردة في جدول (صارغون الثاني) يتساءل الصليبي: [... وبوجود هذه الأسماء جميعها الواردة في جدول صارغون في غرب العربية؛ أي سبب يبقى للإصرار على الاعتقاد بأنَّ هذا الجدول يُشير إلى فتوحات آشورية في الشام وفلسطين؟] ونحن نقول إنَّ قراءة كمال الصليبي المُجتزأة والانتقائية للنصوص القديمة، وعدم تقديمه نصًّا كاملًا واحدًا منها، هو أحد أسباب الإصرار على هذا الاعتقاد.

كرَّر صارغون الثاني خبر فتح السامرة في عدة نصوص. وهو في نصٍّ أكثر تفصيلًا يقول: [لقد حاصرتُ وفتحت السامرة، وجلوت ٢٧٢٩٠ من سكانها، وجهَّزت من بينهم فصيلة بخمسين عربةً ضممتها إلى فيلقي الملكي. أما المدينة، فقد أعدتُ بناءها بأفضل ممَّا كانت، وأسكنت فيها شُعوبًا من المناطق الأخرى التي قهرتها. ثم أقمتُ عليهم ضابطًا من لدني حاكمًا عليهم، وفرضتُ عليه جزية الآشوريين].[٤٥]

وتتطابَق الرواية التوراتية مع النص الآشوري، وتختلفان فقط في اسم الملك الآشوري، ممَّا ألمحنا إليه أعلاه وقدمنا له تفسيرًا. نقرأ في سِفر الملوك الثاني ١٨: ٩–١١ [في السنة السابعة لهوشع ملك إسرائيل، صعد شلمنصر ملك آشور على السامِرة وحاصَرَها، وأخذها في نهاية ثلاث سنين ... وسبى ملك آشور إسرائيل إلى آشور ووضعهم في حلج وخابور نهر جوزان وفي مدن مادي]. ونقرأ أيضًا في الملوك الثاني ١٧: ٢٤ [وأتى ملك آشور بقَوم مِن مدن بابل وكوث وعوا وحماة وسفر وإيم وأسكنهم في مدن السامرة عِوَضًا عن بني إسرائيل، فامتلكُوا السامرة وسكنوا في مدنها].

لقد حاول الآشوريون إحداث تغييرات ديمغرافية جذرية في مناطق نفوذهم لإحكام سيطرتهم على سكانها، فعمَدوا إلى تهجير شعوب بأكملِها وزرعها في مواطن غريبة عنها، وحملوا أهل هذه المواطن فأعطوهم مناطق المُهجرين. ولم تُطبَّق سياسة التهجير هذه على أهل السامرة فحسب، بل شملتْ شعوبًا عديدة، منها شعب مملكة حماة ومملكة كركميش. نقرأ في سجلات صارغون عن ذلك ما يأتي:

[«ياوبيدي» من عامة مدينة «حماة» A-ma-at-tu حثي ملعون، جعل نفسه مَلكًا على المدينة، وحرَّض ضدي مدن «أرواد» و«سيميرا» و«دمشق» و«السامرة» فتعاوَنُوا وجهَّزوا جيشًا مشتركًا. دعوت جميع جند آشور وأطبقت عليه في «قرقرة» مدينتِه الأثيرة. ففتحتُها وأحرقتها. أما هو فقد أمسكتُ به وسلختُ جلده وقتلتُ المتمردين في

---

[٤٥] Ibid., p.

مدنهم وأحللتُ النظام والسلام بها].[٤٦] ويبدو أن قتل ملك حماة لم يتم عقب المعركة في قرقرة، بل في آشور التي سيق إليها مكبلًا بالأصفاد، لأننا نقرأ في نص آخر: [لقد خربتُ بلاد «حماة» كعاصفة الطوفان، وسقتُ ملكها ياوبيدي وعائلته، وكل محاربيه إلى آشور مكبلين بالأصفاد فشكَّلتُ منهم فرقةً مؤلفة من ٣٠٠ عربةٍ و٦٠٠ مقاتلٍ مجهزين بالتروس والرماح، وضممتهم إلى فرقي الملكية. ثم أسكنتُ ٦٣٠٠ فردٍ من الآشوريين في بلاد حماة، وجعلتُ عليها حاكمًا من لدني].[٤٧]

أما عن كركميش فنقرأ: [في السنة الخامسة لحكمي، ملك كركميش المدعو «بيصيري» حنث بالعهد والقَسَم أمام الآلهة العظام، وبعث برسالة إلى «ميتا» ملك «موشكي» مليئة بالمخطَّطات العدوانية ضد آشور. فرفعت يدي إلى إلهي آشور بالصلاة، وجعلته يَستسلِم عاجلًا مع عائلته، فخرجُوا جميعًا من كركميش، ومعهم ذهبُهم وفضَّتهم ومُمتلكاتهم الشخصية، تقدمة لي، فرميتُهم بالأصفاد. أما أهل المدينة ممَّن ثارُوا معه، فقد سُقتهم أسرى إلى آشور ... ثم أحللت في كركميش سكانًا من آشور].[٤٨]

(٧) سنحاريب

تأتي حوليات الملك سنحاريب (٧٠٤–٦٨١ق.م.) على جانب كبير من التفصيل يماثل حوليات شلمنصر الثالث. نقرأ في أخبار حملتِه الثالثة على بلاد الشام: [في حَملتي الثالثة، توجَّهت إلى حاتي. «لولي» ملك صيدون الذي أَخَذَه الخوف من هيبة جلالتي فرَّ بعيدًا عبر البحار واختفى ذكره. أما مدنه فقد تملَّكها الهلع من عظمة آشور: «صيدون الكبرى» و«صيدون الصغرى» و«بيت زيتي» Bet-Zitti و«زاريبتو» Zaribtu، و«محاليبا» Mahaliba، و«أوشو» و«أكزيب» Akzib، و«عكا» Akko. مدنه المحصَّنة المزوَّدة بالماء والطعام لحاميتِه قد خضعت تحت قدمي. أقمت على عرش صيدون المدعو «توبعلو» وفرضت عليه جزية يؤديها إليَّ، أنا سيده، كل سنة دون انقطاع].[٤٩]

[٤٦] Ibid., p. 285.

[٤٧] Ibid., p. 284.

[٤٨] Ibid., p. 285.

[٤٩] Ibid., p. 287.

إن حملة سنحاريب الثالثة هذه موجهة بشكل خاص نحو الساحل الفينيقي وساحل فلسطين وبلاد فلسطين الداخلية ... فبعد عبور سورية الشمالية يهبط نحو البحر الفينيقي لتكون مدينة صيدون أول هدف له، وكانت صيدون في ذلك الوقت تُسيطِر على عدد كبير من مدن فينيقيا. بعد سقوط المدينة يَهرب ملكها عبر البحر، وتسقط بقية المدن الواقعة تحت سيطرتها على الساحل، نعرف منها على وجه التأكيد «أوشو» التي هي مدينة صور البرية و«زاريبتو» أو «ساريبتا» التي كشفت عنها التنقيبات حديثًا على الساحل اللبناني في مُنتصَف الطريق بين صيدا وصور، و«عكا» التي تلي صور كأول ميناء على ساحل فلسطين. وطبعًا، لا يُمكن أن تكون صيدون وجارتها الواردة في جدول سنحاريب أعلاه، هي «آل زيدان» غرب العربية في مُرتفعات جبل شهدان بأراضي جيزان الداخلية؛ لأنَّ ملك صيدون يُغادر مدينته بحرًا. ونعرف من نصٍّ آخر لسنحاريب أن وجهة ملك صيدون كانت قبرص حيث نقرأ: [ولولي ملك صيدون خاف من مواجهتي وفرَّ إلى «يدنانا» Ia-ad-na-na في وسط البحر يَطلب مخبأ، ولكن حتى هناك في تلك البلاد طالته أسلحتي وصرعته].[٥٠]

بعد ذلك يُتابع سجل حملة سنحاريب الثالثة سرد أخبارها فبعد سقوط صيدون ومدنها المحصَّنة: [كل ملوك آمورو جاءوا بهداياهم السخية أمامي وقبَّلوا قدمي: «مناحيم» ملك «شمسي مورونا» Samsi-Muruna «توبعلو» ملك صيدون، «أبيلتي» ملك «أرواد»، «أورملكي» ملك «جبيل»، «ميتيني» ملك «أشدود»، «بوديولي» ملك «بيت عمون» «كاموسون» ملك «موآب»، «إبرامو» ملك «آدوم». أما «صدقيا» ملك «أشقلون» الذي لم يَخضع لي، فقد قبضتُ عليه وجلوته إلى آشور مع زوجتِه وأولاده وإخوته وكل ذكور عائلته، وأقمتُ بدلًا عنه «شارولوداري» وفرضت عليه الجزية والخنوع].

إضافة إلى ملوك الساحل الفينيقي، يأتي إلى سنحاريب ملوك دويلات الساحل الفلستي ومنها «أشقلون» وهي عسقلان الحالية ويُمكن الاطلاع على أخبارها في التوراة في يشوع ١٣: ٣؛ وصموئيل ٦: ١٧؛ والقضاة ١٤: ١٩ وغيرها من المواضع. وكذلك «أشدود»، ويُمكن الاطِّلاع على بعض أخبارها في سِفر يشوع ١٣: ٣؛ وصموئيل الأول ٥: ١–٢؛ و٣–٨. وقد كان للفلستيِّين على طول المنطقة الساحلية الفلسطينية خمس مدن رئيسية عرفنا أخبارها من أسفار التوراة ومن سجلات آشور وهي: غزة وأشدود وعسقلان وعقرون

[٥٠] Ibid., p. 288.

وجت. كما يأتي إلى سنحاريب ملوك من الجهة الأخرى للأردن، من «بيت عمون» وهي موطن العمونيِّين، و«موآب» موطن الموآبيين، و«آدوم» موطن الآدوميِّين. وهذه الشعوب الثلاثة مذكورة في السجلات الآشورية السابقة واللاحقة لسنحاريب، وفي أسفار التوراة عبر الكتاب، فهم الأعداء التقليديُّون ليهوذا وإسرائيل.

ثم يُتابع سنحاريب إخضاع مناطق الفلستيِّين مُتغلغلًا نحو فلسطين الداخلية: [تابعت حملتي فحاصرت «بيت داجون» و«يافا» Joppa و«بني برقة» Banai-Barqa و«أزورو» Azuru، وهي مدن تابعة لصدقيا (ملك أشقلون)، ففتحتها وحملت الأسلاب منها. أما مدينة «عقرون» فقد قام مسئولوها ووجهاؤها وعامَّتها بوضع مليكهم «بادي» في الأغلال؛ لأنه كان على العهد الذي قطعه مع آشور، وسلَّموه إلى «حزقيا اليهودي» Ha-za-qi-ia-uia-u-da-ai الذي رماه في السجن وعامله معاملة الأعداء. ثمَّ خاف (من فعلته) فدعا لمساعدته قوات مَلكَي مصر وإثيوبيا التي لا تُعدُّ. فجاءوا لمساعدته. وفي سهل «التقو» Al-ta-qu-u انتظمَت صُفوفهم ضدِّي وشحذوا أسلحتهم. بعد استخارة نبوءة الإله آشور، مولاي، هاجمتُهم وهزمتُهم. وفي غمرة القتال قمتُ بنفسي بأَسْرِ فرسان العربات وأُمرائهم من مصريِّين وإثيوبيِّين. حاصرت مدينة «التقو» و«تمنه» Ta-am-na-a وأخذتهما، وحملت معي أسلابهما. ثمَّ استبحت مدينة «عقرون» وقتلت مسئوليها ووجهاءها الذين أجرموا، وعلقتُ جُثثَهم على الأعمدة حول المدينة أما عامتها، فمَن وجدت منهم مُذنبًا أخذته أسيرَ حربٍ ومَن وجدت بريئًا أطلقته. وأعدَّت مَلِكهم «بادي» من «أورشليم» Ur-sa-li-im-mu وأقمتُه على العرش سيدًا لهم وفرضت عليه الجزية يَدفعها لي أنا مولاه].

من المدن التابعة لأشقلون الفلستية الوارِدة أعلاه، نعرف «بيت داجون» الواردة في التَّوراة بالاسم نفسه (راجع سِفر يشوع ١٥: ٤١، و١٩: ٤٧)، كما نعرف «يافا» التي ورَدَت في السجلات المصرية بالاسم نفسه كمدينة على الساحل الفلسطيني، «وبني برقة» الواردة في التوراة تحت اسم «بني برق» (راجع يشوع ١٩: ٤٥) وهي «بني براق» اليوم على مسافة ٧ كم من يافا. أما «عقرون» مدينة الفلستيِّين الشهيرة فمعروفة جيدًا في أسفار التوراة، وفيها جرَت أحداث مهمَّة (راجع سِفر صموئيل الأول ٥: ١٠–١١؛ و٧: ١٤؛ و١٧: ٥٢؛ والملوك الثاني ١: ٢؛ وإرميا ٢٥: ١٥–٢٠) والأرجح أنها «عاقر» اليوم على مسافة ١٦ كم من يافا جنوبًا. وفي أرض يهوذا التي توجه إليها سنحاريب للانتقام من «حزقيا» ملكها الذي ارتقى العرش قبل حكم سنحاريب وعاصَرَه، فنَعرِف «التقو»

التي هي «التقى» التوراتية (يشوع ١٩: ٤٠، ٤٤؛ ٢١: ٢٠، ٢٣)، وأيضًا «تمنة» (راجع يشوع ١٥: ١٠؛ والقضاة ١٤: ٢) والأرجح أنها «تبنة» اليوم جنوب مدينة الخليل وبالطبع «أورشليم» التي حبس فيها حزقيا ملك عقرون.

بعد معركة سهل «التقى» التي هزم فيها سنحاريب حزقيا ملك أورشليم وقوات المعونة التي جاءته من مصر، يُتابع النص أخبار الحملة على مدن يهوذا وصولًا إلى أورشليم: [أما حزقيا اليهودي الذي أبى الخضوع لي، فقد ألقيت الحصار على ٤٦ من مدنِه الحصينة وقلاعه المسورة، وعدد لا يحصى من القرى حولها وأخذتها، مُستعملًا المدكات والمناجيق التي قرَّبها المشاة إلى مقدمة الهجوم فأحدثوا أنفاقًا وثغرات.[٥١] سُقتُ أمامي منهم الغنائم: ٢٠٠١٥٠ من الذكور ومن الإناث شيبة وشبانًا، وأَحصِنة وبغالًا وحميرًا وجِمالًا، ماشية كبيرة وصغيرة لا حصر لها. أما حزقيا نفسُه فقد صار حبيسًا في مقره الملَكي «أورشليم» كعصفور في قفص. فأحطته بالمتاريس والخنادق لحجز الفارين عند البوابات. والمدن التي أخذتها منه أعطيتها لـ «ميتيني» ملك «أشدود» و«بادي» ملك عقرون و«سيليبيل» ملك غزة، فأنقصت بذلك مساحة أراضيه، ورفعت فوق ذلك عليه الجزية التي تُؤدَّى لي، أنا سيده، بما يفوق الجزية السابقة، تُسلَّم سنويًّا. لقد غمَره الخوف من رهبة جلالتي، والقوات التي أتى بها إلى أورشليم لمعاونته قد اختلت صفوفها وتركته. فأرسل إليَّ في نينوى عاصمة ملكي ثلاثين وزنةً من الذهب و٨٠٠ وزنةٍ من الفضة، وأحجارًا كريمة، وكميات من الإثمد وقطع الصخر الأحمر، ومقاعد وكراسي مزينة بالعاج، وجلود الفيلة، وخشب الأبانوس، وصناديق خشبية، وكل أنواع النفائس. كما أرسل إلى بناتِه ومحظياته وموسيقيِّيه من بنات وشبان].

وهكذا تنتهي حملة سنحاريب على مملكة يهوذا، بعد أن أخذ مدنها وقُراها جميعها عدا أورشليم التي صمَدت أمام الحصار، فتركها بعد أن ملَّ مِن حصارها مُكتفيًا بالجِزية التي فرَضها على حزقيا وبالهدايا التي وعد بإرسالها إلى نينوى. غير أنَّ الرواية التوراتية تعزُو تراجُع سنحاريب إلى تدخل من إله اليهود الذي أرسل على الآشوريين وباءً صرَع منهم عشرات الألوف. وتتطابَق الرواية الآشورية في خُطوطها العامة مع الرواية التوراتيَّة؛

---

[٥١] أدوات الحصار التي يُوردها النص وطريقة استخدامها غامضة. وقد حذفت ما أضافه صاحب النص السيد أوبنهايم بين أقواس ليستقيم له المعنى؛ لأنه بدون هذه الإضافات يغدو تركيب الحملة الآشورية أقرب إلى العربية.

حيث نقرأ: [وفي السنة الرابعة عشرة للملك حزقيا، صعد سنحاريب ملك آشور على جميع مدن يهوذا الحصينة وأخذها. وأرسَلَ حزقيا ملك يهوذا إلى ملك آشُور يقول قد أخطأت، ارجع عنِّي ومهما جعلت على حملته. فوضع ملك آشور على حزقيا ملك يهوذا ٣٠٠ وزنة مِن الفضَّة وثلاثين وزنةً من الذهب] الملوك الثاني: ١٨: ١٢–١٥. كما نعرف عن استعانة حزقيا بالقُوَّات المصرية من كلام رسول سنحاريب عند أسوار أورشليم الذي يهزأ بمصر وفرعَونها، والذي أرسل نجداته إلى حزقيا: [فقال لهم «ربشاقي» قولوا لحزقيا، هكذا يقول الملك العظيم ملك آشور ... والآن على مَن اتكلت حتى عصيت علي. فالآن هوذا، قد اتكلَّت على عُكَّاز هذه القصَبة المرضوضة، على مصر التي إذا توكَّأ عليها أحد دخلَت في كفَّة وثقبتها، هكذا هو فرعون مصر لجميع المتَّكلين عليه] (الملوك الثاني ١٨: ١٩–٢١).

(٨) أسر حادون

بعد فترة الاضطرابات والصراع على العرش، مما تلا مَقتل سنحاريب على يد أحد أبنائه، صعد إلى العرش أسر حادون ابن سنحاريب (٦٨٠–٦٦٩ق.م.)، وعمل فورًا على إخماد الثورات التي اندلَعَت في بلاد الشام. نقرأ في نص حملته على فينيقيا ما يأتي: [أنا أسر حادُون فاتح صيدون التي عند البحر. لقد سوَّيت بالتُّراب أبنيتَها المُشيَّدة ورمَيت بأنقاض سورها وأساساتها إلى البحر، ومحوت المكان الذي قامَت عليه. أما ملكها «عبدي ملكوتي» فقد أمسكت به كالسَّمَكة عندما هرَب إلى عرض البحر أمام هجومي وقطعت رأسه. ثم حملت معي الكثير من مُمتلكاته المكدسة: ذهبًا وفضة وعاجًا وأبانوسًا وجلود فيلة ... وسُقت حشودًا من شعبه أمامي إلى نينوى، وسُقت المواشي كبيرها وصغيرها والحمير. ثم دعوت كل ملوك «حاتي» وبلاد شاطئ البحر، وجعلتهم على أعمال السُّخرة من أجل بناء مقرٍّ جديد لي (مدينة) أسميتُها «كار أسر حادون»، أحللت فيها سكانًا من المناطق الجبلية ومن شاطئ البحر].[٥٢]

وهكذا، فنحن مرةً أخرى مع الجيش الآشوري في «حاتي» (سورية) وعلى الشاطئ الكنعاني، وليس في غرب العربية، وها هو يأتي بملوك دويلات بلاد الشام إلى آشور يَحملون معهم من مواطنهم المواد اللازمة لبناء قصر له:

---

[٥٢] Ibid., p. 290.

[دعوتُ إليَّ ملوك بلاد «حاتي» على الجهة الأُخرى للنهر «بعلو» ملك «صور» و«منسي» Me-na-si-i ملك «يهوذا» la-u-di و«قوش غابري» ملك «آدوم» و«موصوري» ملك «موآب» و«سلبيل» ملك «غزة» و«ميتيني» ملك «أشقلون» و«إيكوسو» ملك «عقرون» و«ملكي آشابا» ملك «جبيل» و«ميتان بعل» ملك «أرواد» و«آبي بعل» ملك «شامسي مورونا» و«بودويل» ملك «بيت عمون» و«آهي مكي» ملك «أشدود» ... كل هؤلاء أرسلتُهم إلى نينوى مقرِّ حكمي، وجعلتُهم يَنقُلون إليها تحت أقسى الظروف مواد بناء لقَصري: جذوعًا ودعائم وألواحًا من خشب الأرز والصنوبر، مما تَفيض به جبال «لبنان» و«سرارا» (و... تعداد لمواد أخرى)].[٥٣]

وبذلك نال ملوك دويلات الطوائف في بلاد الشام أقسى جزاء لهم ولشُعوبهم التي لم تَعرِف قطُّ الدولة المركزية الواحدة. و«منسي» ملك يهوذا الوارد في النصِّ أعلاه هو ابن الملك حزقيا الذي حاصَرَه سنحاريب في أورشليم. وقد أوردت الرواية التوراتية خبر نفْيه من قِبَل ملك آشور في سِفر أخبار الأيام الثاني ٢٣: ٩–١٢ حيث نقرأ: [... ولكن منسي أضلَّ يهوذا وسكان أورشليم ليَعمَلُوا أشرَّ من الأمم الذين طردهم الرب من أما بني إسرائيل، وكلَّم الرب منسي وشعبه فلم يُصغُوا، فجلب عليهم رؤساء الجند الذين لملك آشور، فأخذوا منسي بخزَّامة وقيَّدُوه بسلاسل من نحاسٍ، وذهبوا به إلى بابل].

ولدينا من عصر أسر حادون عدَّة نصوص تتعلَّق بمُعاهَدات أبرَمَها مع بعض ملوك الدُّويلات التابعة، أهمها مُعاهدته مع ملك صور الفينيقية والتي تُظهِر بنودُها أن صور ليسَت «زور الوادعة» في منطقة نجران المُجاوِرة للصحراء العربية الداخلية، بل هي صور الكنعانية الواقعة على البحر المتوسط. ومِن هذه البنود:

إذا تحطَّمت سفينة تخصُّ «بعل» أو أحد أهالي «صور» على شاطئ بلاد الفلستيِّين، أو في أيِّ مكان على حدود المناطق الآشورية، فإن كل ما فيها يغدُو ملكًا لأسر حادون ملك آشور، لا يمسُّ أحدٌ بأذًى أيًّا مِن ملاحيها، بل يتوجَّب عليهم إرسال قائمة بأسمائهم إلى ملك آشور ١١٠.

وفي عهد أسر حادون، قامت آشور لأول مرَّة بإخضاع مصر، واجتاحت الجيوش الآشورية كامل الأراضي المصرية وما يَليها من بلاد النوبة، وعيَّنتُ حكامًا محليِّين في المدن

[٥٣] Ibid., p. 291.

والأقاليم تابِعين مُباشَرة للملك الآشوري. ولقد كتبت آشور بذلك السطور الأولى في قصة نهايتِها، وأمضَت ما تبقَّى لها مِن وقتٍ قصير في مُحاوَلات مُستحيلة للسيطرة على رُقعة واسعة من أراضي الشعوب المغلوبة، لم يُقيِّض لها ضبطها وتنظيمها ضمن إمبراطورية شائخة تسير نحو نهايتها المحتومة.

(٩) آشور بانيبال ونهاية الإمبراطورية الآشورية

ورث آشور بانيبال (٦٦٨–٦٣٣ق.م.) عن أبيه سنحاريب إمبراطوريةً تموج بالفِتَن والثورات. فقد اضطرَّ لإخضاع مصر مرةً أخرى بعد أن عم التمرُّد أرجاءها، وعاد إليها أكثر مِن مرة بسبب نكوص الأمراء المحليِّين عن عهودهم معه. وفي أثناء ذلك، كان يُؤدِّب في طريقه المُتمرِّدين من ملوك بلاد الشام. نقرأ في أخبار حملته الثالثة.

[في حملتي الثالثة، وجَّهت قوَّاتي ضد «بعلي» ملك صور الذي يعيش على جزيرة في البجر؛ لأنه لم يَعبأ بأَوامِري. أحطتُه بالمتاريس وقطعت عليه الطرُق في البرِّ والبحر، فأنضبتُ مواردهم الغذائية وأجبرته على الخضوع، جلب إليَّ ابنتَه وبنات إخوته ليؤدِّين الخدمة الوضيعة لي، كما جلب إليَّ ابنه الذي كان لم يركب البحر بعد ليكون لي عبدًا. فتلقَّيتُ منه ابنته وبنات إخوته ورددتُ إليه ابنه شفقةً عليه. (وعندها) «ياكينلو» ملك «أرواد» الذي يعيش أيضًا في جزيرة والذي تمرَّد على ملوك أسرتي، خضع إليَّ، وأرسل ابنتَه إلى نينوى ومعها دوطة ثمينة لتُؤدِّي الخدمات الوضيعة في قصري، وقبَّل قدمي].[٥٤]

(١٠) نبوخذ نَصَّر والدولة البابلية الجديدة

بعد آشور بانيبال، بدأت بالتوضح عوامل انحلال المجتمَع العسكري الآشوري التي كانت تعمل في الخفاء خلال أكثر من قرن. ذلك أن المظهر البراق للقوة التي لا تهزم يُخفي وراءه عملية انتحار بطيء تُقدِم عليه المجتمعات العسكرية وهي مُنساقة وراء نشوة انتصاراتها المُتواصِلة. ولم يكن إجهاز الكلدانيِّين الذين أقاموا الدولة البابلية الجديدة على آشور سوى ضربة أخيرة إلى جثَّة داخل درع سميك، على حدِّ تعبير المؤرِّخ آرنولد توينبي،

[٥٤] Leo Oppenheim, op. cit., pp. 295–296.

المصيب. فبعد وفاة آشور بانيبال وقعت بابل تحت سلطان «نابو بولاصر» الكلداني الذي ردَّ عن بابل آخر عدوان آشوري عام ٦١٥ق.م. وفي تلك الأثناء كان حلفاؤه الميديون قد توجهوا لنصرته من إيران فدمروا مدينة آشور عام ٦١٤ق.م.، ثم تعاون الحلفاء معًا فزحفوا إلى نينوى ودمروها وتقاسموا ممتلكاتها.

(١١) نبوخذ نَصَّر ودمار أورشليم

حافظ «نبوخذ نَصَّر» الملك الثاني للمَملكة البابلية الجديدة على المقاطعات التي ورثها أبوه نابو بولاصر من الآشوريين غربي الفرات، واصطدم مع «نخو الثاني» فرعون مصر المُوالي للآشوريِّين عند الفرات، وألحق به هزيمةً ساحقة عام ٦٠٥ق.م. وطارَد المصريِّين إلى حدودهم دون أن يُفكِّر باجتياح مصر نفسها، فقضى بذلك على آمال المصريِّين في الحصول على جزء مِن تركة آشور.

لم تترك لنا الدولة البابلية الجديدة سجلات تفصيلية عن حملاتها في بلاد الشام. ولعلَّ سجلَّ حملة نبوخذ نَصَّر على أورشليم ومملكة يهوذا مثال على ذلك.

[في السنة السابعة، الشهر ... قاد ملك آكاد جيوشه نحو بلاد حاتي، فحاصَرَ مدينة «يهوذا» Ia-a-hu-du وفتَحها في شهر آذار وأقام عليها ملكًا جديدًا اختاره، وأخذ منها جزية كبيرة حمَلها إلى بابل].[٥٥] وكانت هذه الحملة التي تمَّت عام ٥٨٧ق.م. النهاية الأخيرة لمملكة يهوذا. فإضافة إلى مدينة أورشليم نفسها، فقد تتبَّعَت التنقيبات الأركيولوجية الخراب الذي حلَّ ببقية مدن يهوذا التي تهدمت في أوائل القرن السادس قبل الميلاد وانقطع فيها الاستيطان البشري قرابة قرنٍ من الزمان.[٥٦]

ويبدو من أخبار التوراة أن نبوخذ نَصَّر قد اجتاح مملكة يهوذا على مرحلتَين تفصل بينهما قرابة عشر سنوات، في حملته الأولى اكتفى بتغيير الملك وقبض الجزية وسبى الكثيرين مِن أهلها، وفي حملته الثانية قام بتدمير المدينة وسبى كلَّ أهلها عدا أفقر الناس والمُشرَّدين ممَّن لا نفع له فيهم. نقرأ عن حملته الأولى في سفر الملوك الثاني ٢٤:

[كان «يهوياكين» ابن ثماني عشرة سنةً حين مَلَك، ومَلَك ثلاثة أشهر في أورشليم ... وعمل الشر في عينَي الرب حسب كل ما عمل أبوه في ذلك الزمان صعد نبوخذ ناصر

---

٥٥ Ibid., p. 564.

٥٦ Kathleen Kenyon, Digging Up Jerusalem, E. Benn LTD, London, 1976, pp. 166–172.

ملك بابل إلى أورشليم، فدخلت المدينة تحت الحصار، وجاء نبوخذ ناصر ملك بابل على المدينة وكان عَبيدُه يُحاصرونها، فخرج يهوياكين ملك يهوذا إلى ملك بابل هو وأمه وعبيده ورؤساؤه وخصيانه، وأخذه ملك بابل في السنة الثانية من ملكه، وأخرج من هناك خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك جميعها وكسر آنية الذهب كلها التي عملَها سليمان ملك إسرائيل في هيكل الرب كما تكلَّم الرب. وسبى أورشليم كلها، والرؤساء كلهم، وجبابرة البأس جميعهم، عشرة آلاف مسبي والصناع والأقيان جميعهم. لم يبقَ أحد إلا مساكين شعب الأرض، وسبى يهوياكين إلى بابل ... وملَّك مَلِكُ بابل «متينا» عمَّه عوضًا عنه وغيَّر اسمه إلى «صدقيا»].

ولكن صدقيا ما لبث أن تمرَّد على بابل، وفي السنة التاسعة لحُكمِه: [جاء نبوخذ ناصر ملك بابل، هو وجيشه كله على أورشليم ونزل عليها وبنوا أبراجًا حولها، ودخلت المدينة تحت الحصار إلى السنة الحادية عشرة للملك صدقيا، وفي تاسع الشهر اشتد الجوع في المدينة، ولم يكن خبز لشعب الأرض، فثُغِرَت المدينة وهرب رجال القتال جميعهم ليلًا من طريق الباب بين السورَين اللذَين نحو جنة الملك. وكان الكلدانيُّون حول المدينة مُستديرين فذهبوا في طريق البرية، فتتبَّعت جيوش الكلدانيين الملك فأدركوه في برية أريحا وتفرَّقت جيوشه جميعها عنه، فأخذوا الملك وأصعدوه إلى ملك بابل إلى «ربلة» وكلَّموه بالقضاء عليه، وقتلوا بني صدقيا أمام عينَيه وقلعوا عينَي صدقيا وقيَّدوه بسلستَين من نحاس، وجاءُوا به إلى بابل ... (ثم) جاء «نيوزرادان» رئيس الشرط عند ملك بابل إلى أورشليم وأحرق بيت الرب وبيت الملك وبيوت أورشليم كلها، وبيوت العظماء كلها أحرقها بالنار، وأسوار أورشليم هدمها جميعها. وبقية الشعب الذين بقوا في المدينة والهاربون الذين هربوا إلى ملك بابل وبقية الجمهور سباهم «نبوزرادان» رئيس الشرط. ولكن رئيس الشرط أبقى من مساكين الأرض كرَّامين وفلاحين ... فسُبيَ يهوذا من أرضه] (سِفر الملوك الثاني: ٢٥).

وهكذا انتهَت مملكة يهوذا بعد أن عاشت قرابة قرنٍ ونصف بعد دمار مملكة إسرائيل.

غير أنَّ المملكة البابلية الجديدة لم تعمر طويلًا. وقبل انقضاء القرن السادس قبل الميلاد كانت خارطة توزُّع القوى في الشرق القديم قد تبدَّلت بسبب ظُهور قوة جديدة لم يحسب لها حساب هي قوة الفرس أقرباء الميديين الذين ساهمُوا في تحطيم آشور. ففي سنة ٥٤٧ق.م. أكمل «قورش الثاني» ضم كامل بلاد إيران إلى مملكتِه، وفي سنة

٥٣٩ق.م. انتصر على الإمبراطورية البابلية الجديدة (الكلدانية) وضمَّها إلى مُلكِه، بما في ذلك البلاد الواقعة إلى الغرب من نهر الفرات. ثمَّ استعاد ابنه «قمبيز» من بعده كامل تركة آشور؛ وذلك باحتلال مصر. وفي عهد «داريوس الأول» خليفة قمبيز بدأت حركة المد والجزر بين الحضارة الشرقية والحضارة الغربية المتمثِّلة باليونان الفتية، حيث شنَّ حملة بحرية غير حاسمة على بلاد اليونان. وعندما تُوفِّي، كانت الإمبراطورية الشرقية تمتد من وادي نهر السند شرقًا إلى حدود اليونان غربًا، ومن سفوح جبال القوقاز شمالًا إلى شماليِّ الشلال الأول على نهر النيل في أعماق أفريقيا.

(١٢) نتائج وتساؤلات

لقد أثبتَت دراستنا العِلمية للسجلات الآشورية، بما لا يدع مجالًا للشك، أنَّ هذه السجلات مَعنية بمناطق بلاد الشام حصرًا، ولا علاقة لها من قريب أو بعيد بمناطق غرب شبه الجزيرة العربية، وأن ممالك دمشق وحماة الآرامية، وصيدون وجبيل وصور وأرواد الفينيقية، والسامرة وأورشليم الكنعانية، الوارد ذكرها في التوراة وفي سجلات آشور هي ممالك بلاد الشام، وليسَت ممالك عسير وغرب العربية.

ولقد كان للآشوريِّين غزواتٌ موجَّهةٌ نحو جزيرة العرب كما هو واضح مِن سجلاتهم، ولكن أخبار حملاتهم تلك تُوضِّح وبصريح العبارة أنها كانت موجهةً ضد القبائل التي أطلقوا عليها اسم «أريبو» Aribu أي العرب. ولا نستطيع، في سجلات بابل وآشور كلها، أن نجد تلميحًا واحدًا إلى حملة موجَّهةٍ ضد «يهوذا» و«إسرائيل» قائمتَين في غرب العربية، فإذا كان لمثل هاتَين المملكتَين وجود هناك، لنُوجب أن تكون الحملة عليهما استمرارًا لحملة ما على بلاد العرب، مما لا نستشفُّه تلميحًا أو تصريحًا في تلك السجلات.

ولعلَّ أول ذِكر للعرب ورَد في سجلات شلمنصر الثالث، عندما شارك «جنديبو» العربي مُتحالفي «قرقرة» في تصديهم للآشوريِّين، مما فصَّلناه في الحديث عن معركة قرقرة. ويبدو أنَّ القبائل العربية المتجوِّلة بين بادية الشام وشمال العربية والمتحكِّمة بطرق التجارة البرية مع بلاد الشام، قد هبَّت في ذلك بزعامة جنديبو للدفاع عن مصالحها التي ضرَبها التوسُّع الآشوري، ووجدت في حِلف قرقرة سبيلها إلى ذلك. ومنذ ذلك الوقت تتواتَر أخبار العرب وبلادهم في السجلات الآشورية؛ ففي نصٍّ لتغلات فلاصر الثالث أوردناه سابقًا هناك ذِكر لَمِلكة عربية اسمها «زبيبة» قدَّمت لهم الجزية. وقد تكون هذه

الملكة هي الأصل التاريخي للروايات العربية المُتواتِرة عن ملكة اسمها «الزبَّاء».[٥٧] وفي نصٍّ آخر لتغلات فلاصر الثالث يقوم بالالتفات إلى بلاد العرب بعد انتهاء حملة له في بلاد الشام أخضع فيها عددًا من الممالك:

[أما «شمسة» ملكة العرب فقد قتلتُ من أتباعها ١١٠٠ رجلٍ وأخذتُ ٣٠٠٠٠ جملٍ، و٢٠٠٠٠ رأس ماشية و٥٠٠٠ صندوق من التوابل و١١طاسة مُكرسة لآلهتها. أما هي فقد هربت بحياتها إلى مدينة «بازو» في إقليم العطش كحمار وحشٍ برِّي. وأهل معسكرها لما أضناهم الجوع قد ... ولكنَّها عادت بعد أن أدركت مدى جبروتي وقوتي، وجلبت إليَّ جمالًا ذكورًا وإناثًا ... أما أهل «مسعاي» و«تيما» Tema و«حطيا» Hattia، وأهل «إيدي بعل» Idiba’leans، و«السبئيون» وأهل «حيابا» Haipaa و«بادانا» Badana من أقاليم الغرب التي لم يَسمع بها أو يعرف بلادها أحد. فقد سمعوا أخبار سُلطتي وخضعوا لحُكمي، وجلبوا إليَّ جميعًا الجزية ...][٥٨]

من هذا النَّصِّ ومِن أشباهه نستطيع التوكيد على أن الحملات الآشورية كانت موجهةً ضد القبائل العربية المقيمة أو المتجولة بين بادية الشام والمناطق الشمالية من شبه الجزيرة العربية، وبين ضفاف الفرات الأدنى وصحراء النقب، وأنها لم تتوغَّل كثيرًا إلى أعماق بلاد العرب.

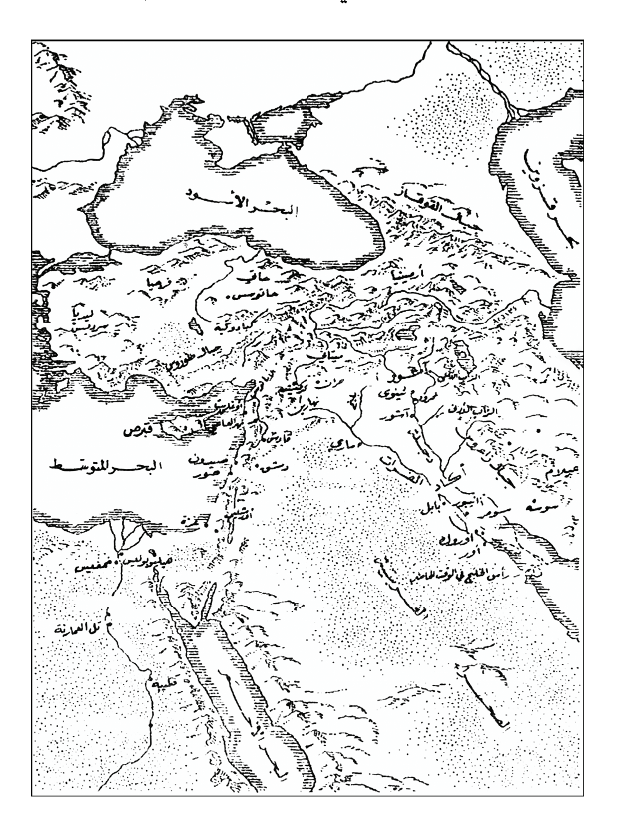
وعلى سبيل المثال نقرأ في سجلِّ حملة نبوخذ نَصَّر على بلاد العرب ما يلي: [في السنة السادسة عشرة، قاد ملك أكاد جيشه إلى بلاد حاتي، ومِن هناك وجَّه قواته فأغارت على الصحراء وأخذ جزيةً كبيرة من بلاد العرب، وأخذ قُطعانهم وتماثيل آلهتهم بأعداد كبيرة وفي شهر آذار عاد الملك إلى بلاده].[٥٩]

لقد حمل الآشوريُّون على بلاد العرب، وأخبار حملاتهم تلك مُتوفِّرة لدينا في حوليات الملوك وفي رسوم نابضة تُمثِّل الأسرى من العرب وقد سبقُوا إلى آشور مع جمالهم بثيابِهم المميزة. أما القول بأنَّ الحوليات الآشورية إنما تُؤرِّخ لحملات في غرب شبه الجزيرة العربية، فباطل في رأينا بطلانًا مُطلقًا.

[٥٧] والروايات العربية لا تربط بين الزباء ومملكة تدمر في بلاد الشام.

[٥٨] Leo Oppenheim, op. cit., p. 284.

[٥٩] Ibid., p. 564.



خارطة الشرق الأدني.

وأخيرًا، هناك مشكلة تاريخية كبيرة تَنتظِر من كمال الصليبي ومن يُبشر بنظريته، حلًّا لها، وهي ليسَت أبدًا بالمشكلة السَّهلة، فإذا كانت السجلات التاريخية المصرية والآشورية كلها معنيَّة بغرب العربية وأنها فُهمت خطأً على أنها معنية ببلاد الشام، فأين إذن السجلات المتعلِّقة ببلاد الشام التي شكَّلت في الألف الثاني قبل الميلاد مسرح تنازُع بين مصر والحيثيِّين، وكانت خلال الألف الأول قبل الميلاد مَعبرًا لبابل وآشور نحو مصر والجزيرة العربية؟ ألم تَقُم مملكة آشور، التي بنَت إمبراطورية واسعة مُترامية الأرجاء مؤسَّسة على الحرب، بأيَّة حملة على بلاد الشام؟ إذا كان الجواب نعم، فأين سجلات تلك الحملات الآشورية؟ لقد قام ملوك آشور بتسجيل أخبار حملاتهم بدرجة لا بأس

بها من الدقة والتفصيل، فكيف تسنَّى لهم أن يُغفِلوا تدوين أخبار حملاتهم في بلاد الشام وهي المجال الحيوي الحقيقي لبلاد الرافِدين؟ لقد كان على كل حملة آشورية أن تجتاز بلاد الشام وتَصطدِم بالممالك الآرامية والكنعانية القائمة آنذاك قبل وصولها إلى غرب العربية، فلماذا اختار الآشوريُّون تسجيل أخبار حملاتهم في مراحلها الأخيرة عند غرب العربية؟ كيف تمَّ إخضاع مصر منذ عهد أسرحادون دون المرور بسوريا؟ ومصر الفرعونية، هل كانت تتنازع مع حثيي الأناضول على مناطق عسير وتترك لهم الحبل على غاربه في المقاطَعات السورية، قبل ظهور القوة الآشورية على المسرح الدولي؟ وأخيرًا كيف اتَّفقَت السجلات المصرية والآشورية والبابلية على الصمت المطبق عن علاقات مصر وبلاد الرافدين مع الحضارة الثالثة الواقعة بينهما: سورية؟

الباب الثاني

البيِّنة الآثارية

أركيولوجية فلسطين

مثلما يعتقد الصليبي أن سجلات مصر والعراق القديمة قد قُرئت على ضوء النصوص التوراتية، وأخذت تلميحاتها الطبوغرافية على أنها تتعلَّق بفلسطين وبقية بلاد الشام، كذلك يَعتقِد أن نتائج التنقيبات في فلسطين خلال مائة السنة الأخيرة، قد أجبرت على التلاؤم مع المفهوم التقليدي الذي يأخُذ فلسطين، كأمر مُسلَّم به، على أنها بؤرة الحدث التوراتي. ولعله من المُستحسَن هنا أن نورد المقطَع الذي بسط فيه السيد كمال الصليبي فرضيته تلك مستخدمين كلماته ذاتها:

[إنَّ استعراض الدراسات والأبحاث الضخمة التي أنتجَها علماء الآثار والباحثون التوراتيُّون خلال السنوات المائة الأخيرة، يلفت النظر إلى أمر في غاية الغرابة. ففي حين أن تاريخية عدد من الروايات التوراتية بقيَت عُرضة للنقاش الحاد، فإنَّ جغرافيا هذه الروايات استمرَّت معتبرة من المسلَّمات. والحقيقة الساطعة هي أنَّ الأراضي الشمالية للشرق الأدنى قد مُسحَت وحُفرت من قِبل أجيال مُتوالية من علماء الآثار، دون أن يعثر في أي مكان على أثر واحد يُمكنه أن يُصنَّف جديًّا على أنه يتعلَّق مُباشِرة بالتاريخ التوراتي. وأكثر من ذلك فإنَّ التوراة العبرية تذكر الآلاف من أسماء الأمكنة، وليس بين هذه الأسماء

أكثر من قلَّة قليلة تماثلت لغويًّا مع أسماء أمكنة في فلسطين ... وحتَّى في الحالات القليلة التي تَحمِل فيها مواقع فلسطينية أسماء توراتية، فإنَّ الإحداثيات المُعطاة في النصوص التوراتية للأماكن التي تَحمِل هذه الأسماء، في إطار الموقع أو المسافة المُطلَقة أو النِّسبية، لا تَنطبِق على المواقع الفلسطيينية] (ص٥٠–٥١).

هذا المقطع المُقتضَب هو المقدمة النظرية الوحيدة التي بسط من خلالها كمال الصليبي المشكلة الأركيولوجية للتوراة. وهو رغم الطروحات الخطيرة التي يتقدَّم بها، والتي تُقوِّض عمل أجيال من علماء الآثار خلال أكثر من قرن، فإنه لا يَعمد إلى تدعيم فرضيتِه وفق منهج علم الآثار، إلا مِن خلال مثالَين بسيطَين، الأول يتعلَّق بمدينة «بئر السبع» والثاني بمدينة «جرار»، تاركًا بقيَّة الركام الأركيويوجي إلى منهجه في مقارنة أسماء الأماكن، وهو أبعد المناهج قُدرة على التعامل مع أبسط المسائل الآثارية.

هناك أمرٌ يجب الإشارة إليه قبل استعراض بيناتنا الآثارية، وهو أمر نتَّفق فيه مع كمال الصليبي؛ ذلك أنَّ مُعظم المواقع الأثرية التي كشفت عنها التنقيبات في فلسطين، وجرَت مُطابقتُها مع مَواقِع معروفة سواء في النَّص التَّوراتي أم في سجلات الشرق القديم، لم يَعثُر بين أنقاضِها المدفونة إلا على قلةٍ قليلة من النصوص، وبالتالي لم يكن أمام المُنقِّبين في مُعظَم الأحيان ما يُثبت هوية المدينة سوى إحداثياتها وحصيلتها الأثرية. وقد استنفذ العلماء في هذا المجال كل الإمكانيات المتاحة لعلم الآثار بطرائقه ومناهجه وتقنياته الحديثة التي وصلَت درجة عالية خلال الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية. لذلك فإنَّ قول الصليبي بأنه في الحالات القليلة التي تماثَلَت فيها أسماء المواقع التوراتية المُكتشَفة مع أسماء مواقع توراتية فقد اختلفت إحداثياتها مع الإحداثيات المعطاة في التوراة، هو قول مخالف للحقيقة ويحمل الكثير من التجنِّي على علم بكامله، كما أنه قول غير مُدعَّم بالأمثلة والإثباتات، فالصليبي لم يأتِ بحالة واحدة تَحمِل تناقُضًا بين إحداثيات الموقع المُكتشَف وإحداثياته التوراتية.

أما قوله بأنَّ الأراضي الشمالية للشرق الأدنى (ويقصد بلاد الشام) قد مُسحَت من قِبَل أجيال مُتوالية من علماء الآثار، دون العثور على أثر واحد يتعلَّق مباشرة بالتاريخ التوراتي، ففيه الكثير من المبالغة والتغاضي عن حقائق تاريخية وآثارية ثابتة. وإلا كيف يُفسِّر الصليبي العثور على نصب تذكاري محفوظ الآن في متحف حلب تركه «بن حدد الأول» وفيه يقول: [هذا النصب أقامه بن حدد بن ط... ملك آرام لسيده ملقارت الذي

نذَر له فاستجاب]،[1] عِلمًا أنَّ بن حدد هذا معروف في أسفار التوراة بحروبه الكثيرة مع مملكة إسرائيل. نقرأ على سبيل المثال ما ورَد في سِفر الملوك الأول ١٥: ١٨ [وأخذ آسا جميع الفضَّة والذهب الباقية في خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك ودفعها ليد عبيدِه وأرسَلَهم آسا إلى بنهدد بن طبريمون بن حزيون ملك آرام الساكن في دمشق قائلًا ... تعالَ انقضْ عهدك مع بعشا ملك إسرائيل فيصعد عني. فسمع بنهدد للملك آسا وأرسل رؤساء الجيوش التي له على مدن إسرائيل]. وكيف يُفسِّر نقش زاكير ملك حماة الذي ذكر فيه «بن حدد الثالث» ملك دمشق وأباه حزائيل وكلاهما معروف في التوراة كملكَين لآرام دمشق مُعاصرين ليهوآحاز وابنه بهوآش من ملوك السامرة؟

نحن مع كمال الصليبي في نقدِ علم الآثار التوراتي، ولنا الكثير من التحفُّظات على العديد من التفسيرات التي بناها التوراتيون على الحقائق الأركيولوجية، إلا أنَّ ذلك لا يَعني أن نرفض نتائج علم الآثار في فلسطين جملةً وتفصيلًا، فالحقائق العِلمية شيء والتفسيرات غير العِلمية شيء آخر، يُضاف إلى ذلك أن من عملوا في حقل الآثار في فلسطين ليسُوا جميعًا من المدرسة التوراتية؛ فهناك الكثيرون ممَّن قدموا مساهمات جُلى في حقل أركيووجيا فلسطين بعيدًا عن التوجُّهات التوراتية المسبقة.

انطلاقًا من هذا الموقع الحذر، الذي يعرف صاحبه كيف يبحث عن المعلومة الموضوعية الصحيحة وأين، سنَعمل فيما يلي على نقد النتائج القليلة التي توصَّل إليها الصليبي في مجال علم الآثار، ونزيد على ذلك بتقديم بيناتنا الآثارية التي تظهر الجانب الآخر للمسألة.

[1] Franz Rosenthal, Canaanite and Aramaic Inscription, (in: James Pritchard's Ancient Near Eastern Texts, op. cit.), p. 655.

انظر أيضًا: علي أبو عاسف، الآراميون، المرجع السابق، ص١٢٣.

الفصل الأول

بئر السبع والبحث عن جرار

لقد اختار كمال الصليبي كما أَلَمحنا سابقًا، لدعم وجهة نظره في علم آثار فلسطين موقعين ثانويين جدًّا، سواء من منظور الحدث التوراتي، أم من منظور علم الآثار، الأول «بئر السبع» والثاني «جرار».

فيما يتعلق ببئر السبع يقول الصليبي: [... وفي حالة بارزة هي حالة بئر السبع الفلسطينية، فإنَّ بلدة يظهر اسمُها ببروز في الروايات الآبائية لسِفر التكوين، وبالتالي يُفترض أن تعود أصولها إلى أَواخِر العصر البرونزي على الأقل، لم يُعثَر فيها إلا على مواد أثرية تعود بتاريخها إلى المرحلة الرومانية على أبعد حدٍّ. وقد اضطرَّ علماء الآثار في السنين الأخيرة إلى التنقيب على بُعدِ خمسة كيلومترات تقريبًا عن بئر السبع للعثور على مواد أثرية يعود عهدها إلى زمن التوراة، دون أن يَعثُروا على أيِّ برهان قاطع بأن لهذه المواد أقل علاقة بالتوراة أو بتاريخ بني إسرائيل] (ص٥١).

وفي الحقيقة، فإنَّ موقع بئر السبع لم يكن أبدًا من المواقع التوراتية البارزة، ولم يَرتبِط بأيِّ حدث توراتي مُهم. ففي عصر الآباء، لم يكن سوى بئر حفرها إبراهيم، ثم جدَّد إسحاق حفرها بعد أن رُدمت (راجع سِفر التكوين ٢١: ١٤–٣١؛ ٢٦: ١٨–٣٥). وقد مرَّ بالموقع بعد ذلك يعقوب في طريقه إلى مصر (التكوين ٤٦: ١–٥) وفي سِفر يشوع الذي يصف الاستيلاء على أرض كنعان، يأتي ذِكر الموقع عرضًا في جملة ما أعطي لبسط يهوذا (يشوع ١٥: ٢٨) وفي سِفر القضاة وصموئيل الأول والثاني، يذكر الموقع باعتباره الحد الجنوبي لأرض الإسرائيليين، دون أي تفصيلات أخرى حوله (القضاة ٢٠: ١؛ صموئيل الأول ٣: ٣٠؛ صموئيل الثاني ٣: ١٠).

وكذلك الأمر في بقية الأسفار التي تذكر الموقع دون أن تَربطه بأي حدث ذي قيمة (راجع الملوك الأول ٤: ٣٥ و١٩: ٣؛ الملوك الثاني ١٢: ١٠ و٢٣: ٨؛ أخبار الأيام الأول

٤: ٢٨ و٢١: ٢؛ أخبار الأيام الثاني ١٩: ٤، و٢٤: ١؛ نحميا ١١: ٢٧ و٣٠). فالمكان لم يكن أكثر من تجمُّع سكني بسيط حول بئر قديمة تقف عنده القوافل في طريقها إلى مصر. ثم تحوَّلت إلى مدينة صغيرة مع تكون المملكة الموحَّدة إبَّان القرن العاشر. أما عن قول الصليبي [بأنَّ المُنقِّبين لم يَعثُروا في الموقع إلا على موادَّ أثرية تعود بتاريخها إلى المرحلة الرُّومانية على أبعد حدٍّ، ممَّا اضطرَّهم إلى التنقيب على بُعد خمسة كيلومترات من المَوقِع للعثور على موادَّ ترجع في تاريخها إلى زمن التوراة]. فإنَّ ما يَعرفه أي مطَّلع على علم الآثار هو أن المواقع القديمة كثيرًا ما تغيَّر مكانها بمرور الأيام نتيجة هجرانها وإعادة بنائها بعد فترة انقِطاعٍ قد تدُوم بضعة عقود أو بضعة قرون، أو لنتيجة عوامل أخرى مُتعدِّدة. ومَوقع بئر السبع في صحراء النقب ليس الوحيد الذي غيَّر موضعَه على مرِّ الأزمان. فموقع «جرابلس» اليوم، الذي كان يُعرَف باسم «جيرابيس» في الفترات السابقة[1] قد انزلق مسافةً لا تقلُّ عن خمسة كيلومترات عن الموقع الأصلي لمدينة «كركميش» القديمة على الفرات في أقصى الشمال السوري. و«تل بلاطة» الذي عثر عليه تحت مدينة «شكيم» الكنعانية في فلسطين، يقع على بعد ثلاثة كيلومترات من مدينة «نابلس» الحديثة. ومدينة «أورشليم» الكنعانية اليبوسية البالغة القدم، لم يَعثُر عليها المُنقِّبون إلا بعد أن تحوَّلوا عن الموقع الحديث لمدينة القدس، وبدءوا بالتنقيب خارج الأسوار نحو المنطقة الجنوبية؛ فأيُّ ضير في أن يَبعد موقع بئر السبع القديمة مسافة خمسة كيلومترات عن مَوقع بئر السبع الرومانية وعن موقعها القائم اليوم؟

وأما عن قوله بأنَّ التنقيب على بُعد خمسة كيلومترات عن بئر السبع قد أظهر موادَّ أثرية يعود عهدها إلى زمن التوراة، دون أن يكون لهذه المواد أقل علاقة بالتوراة أو بتاريخ بني إسرائيل. فإنَّنا نريد أن نُوضِّح أمرًا على غاية من الأهمية فيما يتعلَّق بتاريخ وآثار منطقة فلسطين؛ ذلك أنه سواءٌ في بئر السبع أم في غيرها من المواقع القديمة في فلسطين، لا يُمكن التمييز بين ما هو إسرائيلي وما هو كنعاني إلا اعتمادًا على تأريخ المادة المُكتشَفة؛ ذلك أنَّ الإسرائيليِّين القدماء خلال فترة حُكمِهم السياسي القصير في السامِرة وأورشليم لم يتركوا بصمةً مميَّزة على أيِّ منحًى من مَناحي حضارة كنعان التي تَضرِب في جذورها إلى مطالع التاريخ، بل إنهم تشرَّبوا تلك الحضارة وعاشوا كفئة كنعانية طوَّرت

[1] عرفت جرابلس في الفترتَين الهلنستية والرومانية باسم «أوروبس» Europos ودعتْها النصوص السريانية «أجروبس»، ثم نجدُها في بعض النصوص العربية باسم «جيرابيس».

تدريجيًّا مذهبًا دينيًّا خاصًّا انطلاقًا من الديانة الكنعانية ذاتها، فتبنَّوا الإله «إيل» رئيس مجمع آلهة كنعان وقرَنُوه بالإله «يهوه» فرفعوه إلهًا واحدًا لهم، ودفعوا بالإله «بعل» إله الخصب الكنعاني القديم إلى مرتبة الشياطين، فصار «إبليس» الديانة اليهودية التي لم تأخُذ ملامحها الثابتة في التوضُّح إلا بعد تحرير أسفار التوراة بدءًا من القرن السادس قبل الميلاد. ومنذ بدء هيكل الربِّ في أورشليم كانت الإلهة «عشيرة» زوجة «إيل» تُعبد في الهيكل وكان تمثالها المصنوع من جذع شجرة تُدعى «السارية» منصوبًا في قدس أقداس المعبد.[٢]

وفي الواقع، فإنَّ المادة الأثرية التي عُثر عليها في بئر السبع تتطابَق مع أخبارها التوراتية فقبل القرن العاشر قبل الميلاد عندما بدأت المملكة الموحدة بالتشكُّل، كان الموقع عبارة عن تجمُّع سكني بسيط لم يأخُذ شكل المدينة المسورة إلا بدءًا من القرن العاشر قبل الميلاد. وقد أظهرت الأجزاء التي تمَّ كشفها من السور والطرقات والبيوت، تماثلًا في تخطيط المدينة وفي طريقة بناء البيوت وتوضعها، مع مواقع فلسطينية أخرى تعود إلى الفترة نفسها مثل موقع «تل بيت مرسيم» و«مجدو» و«حاصور» وغيرها.[٣]

الموقع الثانوي الآخر الذي اعتمَدَت عليه البينة الأركيولوجية لكمال الصليبي هو موقع «جرار»، الذي خصص له فصلًا كاملًا بعنوان «البحث عن جرار» يقول في بدايته: [قبل بداية البُرهان على مدة الدقة في مطابقة جغرافيا التوراة العِبرية لجُغرافية غرب شبه الجزيرة العربية، لا بدَّ من إيراد الدليل على مدى الضعف في مطابقة تلك الجغرافيا لجغرافيا فلسطين. وهذا يتَّضح تمامًا من النظر في الطريقة التي عالج فيها علماء التَّوراة حتى الآن مسألة «جرار»، وهي بلدة توراتية يُفترض أنها ازدهرت في القِدَم في جوار غزة بساحل فلسطين، في موقع غير بعيد عن بئر السَّبع، والتي انجلَت عن عدم وجود أيِّ

[٢] وأغلب الظن أن مَن قدَّم تمثال عشيرة إلى المعبد كان الملك رحبعام بن سليمان حوالي عام ٩٣٨ق.م.؛ لأنَّنا نعرف من أخبار «آسا» الذي قام بإصلاحه الديني بعد ذلك بحوالي ٣٥ سنة أن الأصنام كانت قائمة في الهيكل وعلى رأسِها تمثال عشيرة (الملوك الأول ١٥: ٩–١٨) ويبدو أن تمثال عشيرة قد أُعيد مع الأصنام في عهد «بو آش» (انظر أخبار الأيام الأول ٢٤: ١٥–١٨) ورغم أنها قد أخرجت بعد ذلك أكثر مِن مرَّة، إلا أنها كانت قائمةً في آخر أيام مملكة يهوذا عندما كانت على أبواب الاجتياح البابلي (الملوك الثاني ٢٣: ٤–٦).

[٣] Kathleen Kenyon, Archaeology in Holy Land, Methuen, London, 1985, pp. 279–80, 279.

مكان هناك يَحمل هذا الاسم] (ص٨٥). بعد ذلك يُتابع الصليبي إظهار تخبُّط العلماء التوراتيِّين في مُحاولة العثور على جرار، ليَجدها لهم أخيرًا في أحد مواقع أربعة في مُرتفعات عسير بين «آل زيدان» (صيدون) و«آل عزة» (غزة). وهي «غُرار» و«الجرار» و«غرار» و«القرارة» (انظر خريطة الصليبي رقم ٦).

وفي الحقيقة لم تكن جرار موقعًا مُهمًّا في أخبار التوراة ولم يَرد لها ذِكر في سجلات مصر ووادي الرافِدين. وقد أوردَت أسفار التوراة أخبارًا قليلة عنها. ففي سِفر التكوين ورَدَت باعتبارها الحد الجنوبي لأرض كنعان قُرب مدينة غزة، كما أتى إليها كلٌّ من إبراهيم وإسحاق بسبب الجوع. وفي سِفر أخبار الأيام الثاني، ساق إليها الملك «آسا» الكوشيِّين المُتقهقرين بعد إخفاق حملتهم على يهوذا فنهَبَها جنوده. فأين هذا الموقع الثانوي جدًّا من مواقع مثل «مجدو» و«حاصور» و«لخيش» و«ترصة» و«السامرة» و«شكيم» و«بيت شان» وغيرها من المواقع الفلسطينية المهمَّة التي تمَّ اكتشافها والتعرُّف بدقَّة على هويتِها؟ ولماذا التمسُّك بمسألة جرار التي لم تكن همًّا من هموم علماء الآثار، ولا نَعثُر لها على ذِكر في أمهات الأبحاث التي تَستعرِض نتائج التنقيب في فلسطين؟ علمًا بأنَّ كمال الصليبي لم يَستشهِد في بحثه عن جرار أو غيرها بأيِّ عَلَمٍ مرموق في مجال علم الآثار، بل اكتفى بالإشارات الغامضة إلى العلماء التوراتيِّين الذين نعرف، ويعرف، كم أساءوا إلى مسألة آثار فلسطين وجعلوا من علم الأركيولوجيا استمرارًا لعلم اللاهوت، وكان جلُّ اقتباساته في المسائل الأثرية مأخوذًا عن «سايمنز» و«كريلنغ» وكلاهما لم يضرب معولًا واحدًا في أرض فلسطين.

ومن ناحية أخرى، فإنَّ عدم العثور على موقع قديم حدَّد الآثاريون والمؤرخون مكانه التقريبي اعتمادًا على النصوص القديمة، لا يعني سوى مسألةٍ مؤجَّلة. فمدينة «إيبلا» الوارد ذِكرها في أقدم سجلات أكاد، لم تُكتشَف إلا في سبعينيات القرن العشرين ومدينة «شُباط إنليل» عاصمة الملك الآشوري «شمسي حدد» التي تكرَّر ذكرها في سجلات «ماري» وغيرها، لم يُمكن التأكُّد من هويتها، إلا في عام ١٩٨٧ في «تل ليلان» بالجزيرة السورية. ومدينة «أكاد» عاصمة صارغون الأول مؤسس الدولة الأكادية، لم يعثر عليها حتى الآن، ومثلها في ذلك مدينة «أشوكان» عاصمة مملكة «ميتاني». فأيُّ ضير في ألا يتمَّ العثور حتى الآن على موقع ضئيل اسمه «جرار»، وأيُّ دليل يقدمه ذلك لمسألة الجغرافيا التوراتية؟

والحقيقة إنَّ مسألة جرار لم تعالَج من قبل كمال الصليبي باعتبارها مسألة أركيولوجية بالدرجة الأولى، وكذلك فيما يتعلَّق ببئر السبع، بل لقد أخذ من الإشكالات

الأركيولوجية لهذين الموقعَين مدخلًا للولوج إلى مسألة أخطر وهي مسألة «أرض كنعان» التوراتية، التي نقلها بكاملها إلى بلاد عسير وجاورها هناك مع إسرائيل. وبما أن علم الآثار يعتبر اليوم من أهم العلوم التي تمدُّ علم التاريخ بمادته، فإننا سنَعمِد فيما تبقَّى مِن هذا الباب إلى بسط المسألة الأركيويوجية لفلسطين بالقَدر الذي يسمح به حيِّز هذا الكتاب ومقصده، مقدمين نبذة سريعة عن خلاصة التنقيبات الأثرية في عدد مِن المواقع المهمَّة، والنتائج المتَّفق عليها بين علماء الآثار، ومُقاطعة هذه النتائج مع السجلات القديمة بما فيها كتاب التوراة. وسيكون اعتمادنا في هذا الموضوع بشكلٍ رئيسي على عالِمة الآثار البريطانية «كاثلين كينيون» التي نقبت في عدد من المواقع الفلسطينية مِن أهمِّها موقع «أريحا» وموقع «أورشليم»، والتي خلَقت أعمالُها التنقيبية ومؤلفاتها العديدة تيارًا موضوعيًّا مقابلًا لتيار المدرسة التوراتية.

إضافة إلى التقارير المُتفرِّقة للسيدة كينيون فقد اعتمدَت مادتنا هنا على مؤلَّفاتها المنشورة التالية:

(1) Archaeology in the Holy Land, London, 1985.

(2) Digging up Jerusalem, Ernest Benn, London, 1974.

(3) Royal Cities of the Old Testament, Barrie and Jenkins, London, 1971.

(4) The Bible and Recent Archaeology, Colonnade Books, London, 1978.

الفصل الثاني

أورشليم حاضرة كنعان

ورد اسم أورشليم لأول مرة في نصوص مصرية ترجع إلى القرن التاسع عشر قبل الميلاد، لا سيما فيما يُدعى «بنصوص اللعنات»، وهي نُصوص منقوشة على جرار فخارية تَذكُر أسماء البلاد والحكام من أعداء الفراعنة. وكانت هذه الجِرار تُحطَّم في طقس سحري لجلب الأذى على المذكورة أسماؤهم عليها. نقرأ في أحد تلك النصوص: [١]

(١) إيروم، حاكم أي-عناق وجميع بطانته.
(٢) إيابوم، حاكم شوتو، وجميع بطانته.
(٣) خالوكيم، حاكم عسقانو، وجميع بطانته.
(٤) يقرب-آمو، حاكم أورشليم، وجميع بطانته.
(٥) أبيش-حدد، حاكم شكيم، وجميع بطانته.
(٦) يابانو، حاكم أكشف، وجميع بطانته.
(٧) جتجي، حاكم حاصور، وجميع بطانته.
(٨) ...، حاكم عشتاروت، وجميع بطانته.
(٩) آخو كالكول، حاكم أوبي، وجميع بطانته.
(١٠) ...، حاكم صور، وجميع بطانته.
(١١) توري آمور، حاكم عكا، وجميع بطانته.
(١٢) ياتيب إيل، حاكم بيت شميش، وجميع بطانته.

---

١ John A. Wilson, Egyptian Rituals (in: James Pritchard's Ancient Near Eastern Texts, op. cit.) p. 228

(١٣) قبيلة عرقاتا.
(١٤) قبيلة جبيل.

إلى جانب أورشليم، نتعرَّف في هذا النص على عدد من المدن الكنعانية القديمة في فلسطين التي ورَد ذكرُها في سجلات الشرق القديم، وفي التوراة لاحقًا، مثل شكيم، وأكشف وحاصور وعكا وبيت شميش. وعلى عدد من المدن الكنعانية الساحية مثل صور وعرقاتا وجبيل، وعلى مُقاطَعات داخلية مثل أوبي. أما الإشارة إلى قبيلة عرقاتا وقبيلة جبيل، فهي إشارة إلى القبائل العمورية التي استوطَنَت أطراف المدن الكبرى في مطلع الألف الثاني بعد أن خربتها. وهذا النص القديم وأمثاله يُثبِت أنَّ اسم مدينة أورشليم قديم قِدم وجودها، ولا علاقة للإسرائيليِّين النازحين بتسميتِها وتسمية غيرها من مدن كنعان بأسماء مواقع عرفوها في غرب العربية كما يرى كمال الصليبي. كما ورَد ذِكر أورشليم بعد ذلك بخمسمائة سنة في رسائل تل العمارنة، ممَّا ذكَرناه سابقًا. بقي اسمها قائمًا إلى ما بعد دمارها على يد الرومان عام ٧٠ ميلادية، دون أن يَطغى عليه اسم إيليا كابيتولينا التي بناها الرومان على أنقاضها فيما بعدُ، أيام الإمبراطور «هدريان» عام ١٣٥ ميلادية.[٢]

فيما عدا اسم المدينة وموقعها في فلسطين، لا تُسعفنا نصوص الشرق القديم بكثير من المعلومات عن أورشليم ولا عن الكنعانيين اليبوسيين من سكانها ممَّن كانوا يُقيمون فيها ولكن علم الآثار عنده ما يقوله عنها.

عندما بدأت التنقيبات الأثرية في أورشليم، توجه المُنقِّبون إلى مدينة القدس بموقعها الحالي يَبحثون عن حدود أورشليم القديمة. ثمَّ تبين بعد ذلك أن المدينة اليبوسية تقع بكاملها إلى الجنوب من المدينة الحالية على سلسلة تلال القدس الشرقية. وقد تطابقَت جغرافية وطبوغرافية المدينة المُكتشَفة مع وصوفاتها الواردة في التوراة. فالمدينة اليبوسية قد بُنيت على الجزء الجنوبي من السلسلة الشرقية لتلال القدس وبُني الهيكل على الجزء الأوسط منها، أما الجزء الشمالي فلم يكن ضمن المدينة القديمة، وهو يقع حاليًّا ضمن مدينة القدس الحديثة. وتُحيط التلال بأورشليم من ثلاثة جوانب (مزامير ١٢٥: ٢) فإلى الشمال الشَّرقي منها جبب «سكوبس» (ويُدعى أيضًا جبل المشهد وجبل المشارف). وإلى الشرق «جبل الزيتون» وإلى الجنوب «جبل المكبر». أما عن الوديان فإلى المشرق منها

[٢] والاسم «إيليا» مأخوذ من الاسم الأوسط للإمبراطور «هدريان» وهو: Publius Aelius Hadrianus.

وادي «قدرون» وهو يقع بين المدينة وجبل الزيتون، ويُسمَّى أيضًا وادي «يهوشافاط» (سِفر يوئيل ٣: ١٢) ويُدعى بالعربية «وادي الست مريم»، وإلى الغرب منها سلسلة التلال الشرقية والغربية هناك وادي «تيروبيون» ويُسمى بالعربية بالوادي، وإلى الغرب من سلسلة التلال الغربية هناك وادي «هنوم» ويُسمَّى بالعربية «وادي الربابة».

أثبتَت التنقيبات الأثرية أن المدينة ترجع بعهدها إلى عصر البرونز المبكِّر منذ مطلع الألف الثالث قبل الميلاد. وهي فترة نُشوء دويلات المدن في فلسطين، ولكنَّها كانت في ذلك الحين صغيرة ودون أسوار. ومع مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، تظهر في الموقع دلالات انقطاع سكني وحضاري، حصل على الأغلب نتيجة لاجتياح القبائل العمورية منطقة الهلال الخصيب، وقضائها على معظم المراكز الحضرية فيها. ثم انتعشت أورشليم مجددًا في مطلع عصر البرونز الوسيط، وظهرت المدينة اليبوسية التي تمَّ الكشف عن سورها الذي يرجع بتاريخه إلى حوالي عام ١٨٠٠ق.م.،[٣] وهي الفترة التي ظهَر فيها اسم أورشليم لأول مرة في النصوص المصرية.

وقد استطاعَت التنقيبات الأثرية (حملة السيدة كاثلين كينيون بين عامي ١٩٦١–١٩٦٧م) رسم حدود المدينة اليبوسية على السلسلة الشرقية لتلال القدس (انظر الخريطة رقم ٩). أما المدينة نفسها فلم يبقَ منها شيء يُذكر؛ وذلك بسبب استخدام حجارتها في بناء الطبقات السكنية التالية لها. ويبدو أنَّ مَوضِع السور الشرقي للمدينة كان محكومًا بنبع جيجون في وادي قدرون، الذي كان المصدر الأساسي لماء الشرب. فالسور يجب أن يكون قريبًا من النَّبع لحمايته أثناء الحصار، ولكن لا يهبط كثيرًا إلى الوادي كي لا يكشف المدينة والمُدافعين عنها. وكان الوصول إلى النَّبع عن طريق نفق حُفر تحت الأرض يمرُّ أسفل السور، تمَّ الكشف عنه خلال التنقيبات[٤] وهذا النَّفق ربما كان القناة المذكورة في الرواية التوراتية، والتي نفذت منها إلى داخل المدينة مجموعة اقتحام الملك داود (راجع سِفر صموئيل الثاني ٥: ٨؛ وأخبار الأيام الأول ١١: ٦–٧).

وفي عصر البرونز الأخير، وفيما بين القرنين الرابع عشر والثالث عشر، تمَّ تحديث المدينة الكنعانية باستِعمال تقنية إنشائية جديدة، حيث أُقيمت على المُنحدَر الشرقي للتلِّ مَصاطب مُتدرِّجة بُنيت من أحجار ضخمة، استُخدمت كمساحات مستقرَّة لبناء البيوت

[٣] Kathleen Kenyon, Digging up Jerusalem, Ernest Benn, London, 1974, pp. 76, 83.

[٤] Ibid., pp. 84, 93.

الجديدة، فتم بذلك الإفادة من المنحدر بطريقة مُجدية، وتعمير بيوت كبيرة خلف البيوت الوضيعة المُبعثَرة دون نظامٍ. وهذه التقنية الهندسية كانت بحاجة دائمة إلى الصيانة وإلا انهارت مع الزمن، ولذلك لم يألُ كنعانيو أورشليم جهدًا في إصلاحها، وآثار تلك الإصلاحات بادية في تلك البِنية الجبارة، وكذلك آثار الانهيارات المتلاحقة، غير أن البيوت التي شيدت فوق تلك المصاطب قد زالت تمامًا. ولم يَعثُر المُنقِّبون إلا على أنقاض بيتٍ واحد يعود بتاريخه إلى القرن السابع قبل الميلاد.[٥]

وفي الحقيقة، فإنَّ اكتشاف هذه التقنية الإنشائية في أورشليم، قد ساعَدَ على فهم كلمة ورَدَت في التوراة واختلف الدارسون والمترجمون في فهمها، وهي كلمة «ملو» العِبرية التي تعني الملء أو التكميل. فبعد أن سيطر الملك داود على أورشليم، كان من أعماله الأولى إصلاح المدينة ابتداءً من «الملو» إلى ما حولها (أخبار الأيام الأول ١١: ٨). ومن بين أعمال الملك سليمان الإنشائية بناؤه الملو وسور أورشليم (الملوك الأول ٩: ١٥ و١١: ٢٧)، وكذلك فعَل حزقيا عندما كان يُهيئ المدينة للحصار الآشوري (أخبار الأيام الثاني ٣٢: ٥) وقد اختلفت ترجمات التَّوراة إلى العربية في أمر كلمة الملو، فبينَما ترك الآباء اليسوعيُّون الكلمة على حالها فقالوا «ملو»، قامت ترجمات أخرى باستعمال كلمة «القلعة» لاعتقادِهم أنَّ المكان كان حصينًا كقلعة، كما ظنَّ البعض أن الملو هو ساحة الهيكل، والبعض الآخر أنه عبارة عن الأحجار التي رُدمت لملء الفراغ بين المدينة اليبوسية على التل الجنوبي والهيكل على التلِّ الأوسط وإقامة البيوت هناك. أما الآن فمن الواضح أنَّ الملو هو تلك المصاطب الهائلة التي بَناها الكنعانيُّون على المُنحدَر الشرقي على هيئة سلسلة مُتتابعة من امتلاءات الحجارة الضخمة تتدرَّج من أسفل السور صعودًا نحو ذروة التل، وأن في تعبير «إصلاح الملو» أو «بناء الملو» الوارد في التوراة إشارةً إلى هذه البِنية التي ورثتْها المملكة الموحدة عن الكنعانيين فلقد كشفت التنقيبات[٦] عن آثار واضحة لمصاطب إضافية بُنيَت في القرن العاشر (فترة داود وسليمان)، وعن إصلاحات وإضافات فيما بين القرن العاشر والثامن.

وهنا نودُّ التوقُّف قليلًا لعرض ما جاء به الصليبي حول كلمة الملو؛ فرغم وضوح النَّص التَّوراتي الذي يجعل من الملو منشأة تقع داخل أورشليم، فإنَّ الصليبي في حديثه

---

[٥] Ibid., pp. 194–97, 98–103.

[٦] Ibid., p. 103.

عن أورشليم ومدينة داود، يجعل من الملو اسمًا لموقع في عسير هو «الهامل»[٧] في مُرتفَعات «رجال ألمع» قرب «قعوة الصيان» التي هي «حصن صهيون» المُختلِف عن أورشليم (ص١٨٠–١٨٢). وفي هذا مثال واضح عن مدى خسارة دارس التاريخ للإضاءات التي يُلقيها على موضوعه علم الآثار، عندما يُسقطه من حسابه.

كان الاستيلاء على أورشليم، وَفق الرِّواية التوراتية، البداية الحقيقية للمَملكة الموحَّدة إبَّان القرن العاشر قبل الميلاد؛ لأنَّها كانت تُشكِّل مع «جازر» و«عجلون» خطًّا كنعانيًّا يَفصل بين القبائل الشمالية والقبائل الجنوبية. ورغم ذِكر التَّوراة للعديد من الأعمال الإنشائية الدفاعية التي قام بها داود (راجع صموئيل الثاني ٥: ٩؛ وأخبار الأيام الثاني ٣٢: ٥)، إلا أنَّ أيًّا من هذه الأعمال لم تَقُم عليه البيِّنة الآثارية. ويبدو أن كل ما فعله داود كان إصلاحات جزئية على السور اليبوسي الذي بقيَ على حاله حتى القرن الثامن قبل الميلاد.[٨]

وعندما خلف الملك سليمان أباه داود، كانت الأمور قد استقرَّت نسبيًّا للمملكة الموحَّدة، داخليًّا وخارجيًّا، فالتفَت سليمان إلى أعمال التشييد والبناء ونشاطات الدبلوماسية؛ فإضافةً إلى إعادة بنائه ثلاث مدن كنعانية قديمة هي «حاصور» و«مَجِدو» و«جازر» فقد التفت إلى أورشليم فبنى هيكل الرب خارج أسوار المدينة الكنعانية، وبنى قصورًا لسكنِه وإدارته وزوجاته (الملوك الأول ٥–٦ وأخبار الأيام الثاني ٢–٤).

وبما أنَّ المدينة السليمانية قد زالت مع المدينة اليبوسية بسبب اقتلاع الحِجارة لاستعمالها في إعادة البناء، كما أسلفنا، فإنَّ علم الآثار لا يستطيع إعطاء فكرة عن أبنية سليمان وقصوره الفارهة التي أطنب كتاب التَّوراة في وَصفِها.[٩] أما معبد سليمان فقد بُني خارج المدينة اليبوسية على التلِّ الأوسط، ثم تمَّ وصل سور المعبد بسور المدينة، وبذلك اكتسبت أورشليم مساحة جديدة إلى الشمال في المنطقة الواقعة بين الهيكل والمدينة (انظر خريطتنا رقم ١٠). ويَعتقِد المُنقِّبون أنَّ أبنية سليمان قد أُقيمت على هذه المساحة الجديدة؛ وذلك لاستحالة إضافتها إلى المدينة الكنعانية بسبب ضِيقها وازدحامها. وقد

[٧] إنَّ قرن كلمة «الملو» هنا بمَوقع «الهامل» هو مثال واضح على مدى مرونة كمال الصليبي في مقابلة أسماء الأماكن.

[٨] Ibid., p. 100.

[٩] هذا إذا كانت هذه الأَبنية قد وجدت أصلًا.

استطاعت التنقيبات الأثرية تحديد خطِّ السور الإضافي، وأمكن إرجاع تاريخ بنائه إلى النصف الثاني من القرن العاشر قبل الميلاد؛ أي فترة حكم داود وسليمان.[١٠]

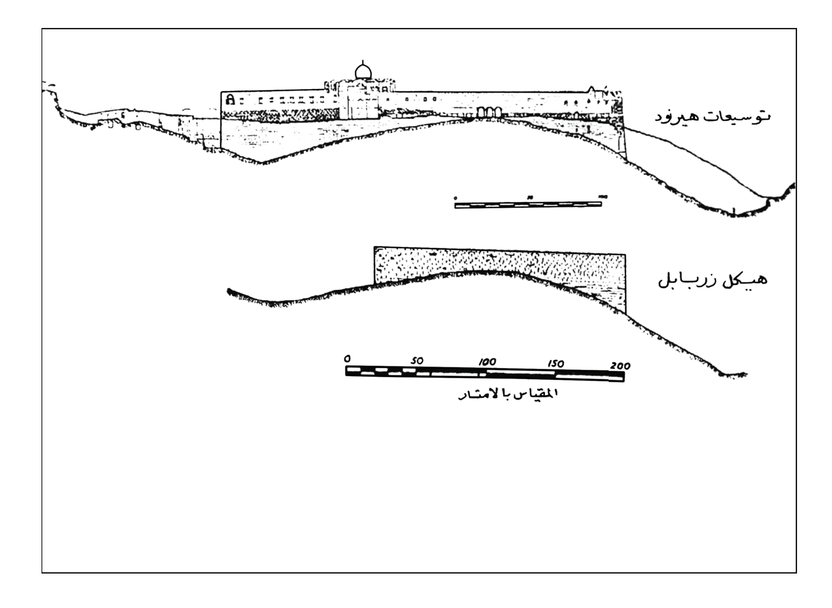
وتقول الرواية التوراتيَّة حول مَوقِع المعبد: إنَّ المعبد قد تمَّ اختياره وتحديده خارج المدينة مِن قِبَل الملك داود. فبعد أن أرسل الربُّ ملاكه بالأوبئة الفتَّاكة على إسرائيل فقتلتُ منهم سبعين ألفًا، ندم على إتيانه الشر، وأمر الملاك بالتوقُّف بعد أن وصَل تخوم مدينة أورشليم عند بيدر يَملكُه كنعاني اسمه «أرنان اليبوسي». ورفع داود عينَيه ورأى عند الأفق ملاك الربِّ واقفًا بين السماء والأرض وسيفه مسلول بيده وممدودة على أورشليم، فسقط هو والشيوخ على وجوهِهم، واسترحم داود الرب من أجل خلاص المدينة، فأمَره الرب أن يُقيم مذبحًا في المكان الذي وقف الملاك عنده. فصعد داود إلى أرنان اليبوسي وكان يدرس حنطة في بَيدره، واشترى منه المكان وأقام مذبحًا هناك وقال هذا هو بيت الرب الإله، وهذا هو مذبح المَحرقة. ثم بدأ بتحضير ما يلزم لبناء الهيكل على أن يُكمله مِن بعده ابن سليمان (راجع أخبار الأيام الأول ٢١: ٩–٣٠ و٢٢: ١–٥).

لم يَبقَ من هيكل سليمان ولا من أسواره شيء عقب التدمير البابلي للمدينة عام ٥٨٧ق.م. ولكن هناك قسم لا بأس مِن أساسات سور الهيكل الثاني الذي بناه «زربابل» الذي عيَّنه الفُرس واليًا على أورشليم، بعد سماحهم بعودة مَن يرغب إلى أورشليم، وانتهى من بنائه عام ٥١٥ق.م. وقد استمرَّ الهيكل الثاني قائمًا إلى عهد «هيرود الكبير» ملك منطقة «اليهودية» الذي حكم بمعونة الرومان في أواخر القرن الأول قبل الميلاد، بعد أن آلتْ سورية إليهم، ثم قام هيرود بتوسيع الهيكل والإضافة إليه حتى بلَغت مساحتُه ضعف المساحة الأصلية تقريبًا (انظر المخطط رقم ١).

ولكن معبد هيرود قد لقيَ مصير هيكل سليمان القديم؛ إذ تمَّ تدميره على يد الرومان خلال حملتهم على أورشليم عام ٧٠ ميلادية، ولم يبقَ منه سوى قسم مِن أساسات سوره ما زالت واضحةً اليوم بعد إزاحة الأتربة عنها، وأرضيته التي أُقيم عليها المسجد الحرام وقبة الصخرة. والجزء الباقي مِن أساسات سور هيرود مؤلَّفٌ من قسمَين، قسم يعود إلى أواخر القرن السادس قبل الميلاد وهو ما تبقَّى من سور هيكل «زرُبابل» وقسم يعود إلى القرن الأول الميلادي وهو أساس سور هيرود نفسه. ويَلتقي الأساسان بشكلٍ واضح عند

---

[١٠] Ibid., pp. 110–116.



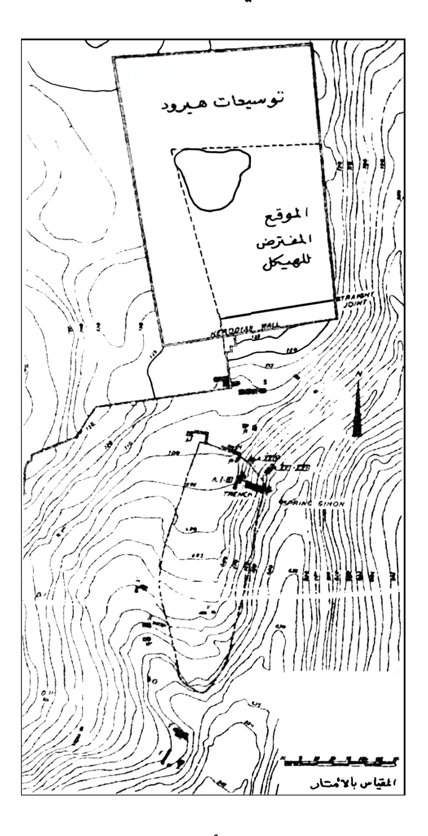
المخطط رقم ١: توسيعات هيرود على هيكل زربابل.

نقطة تقع على مسافة ٣٣ مترًا تقريبًا إلى الشمال من الزاوية الجنوبية الشرقية لسور الحرم الحالي.[١١]

في الفترة التي تلت انهيار المملكة الموحدة وتحوُّل أورشليم إلى عاصمة لمملكة يهوذا الجنوبية، كشفت التنقيبات عن عدة إصلاحات على سور المدينة وإضافات إليه، أهمها تلك التي تمت حوالي عام ٧٠٠ق.م.، والتي لاحظ المنقبون أن بعضها قد تم على عجل، إلى درجة أن أحد الأسوار قد رُفع دون أساسات راسخة، مما يدل على أن قد بني في حالة استعداد للحرب واقتراب الحصار.[١٢] هذه الإصلاحات العاجلة وتاريخها تَنطبِق على الإصلاحات التي قام بها الملك حزقيا عندما كان يستعدُّ لمواجهة قوات الملك الآشوري سنحاريب الذي حمل على يهوذا حوالي عام ٧٠٠ق.م.، وحاصرت قواته أورشليم حصارًا طويلًا. نقرأ في سِفر أخبار الأيام الثاني ٣٢: ٥ [وتشدد – حزقيا – وبنى السور المُنهدم

[١١] Ibid., pp. 107–112.

[١٢] Ibid., p. 151.



الخارطة رقم ٩: أورشليم اليبوسية.

كله وأعلاه إلى الأبراج، وسورًا آخر خارجًا، وحصن القلعة مدينة داود، وعمل سلاحًا بكثرة وأتراسًا ...]

على أن أهم أعمال حزقيا إلى الآن من تلك الفترة هو جرُّ مياه نبع «جيحون» في قناة تمرُّ تحت مدينة أورشليم إلى الوادي المركزي (تيبريون) على الميل الغربي للتل، لتصبَّ في بركة «سلوام» في موقع محمي يُمكن الدفاع عنه؛ وذلك لمنع الآشوريين من السيطرة على مصدر المياه الوحيد الذي يغذي المدينة. نقرأ في سِفر أخبار الأيام الثاني ٣٢: ٣٠ [وحزقيا هذا، سدَّ مخرج مياه جيحون الأعلى وأجراها تحت الأرض إلى الجهة الغربية من مدينة داود، وأفلح حزقيا في كل عمله].

وبركة «سلوام» لا تزال قائمةً اليوم في نهاية السفح الجنوبي للتل الجنوبي الذي كانت أورشليم قائمةً عليه، واسمُها اليوم بركة «سلوان»، أما القناة الواصلة بين نبع جيحون على السفح الشرقي (واسمه اليوم نبع العذراء) وبركة «سلوان» على السَّفح الغربي؛ فقد تمَّ اكتشافها عام ١٨٦٧م مِن قِبَل المُنقِّب «وارن» Warren، ونُظفَت من قِبَل المُنقِّب «باركر» Parker عام ١٩١١م. ثم أعادت حملة السيدة كاثلين كينيون ١٩٦١–١٩٦٧م تنظيفها وإعادتها إلى ما كانت عليه. هذا، ويَتطابق مجرى هذه القناة المكتشَفة مع الوصف الذي أعطاه سِفر أخبار الأيام الثاني (انظر خريطتنا رقم ١١)، ويستطيع أي زائر اليوم أن يسير خلالها منتصب القامة أو منحنيًا مستعملًا الأنوار الكشافة.[١٣]

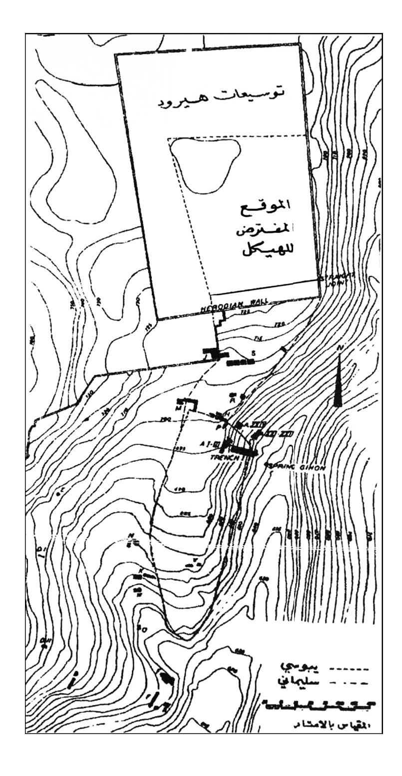
وقد عثر في نفق القناة على نقشٍ حجريٍّ يصف لحظة انتهاء حفر القناة بالتقاء فريقَي الحفر اللذَين انطلقا كل مِن اتجاه. تقول ترجمة النقش: [بينما النحَّاتون يَرفعون فأس الحفر، كل تجاه رفيقه، وبينما بقي ثلاثة أذرع للنَّحت، سُمع صوت رجل يُنادي أخاه لأنه وجد ثقبًا في الصخر من ناحية اليمين، وفي يوم انثقابِه، ضرب النحَّاتون رجلًا أمام رجل، فأسًا على فأس. وسالَت المياه مِن النَّبع إلى البِركة مسافة مائتين وألف ذراع ومائة ذراع. وكانت قيمة الجبل فوق رأس النحاتين].[١٤]

وهنا سنتوقف قليلًا لعرض وجهة نظر الصليبي في موضوع قناة سلوام حيث يقول في الصفحة ١٠٧ من كتابه: [عُثر على نقش صخري في سلوان قرب القدس يشرح كيف جرى حفر قناة مائية هناك عن طريق التنقيب من نهايتي النَّفق في آنٍ معًا. ولو قال النقش إنَّ هذا النفق حُفر في عهد حزقيا الملك، لكان في ذلك تأكيدٌ واضح لنصَّي سِفر الملوك الثاني ٢٠: ٢٠؛ وأخبار الأيام الثاني ٣٢: ٣٠، اللذَين يتحدَّثان عن بركة وقناة أنشأهما الملك حزقيا، ملك يهوذا. لكن الواقع هو أن النقش المذكور لا يشير إلى أيَّة أسماء سواء كانت أسماء أشخاص أم أسماء أمكنة، ولذلك لا تجوز نسبتُه إلى عهد حزقيا، كما فعل الباحثون التوراتيُّون زيفًا. ويبدو أن هؤلاء الباحثين لم يأخُذوا في اعتبارهم أن الأقنية المائية كانت تُحفَر في الأزمنة كلها، أينما كان، ومتى ظهرت الحاجة إليها. والواقع أن نقش السلوان لا يشير حتى إلى أن القدس الحالية هي فعلًا أورشليم التوراتية؛ لأنَّه لا يَذكر اسم الموقع].

---

[١٣] Ibid., pp. 151–158.

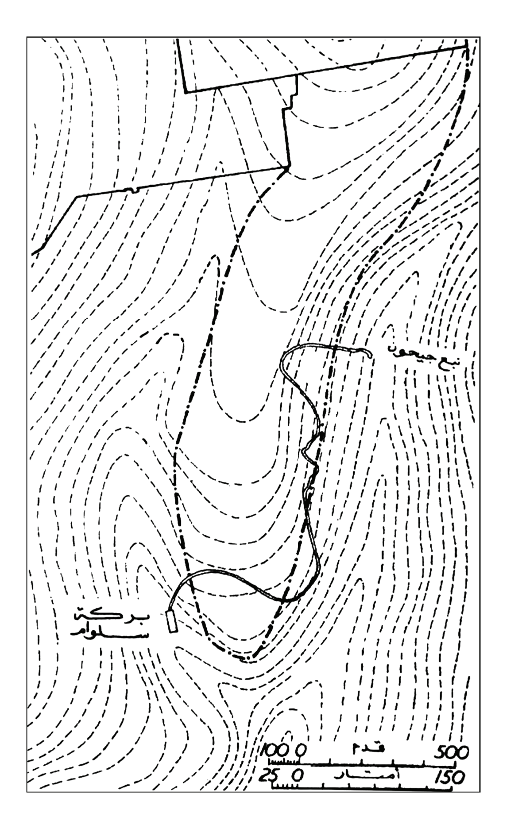
[١٤] إ. ولفنسون، تاريخ اللغات السامية، دار القلم، بيروت ١٩٨٠م، ص٨٣.



الخارطة رقم ١٠: إضافات سليمان.

في المقطع أعلاه مثال على طريقة الصليبي في تقديم نصف المعلومات للقارئ غير المتخصِّص من أجل الحكم على قضية بالغة التخصص. فهو يركز على (النقش الذي يشرح كيف جرى حفر قناة مائية هناك عن طريق التنقيب من نهايتي النفق في آن معًا). ولا يذكر أن القناة المائية التي يتحدَّث عنها النقش قد تمَّ اكتشافها، وأنها تجري تحت مدينة أورشليم القديمة مِن نَبع جيحون في الوادي الغربي إلى طرف المدينة في الوادي الشرقي، تمامًا كما هو مذكور في النصِّ التوراتي. وهو يقول إن النقش قد عُثر عليه (في «سلوان» قرب القدس)، ولا يقول إنَّ النقش قد عُثر عليه داخل قناة السلوان التي تقع بكاملها ضمن مدينة القدس اليوم. ثم يُلصق التُّهم بالباحثين التوراتيين ممن لا ناقة لهم ولا جمل في هذه القضية التاريخية الآثارية، ويتغاضى عن جهد المنقبين الأوائل الذين استكشفوا القناة من أولها إلى آخرها زحفًا على البطون؛ لأنها كانت مليئة بالأتربة

والنفايات التي تراكمَت عبر العصور، دون أن يكونوا مُتأكِّدين مِن خُروجهم سالِمين من الجهة الأخرى. ثم يقول: (بأنَّ الأقنية المائية كانت تُحفَر في الأزمنة كلها أينما كان ومتى دعت الحاجة إلى ذلك)، وهذا صحيح تمامًا، ولكن قناة السُّلوان مُتفرِّدة في تقنيتها وطريقة حَفرها، ولا نظير لها في مدن الشرق القديم طرًّا، وإن وصف قناة أورشليم الوارد في النَّص التوراتي لا يَنطبق إلا على القناة المكتشفة تحت موقع أورشليم القديمة. وهو يقول أخيرًا بأن (نقش السُّلوان لا يُشير إلى أنَّ القدس الحالية هي فعلًا أورشليم التوراتية لأنه لا يَذكر اسم الموقع). ونحن مُستعدُّون للمُوافقة جدلًا على هذا المنطق لو أنَّ نقش السلوان لم يعثر عليه داخل القناة، ولو أن البيِّنة الأركيولوجية لم تقم على وجود هكذا قناة.



الخارطة رقم ١١: قناة سلوام.

بعد نجاة أورشليم من الحصار الآشوري عام ٧٠١ق.م. قُيِّض لها أن تستمر قرابة قرنٍ آخر من الزمان كعاصمةٍ لمملكة صغيرة شِبه مُستقلَّة، خصوصًا بعد زوال آشور وصعود المملكة البابلية الجديدة. غير أن نبوخذ نَصَّر حمل على مملكة يهوذا عام ٥٨٨ق.م. وأخذ أورشليم، ثم حمل عليها كرةً أخرى وهدم أورشليم والهيكل عام ٥٨٧ق.م. وهنا تأتي البيِّنة الأركيولوجية لتُثبت ما ورد من تفاصيل عن دمار أورشليم، فقد أظهرت التنقيبات الأثرية الأخيرة خراب سور أورشليم في أوائل القرن السادس قبل الميلاد، وانهيار المَصاطب (الملو) التي لم تُستعمَل بعد ذلك فقط. وفي بقية مدنِ يهوذا ظهرت آثار واضحة على الانقطاع الحضاري دامت قرابة قرن ونصف القرن من الزمان.[١٥]

أما فيما يتعلَّق بإعادة بناء الهيكل والمدينة بعد العودة من السَّبي البابلي، فقد تمَّ العثور على سور المدينة الجديدة الذي بناه «نحميا» والذي يَرجع بتاريخه إلى أواسط القرن الخامس قبل الميلاد، وكذلك على جزء لا بأس به مِن سور الهيكل الذي بناه زرُبابل، وكذلك على أسوار وتحصينات المكابيِّين وفيها البرج الذي يُدعى اليوم خطأً ببرج داود وأعلى جدران معبد هيرود الموسع.[١٦]

في عهد هيرود الذي عيَّنه الرومان ملكًا على «اليهودية» اكتمل تقريبًا انزياح أورشليم نحو مدينة القدس الحالية، وقد أظهرت التنقيبات آثار أسوار هيرود الجديدة واستطاعت رسم صورة أقرب إلى الدقَّة لأورشليم في نهاية القرن الأول قبل الميلاد. كما تمَّ العثور على العديد من البيوت والأبنية التي تَرجع إلى تلك الفترة، ومن بينها جزء من قصر هيرود نفسه. مدينة هيرود هذه هي مدينة الأناجيل وهي المدينة التي تعرَّضت للدمار على يد القائد الروماني «تيتوس» الذي هدم الهيكل، وقد كشفت التنقيبات عن آثار الدَّمار الكبير الذي حلَّ بالمدينة أواخر القرن الأول الميلادي، واستِعمال حجارتها لبناء المدينة الرومانية «إيليا كابيتولينا» فوق الخرائب عام ١٣٥ ميلادية. وأسوار هذه الأخيرة تتطابَق إلى حدٍّ كبير مع الأسوار التي بناها للقدس السُّلطان سليمان القانوني، وهي الأسوار التي ما تزال قائمةً إلى اليوم.[١٧]

---

[١٥] Kathleen Kenyon, Digging up Jerusalem, op. cit., pp. 166–172.

[١٦] Ibid., pp. 127–204.

[١٧] Ibid., pp. 236–255.
K. Kenyon, the Bible and Recent Archaeology, Colonnade Books, London 1978, ch. 6.

وبعدُ، هذه لمحة عن أركيولوجيا أورشليم لا يتَّسع كتابنا لأطول منها، وهي تختصر أُلوف الصفحات ومئات التقارير الأثرية وجهد أجيال مُتعاقِبة من علماء الآثار، ولعلَّنا نشعر الآن أن نقل موقع أورشليم إلى موقع «آل شريم» في سراة عسير أو موقع القريتَين التوءمَين «أروي» و«آل سلام» في غرب العربية يتطلَّب أكثر مما يستطيع منهج مقارنة أسماء المواقع تقديمه.

الفصل الثالث

السَّامرة، كوزموبوليتانية كنعان

السامرة هي المدينة الوحيدة التي يَعزو كتاب التوراة بِناءها للإسرائيليِّين أما المدن الأخرى فجميعها مدن كنعانية مغرقة في القدم سكن فيها الإسرائيليُّون إلى جانب أهلها القدماء دون أن يَقدروا على طَردِهم منها. ورغم فتوحات يشوع المزعومة، ورغم قوة دولة داود وسليمان التي لا نَملك عنها معلومات تاريخية مؤكدة؛ فإن مدنًا كنعانية مثل مدينة «جازر» قد بقيت خارج نطاق المملكة الموحدة حتى صعد إليها فرعون مصر فأخذها وقدَّمها هديةً إلى سليمان، نقرأ في سِفر الملوك الأول ٩: ١٦ [صعد فرعون ملك مصر وأخذ جازر وأحرقها بالنار، وقتل الكنعانيين الساكنين في المدينة، وأعطاها مهرًا لابنته امرأة سليمان].

وقد بُنيَت السامرة لتكون عاصمة لمملكة إسرائيل بعد أن تنقل ملوك المملكة الشمالية بين عدد من العواصم المؤقَّتة. فعقب موت الملك سليمان واستقلال الأسباط العشرة عن أورشليم والهيكل، استقرَّ الملك «يربعام» أول ملوك إسرائيل في مدينة «شكيم» ولكنه بعد عدة سنوات تركها إلى مدينة «فنوئيل»، ثم عاد واستقرَّ في مدينة «ترصه» التي بقيت عاصمة لمملكة إسرائيل مدة أربعين سنةً. وفي ترصه بدأ الملك «عمري» حكمه عام ٨٧٨ق.م. بعد أن اغتصب السلطة من «زمري». ويعتبر «عمري» بمثابة المؤسس الثاني لمملكة إسرائيل، فهو الذي أمَّن لها الاستقرار والازدهار وكرَّس ارتباطها حضاريًّا بالعالَمَين الآرامي والفينيقي، وبنى لها عاصمةً جديدة على تلٍّ اشتراه من رجل يُدعى «شامر» وأسماها «السامرة» (الملوك الأول ١٦: ٢٤).

ورغم أن بِناء مدينة جديدة هو، من حيث المبدأ، فرصةٌ من أجل إظهار الطابع الحضاري الخاص لَمَن بنَوها، إلا أننا نُفاجأ في موقع السامرة بمدينة لا تَرتبِط فقط بأرضيتها الكنعانية الفلسطينية فحسب، بل وبالعالَم الكنعاني الأوسع وبالعالم الآرامي

الزاخر، مما يجعلها بحقٍّ «كوزموبولياتينة» كنعان (Cosmopolitan). [١] ذلك أنَّ الخيار الديني للأسباط العشرة التي شكَّلت مملكة إسرائيل الشمالية، كان يَحمل في الوقت نفسه خيارًا حضاريًّا مُتكاملًا، ومنذ أن انفصلت مملكة إسرائيل عن هيكل أورشليم؛ حيث كانت الديانة اليهودية آخذةً بالتشكُّل، وتبنَّت بشكلٍ كامل ديانة كنعان، فقد تبنَّت أيضًا جميع مظاهر الحضارة الكنعانية العميقة الجذور، وعاشَت في إطارها طيلة حياتها القصيرة حتى دمارها الأخير وسبي الأسباط العشرة دون رجعةٍ عام ٧٢١ق.م.

ولقد تمَّ تكريس الانفصال الديني عن أورشليم منذ الأيام الأولى لتشكيل مملكة إسرائيل، عندما قام «يربعام» أول ملوكها ببناء معبدَين كنعانيَّين لشعبه وضع فيهما تمثالين على هيئة العجل، وهو رمز الإله بعل، وصرف من خدمته كهنة اللاويين الذين كانوا مُكرسين للخدمة الدينية في أورشليم. نقرأ في سِفر الملوك الأول ١٢: ٢٨–٣١ [فاستشار الملك وعمل عجلي ذهبٍ وقال لهم: كثير عليكم أن تصعدوا إلى أورشليم ها هي ذي آلهتك يا إسرائيل الذين أصعدوك من مصر. ووضع واحدًا في بيت إيل وجعل الآخر في دان ... وبنى بيت المُرتفَعات وصيَّر كهنة من أطراف الشعب لم يكونوا من بني لاوي]. وبعد يربعام سار ملوك بني إسرائيل جميعهم في طريقه خلا واحدًا هو الملك «ياهو» الذي قضى على بيت آخاب وقام بإصلاحٍ ديني لم يُقيَّض له الاستمرار. ولم يكن موقف عامة الناس في الدولة مُغايرًا لموقف ملوكهم مما استجرَّ عليهم وعلى حكامهم اللعنات التي امتلأت بها أسفار التوراة. ولم يكن الدمار الأخير لدولتهم إلا عقابًا: [وسلك بنو إسرائيل في جميع خطايا يربعام التي عمل، لم يَحيدُوا عنها حتى نحَّى الرب إسرائيل من أمامه كما تكلَّم عن يدِ جميع عبيده الأنبياء، فسُبي إسرائيل من أرضه إلى آشور إلى اليوم] (الملوك الثاني ١٧: ٢٢).

وقد جاءت نتائج التنقيب الأثري في موقع السامرة في اتِّفاق مع الرواية التوراتية، فمدينة السامرة هي الموقع الوحيد في فلسطين الذي بُني على التربة العَذراء دون طبقات آثارية سابقة عليه. كما أثبتَت التأريخ الحديثة في علم الأركيولوجيا أنَّ المدينة قد بُنيت في النصف الأول من القرن التاسع قبل الميلاد، وهو تاريخ بنائها الفعلي من قبل الملك عمري الذي حكم اثنتَي عشرة سنةً منذ عام ٨٧٨ق.م. ومن ناحية أخرى، فقد أمكن التعرُّف

[١] الكوزموبوليتاني، هو العالَمي غير المحلي الذي يحمل خصائص شمولية.

على عاصمة عمري السابقة ترصه في موقع «تل الفرح» على مسافة ستة أميال شمال شرقي شكيم (نابلس). واتَّضح من التنقيبات أنَّ مدينة ترصه قد هُجرت في نفس الوقت تقريبًا الذي بُنيت فيه مدينة السامرة، وأنَّ العديد من أبنيتِها التي كانت قيد التشييد قد أوقف العمل بها وتُركت على حالها. ويبدو أن الملك عمري قد بدأ بتحضير ترصه لتكون عاصمتَه ثم تحوَّل عنها إلى موقع السامرة الذي يقدم فرصًا أوفر للتواصُل مع فينيقيا وآرام.[٢]

يقع تلُّ السامرة قرب الممر الرئيسي الذي يصل شمال فلسطين بجنوبها، على مسافة عشرة أميال شمال غرب الممر الفاصل بين جبل جرزيم وجبل عيبال، ويُشرف على وادٍ عريض يتَّجه نحو البحر مما يؤمِّن للموقع اتصالًا سهلًا مع فينيقيا، بينما يؤمِّن مرج ابن عامر في الشمال الاتصال مع آرام وقد بدأت أولى التنقيبات في التل من قِبل البروفسور G. R. Reisner لحساب جامعة هارفارد بين عامي ١٩٠٨ و١٩١٠م ثمَّ تابع التنقيب السيد J. W. Crowfoot لحساب جامعة هارفارد وصندوق التنقيب في فلسطين والأكاديمية البريطانية ومدرسة علم الآثار البريطانية في القدس؛ وذلك بين عامي ١٩٣١ و١٩٣٥م، وأخيرًا الدكتور J. B. Hennessy عام ١٩٦٧م.[٣]

ولقد تمَّ الكشف في المنطقة المتموضِعة على قمة التل، عن القطاع الملكي الذي يضمُّ القصور والأَبنية الإدارية، وكلها ذات طابع كنعاني واضح سواء في المخطط أم في طريقة البناء والحجارة المنحوتة المستخدمة فيه، وتكاد طريقة نحت الحجارة المستعمَلة في سور القطاع الملكي تكون نسخة مطابقة للحجارة المستخدمة في مدن كنعانية أخرى، وخصوصًا أوغاريت القرن الثالث عشر قبل الميلاد. وقد تمكَّن المُنقِّبون في المنطقة من الكشف عن مرحلتَين في البناء، الأولى تعود إلى الملك عمري مؤسس المدينة، والثانية إلى ابنه آخاب الذي تابع عمل أبيه.[٤]

وآخاب هذا معروف في التوراة بعلاقاته الوثيقة مع فينيقيا التي أدَّت أخيرًا إلى زواجه من «إيزابيل» ابنة ملك صور، التي كرَّست بشكل نهائي عبادة الآلهة الكنعانية في إسرائيل (انظر سِفر الملوك الأول ١٦: ٣١–٣٣ و١٨: ٤ و١٩).

---

[٢] Kathleen Kenyon, Royal Cities of the Old Testament, Barrie and Jenkins, London 1971, pp. 71–89.

[٣] K. Kenyon, Archaeology in the Holy Land, op. cit., pp. 340–41.

[٤] K. Kenyon, Royal Cities, op. cit., ch. 7.

ولعل أهم ما عُثر عليه في خرائب القصر المعزو لآخاب، كمية كبيرة من المنحوتات العاجية البارِزة، ممَّا تُزين به قطع الأثاث والجدران، وبذلك توضح المقصود «بقصر العاج» الذي يقول سِفر الملوك الأول ٢٢: ٣٩ أن الملك آخاب قد بناه في السامرة. فالبناء المقصود ليس بيتًا حجارته من عاج، وهو أمر مستحيل من الناحية العملية، بل هو قصر رُصِّعت كل مفروشاته الخشبية وأجزاء لا بأس بها من جدرانه بمنحوتات عاجية. وقد عُثر على الجزء الأعظم من هذه المنحوتات العاجية في طبقة الحرائق التي يعود تاريخها إلى نهاية القرن الثامن؛ أي إلى التدمير الآشوري لمدينة السامرة عام ٧٢١ق.م.، ومُعظمها قد نالت منه النِّيران وتُركت قِطعًا متشظية وفي حالةٍ هشَّة. وقد تبيَّن من الدراسة الفنية لعاجيات السامرة أنها تَنتمي إلى المدرسة الفينيقية، وتَربطها صلات قُربى واضحة مع منحوتات مُماثلة عُثر عليها في أنحاء مُتفرِّقة من سورية، وخُصوصًا في موقع «أرسلان طاش» أي «حداتو» القديمة في الشمال السُّوري.[٥]

وعاجيات السامِرة، تَستحِق أن نتوقَّف عندها وقفة قصيرة؛ لأنها تَنتمي إلى تقليدٍ فنِّي سوري مُغرق في القِدَم كان شائعًا في المراكز الحضرية في بلاد الشام، وأقدم أمثلة عليه جاءتنا من مطلع الألف الثاني قبل الميلاد من «جبيل» ومن «إيبلا» ومن «ألالاخ»، وفيما بعدُ أفاضت تنقيبات «أوغاريت» بمجموعة ضخمة من هذه العاجيات التي تَنتمي إلى القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد، كما نَعرف من نص أوغاريتي أن دوطة الملكة «أخات ميلكو» كانت تضمُّ أسرة وكراسي ومساند قدمين مطعَّمة بالأشكال العاجية. ومن النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد وصلَتنا عدَّة مجموعات من المنحوتات العاجية، أهمها مجموعة «أرسلان طاش». كما تُوفِّر من الأدلة ما يُشير إلى وجود مراكز متعدِّدة في بلاد الشام لإنتاج هذه المنحوتات أهمها «كركميش» و«شمأل» و«تل حلف» و«أرفاد» و«حماة» و«دمشق».

ورغم أنَّ هذه العاجيات تحمل تأثيرات واضحة من مصر وبلاد الأناضول، حيث تأثَّرت المناطق الساحلية بالفن المصري والشمالية بالفن الحثي، إلا أنها جميعًا تَنتمي إلى مدرسة سورية واضحة ذات اتجاهات ثلاثة، فمدرسة شمالية وأخرى جنوبية وثالثة ساحلية، وقد تمَّ العثور على قطع من هذه المنحوتات العاجية السورية في مناطق بعيدة

[٥] Ibid., ch. 7.

عن منشئها مثل إيران والأناضول والبر اليوناني، مما يُشير إلى مدى تأثير الفن السوري في الثقافات المُجاوِرة، ومدى نشاط التجارة السورية في ذلك الوقت. أما مجموعة المنحوتات الكبيرة التي عُثر عليها في موقع «نمرود» عاصمة آشور، فقد تبيَّن أنها تَنتمي جميعها إلى المدرسة السورية وأن مُعظمها جاء إلى آشور كأسلاب حرب، وهو ما تُؤكِّده النصوص الآشورية التي تتحدَّث عن أسلاب العاجيات التي أتَت بها الحملات الآشورية من بلاد الشام.[٦]

لم تَدُم حياة السامرة، وَفق الرواية التوراتية، أكثر من قرنين من الزمان. فبعد الهجوم الواسع الذي شنَّه تغلات فلاصر الثالث على مملكة إسرائيل، تلبية لاستغاثة «آحاز» ملك يهوذا الذي كان يتعرَّض لحملة مشتركة من دمشق والسامرة، جاء شلمنصر الخامس فحاصر السامرة ولكنها لم تسقط إلا في عهد خليفته صارغون الثاني عام ٧٢١ق.م. وتأتي نتائج التنقيبات الأثرية في اتِّفاق مع الرواية التوراتية؛ إذ تم العثور على طبقة سميكة من الأنقاض والحرائق تعود إلى أواخر القرن الثامن قبل الميلاد حجبت مدينة آخاب التي لم يبقَ منها جدار واحد فوق الأرض. ويبدو أن الذين استطونوا في الموقع، من الشعوب التي أحلَّها الآشوريون محل المسبيِّين، لم يُسمح لهم بالتوطن في الموقع المدمر، بل في أسفل التل؛ لأنَّ الموقع بقي خاليًا من آثار الاستيطان البشَري مدة طويلة بعد ذلك.[٧]

إنَّ التعرف على مدينة السامرة والكشف عن قُصورها وأبنيتها الرسمية وأعمالها الفنية، هو فصل من أمتع فصول علم الآثار في فلسطين، غير أنَّ مقاصد كتابنا هذا لا تَسمح بتقديم أكثر ممَّا قدَّمناه من لمحة موجزة ووافية. وفي الحقيقة فإنَّ موقع السامرة هو مثال ميداني واضِح عمَّا يُمكن لعلم الآثار الحديث تقديمه في مجال التعرُّف على موقع قديم بثقة تامَّة. ومع ذلك فإن كمال الصليبي لم يتوقَّف أبدًا عند المسألة الآثارية لموقع السامرة، بل ترك التعرُّف عليه كليًّا لمنهجه في مقارنة أسماء الأماكن؛ إذ يقول: [وقد أقام ملوك إسرائيل الذين خلَّفوا يربعام عواصم لأنفسهم أولًا في ترصه ثم في يزرعيل ثم في السامرة. وكانت هذه الأخيرة مدينة قام ملوك إسرائيل أنفسهم ببنائها على هضبة

[٦] Irene Winter, Ivory Carving, (in: Ebla to Damascus, Smithsonian Ins., Washington, 1985), pp. 339–346.

[٧] K. Kenyon, Royal Cities, op. cit., ch. 10.

قريبة مِن يزرعيل اشتروها من «شمر»، ومن هنا جاء الاسم الذي أعطوها وهو بالعبرية شمرون ... ولكن الأكثر احتمالًا هو أنَّ «شمر» المالك الأصلي للهضبة التي بُنيت فوقها السامرة (شمرون) لم يكن شخصًا بل قبيلة «شمران». وقد استمرَّ وجود اسمها غرب شبه الجزيرة العربية إلى يومنا هذا، والأرض الحالية لشمران تضمُّ الأراضي الداخلية من منطقة القُنفذة وما يَليها شرقًا، وتمتدُّ بلاد شمران هذه عبر الجوف والشق المائي إلى وادي بيشة. وكانت السامرة بلا شك، ما هو اليوم قرية شمران في منطقة القنفذة، على مسافة ما صعودًا من «آل الزرعي» أو «يزرعيل». وللحقيقة فإنَّ شمران الحالية تقوم مميزة على هضبة وحدها، تمامًا كما هي موصوفة في التوراة، وقد عاينتُها بنفسي]. (ص٢٠٠–٢٠١).

وهكذا، ومقابل كل نتائج التنقيب الأثري في تلِّ السامرة، فإنَّ ما يقدمه لنا الصليبي من وصف أركيولوجي لموقع «شمران» في منطقة عسير هو أنها «تقوم مُميزة على هضبة وحدها، تمامًا كما هي موصوفة في التوراة».

الفصل الرابع

مَجَدو والمدن الملكية

بعد عاصمتي الشمال والجنوب، نأتي إلى ثلاث مدن ملكية أخرى أخبر عنها كتاب التَّوراة وهي مدن «مَجِدو» و«حاصور» و«جازر»، وهذه تشترك في كونها مُدُنًا كنعانية قديمة تقول الرواية التوراتية إن سليمان قد أعاد بناءَها بعد أن كانت مهجورةً، وحوَّلها إلى مراكز إدارية تابعة له مُباشرة، بعيدًا عن الولاءات القبلية (سِفر الملوك الأول ٩: ١٥).

(١) مَجِدو

تمَّ التعرُّف على مَجِدو في «تل المتسلم» الذي يقع على مسافة عشرين ميلًا إلى الجنوب الشرقي من مدينة «حيفا» الساحلية، في الطرف الجنوبي من سلسلة الجبال التي تَنتهي بجبل الكرمل. وقد بدأت التنقيبات في المَوقع من قِبل المعهد الشرقي بجامعة شيكاغو بإشراف عالم الآثار الكبير جيمس بيرستد؛ وذلك فيما بين عامي ١٩٢٥، ١٩٣٩م، واستمرَّت مِن بعده إلى خمسينيات هذا القرن.[١] وقد دلَّت التنقيبات في الطبقات السُّفلى لموقع تل المتسلم على أن استيطان الموقع قد بدأ مع عصر البرونز الأول حوالي ٣٠٠٠ق.م. ثم توسَّعت مَجِدو تدريجيًّا لتغدو إحدى مدن فلسطين الكبرى خلال عصر البرونز الثاني والثالث.[٢] وقد ورَد أول ذِكر تاريخي لها في مراسلات مدينة «ماري» إبان القرن الثامن عشر قبل الميلاد، ثم تواتَر ذكرها بعد ذلك في سجلات الشَّرق القديم، ممَّا قدَّمناه في الباب السابق.

---

١ K. Kenyon, Archaeology in the Holy Land, op. cit., p. 335.

٢ Ibid., pp. 66–76.

في طبقات الموقع العائدة لنهاية عصر البرونز وبداية عصر الحديد، تتطابق نتائج التنقيب الأثري مع الرِّواية التوراتية، فمدينة مَجِدو قد تهدَّمت وهُجرت في القرن الثاني عشر قبل الميلاد، وحدث في الموقع فراغ استمرَّ إلى القرن العاشر قبل الميلاد؛ أي إلى الفترة السليمانية؛ حيث أُعيد بناء المدينة. وقد أمكن إرجاع سور المدينة الجديد وتحصيناتها وبواباتها وعدد من قصورها إلى تلك الفترة. وفيما يتعلَّق بالبوابة والأبراج الدفاعية المتصلة بها، وجد المُنقِّبون تماثلًا تامًّا بينها وبين بوابات وأبراج المدينتَين الملكيتَين الأخريَين حاصور وجازر، وتطابُقًا في تاريخ بنائها، مما يُشير إلى المدن الثلاث قد بُنيَت من قِبَل سلطة مركزية واحدة ولغرض واحد. أما أسلوب البناء فكنعانيٌّ واضح، يتماثَل مع ما نراه بشكلٍ خاصٍّ في مدن فينيقيا الساحلية، وتظهر القصور الجديدة التي بُنيت في القرن العاشر تماثلًا واضحًا في التصميم وأسلوب البناء مع القصور التي كشف عنها في مناطق مُتفرِّقة من سورية الداخلية.[٣]

وقد بُنيت المدينة لتكون مركزًا إداريًّا ملكيًّا؛ ذلك أن الأبنية التي تمَّ الكشف عنها داخل السور كانت عبارة عن قصور ذات طابع رسمي إداري لا سَكَني، ورغم أن بعض الأبنية السكنية القليلة كانت قائمة داخل السور خلال الفترة السُّليمانية، إلا أنها اختفت خلال القرن التاسع بعد أن صارت مَجِدو إلى المملكة الشمالية عقب الانقسام، وتمَّ تشييد قصور جديدة تحمل الطابع نفسه إبان فترة حكم الملك آخاب.[٤]

خلال النصف الأول من القرن الثامن قبل الميلاد، تمَّ بناء سور جديد للمدينة؛ وذلك خلال فترة تزايُد النشاط العسكري الآشُوري في بلاد الشام، والحملات المتوالية على المنطقة التي أدَّت إلى دمار مَجِدو عام ٧٣٢ق.م. على ما تُخبِرنا به السجلات الآشورية. وهنا تتطابَق تمامًا في موقع مَجِدو البينة التاريخية الأركيولوجية، فالطبقة الآثارية الرابعة تدمَّرت تمامًا وغطَّتها طبقة من ركام الانهيارات تَرجع إلى تاريخ دمار المدينة في السجلات التاريخية، ثم يَعقُب ذلك فترة فراغ في الموقع تَستمِر قُرابة ثلاثة عقود ينقطع خلالها الاستيطان ويخلو التلُّ مِن سكانه. وعندما يُعاد بناء المدينة في الطبقة الآثارية الثالثة، نجد أنَّ المنطقة الملَكية قد زالت نهائيًّا وحلَّت محلَّها الأبنية السكنية العادية، كما نجد تغييرًا جذريًّا في تخطيط المدينة ونُظمها المعمارية، ممَّا يُخالف ما كان معمولًا به في فلسطين

[٣] K. Kenyon, Royal Cities, op. cit., pp. 53–66.

[٤] Ibid., pp. 93–101.

خلال العصر الحديدي، ويقترب إلى حدٍّ كبير من تخطيط ونُظم العمارة الآشورية، مما يُشير إلى إلحاقها بآشور. إلا أنَّ بقايا الفخار واللقى الأخرى العائدة للطبقة ذاتها، تُشير إلى استمرار الثقافة الكنعانية التي كانت سائدةً في فلسطين،[٥] فالأقوام التي أحلَّها الآشوريون محلَّ الأسباط العشرة التي لم تَعُد قطُّ إلى فلسطين، لم تَفرض على المدينة نمطًا ثقافيًّا جديدًا، بل استوعبت بسرعة معطيات الثقافة الكنعانية وعملت على تطويرها في الاتجاه نفسه.

مَجِدو، هذه المدينة الكنعانية المُغرِقة في القِدَم، والتي وقَع عندها الكثير من الأحداث التوراتية لم يُشِر إليها الصليبي إلا في مقطعَين اثنين مُقتضبَين لا أثر فيهما لأيَّة معلومات أركيولوجية، ناهيك عن المعلومات التاريخية، يقول في أولهما:

[مَجِدو هذه بالذات، الواردة في رسائل تلِّ العمارنة، هي «مقدي» (مقد بدون تصويت) الحالية في منطقة القنفذة]. وفي الثاني يأتي ذِكر مَجِدو عرضًا من خلال التعرُّض لموقع لخيش: [لخيش ليسَت بالتأكيد تل الدوير الفلسطينية، وترابط المكان مع جبعون ومَجِدو وحبرون وعجلون، التي هي اليوم آل جبعان ومقدي والخربان وعجلان في منطقة القُنفذة وجوارها العام، يُشير بشكل مميَّز إلى أن لخيش هي آل قياس، أو قياسة، أو بني قيس في الجوار ذاته] (ص١١٩ و٢٠٣).

(٢) حاصور

تقع حاصور، ثاني المدن الملكية في الجليل بين بحيرة الحولة وبحيرة طبرية، وقد كشف حملة التنقيب التي جرَت بين عامي ١٩٥٥ و١٩٥٨م عن الجزء الأكبر من المدينة (تحت تلِّ القدح) وتبين أنها تعود إلى عصر البرونز المُبكِّر حوالي مطلَع الألف الثالث قبل الميلاد، واستمرَّت قائمة مع بعض الفجوات والانقطاعات حتى العصر الهلنستي،[٦] وقد ورَد اسم المدينة في سجلات مدينة ماري منذ القرن الثامن عشر قبل الميلاد، وبعد ذلك في رسائل تلِّ العمارنة والسجلات المصرية اللاحقة مما بيَّناه في الباب الأول آنفًا.

وقد دلَّت نتائج التنقيب في الموقع على أن المدينة قد دُمرت خلال القرن الثالث عشر، وبقيت مهجورةً حتى القرن العاشر قبل الميلاد، ولكنها انتعشَت بشكلٍ فُجائي أواسط

---

٥ Ibid., pp. 126–27m 130–32.

٦ K. Kenyon, Archaeology in the Holy Land, op. cit., p. 329.

القرن العاشر حيث أعيد بناؤها وتحصينها بطريقة مشابهة لمدينة مجدو. ولم تكن تضم سوى منطقة مِلكية ذات أبنية إدارية كبيرة، وعندما انتقلت المدينة إلى المملكة الشمالية، حافظت على طابعها العام كمقر إداري ملكي، وأضاف إليها حُكام السامرة أبنيةً إدارية فخمة ومعظمها يعود إلى فترة حكم آخاب، ابن عمري. غير أنَّ الطابع الملَكي الإداري قد أخذ بالاختفاء في أواسط القرن الثامن؛ حيث حلَّت البيوت السكنية والحوانيت محلَّ عدد من الأبنية الإدارية السابقة. الأمر الذي يُشير إلى ضعف السلطة المركزية القائمة في السامرة.[٧]

وكما هو الحال في مَجِدو، فقد بُني في حاصور سور جديد أواسط القرن الثامن قبل الميلاد، يُشابه في تصميمه وطريقة بنائه سور مجدو الذي أُقيم في حوالي التاريخ نفسِه تقريبًا للدفاع ضد الاجتياحات الآشورية. وقد كانت حاصور من أوائل المدن الساقطة حيث دُمرت عام ٧٣٣. وقد كشفت التنقيبات في الطبقة الآثارية الثامنة عن دمار شبه كامل للمدينة يرجع إلى التاريخ نفسه، تلتْها فترة تراجع سكني وعمراني طويلة.[٨]

ومن الجدير بالذكر أن كمال الصليبي لم يأتِ على ذِكر هذا الموقع الفلسطيني المُهم في كتابه، ولم يَعثر له على مقابل في غرب العربية.

(٣) جازر

تمَّ التعرُّف على جازر في تل أبو شوشة الذي يقع على مسافة ١٨ ميلًا إلى الشمال الغربي من القدس. وقد بدأ التنقيب في الموقع لحساب (صندوق اكتشاف فلسطين) ببريطانيا، البروفيسور Mcallister عام ١٩٠٢م، فقام بحملتين تنقيبيتين الأولى من عام ١٩٠٢ إلى عام ١٩٠٥م، والثانية من عام ١٩٠٧ إلى ١٩٠٩م. تلا ذلك حملة ثالثة عام ١٩٣٤م بإشراف السيد Alan Rowe، ثم توقف التنقيب حتى عام ١٩٦٤م؛ حيث قاد الدكتور W. G. Dever الحملة الأخيرة بين عامي ١٩٦٤ و١٩٧٣م. وقد دلَّت نتائج التنقيب على وجود تجمع سكني بسيط منذ العصر النحاسي، استمر إلى عصر البرونز المبكِّر، ثم تحوَّل الموقع مع مطلَع عصر البرونز الوسيط إلى مدينة كبيرة محصَّنة أواسط القرن السابع عشر قبل

---

[٧] K. Kenyon, The Royal Cities, op., pp. 53–58, 69, 125–10, 127.

[٨] Ibid., pp. 128–132.

الميلاد. غير أنَّ هذه المدينة قد دُمرت وهُجرت قرابة نصف قرن، ويتوافَق تاريخي التدمير مع حملة تحوتمس الثالث على فلسطين عام ١٤٨١م، مما يُرجِّح مسئولية هذه الحملة عن تدمير جازر، ثم بُنيَت المدينة مجددًا خلال القرن الرابع عشر قبل الميلاد، واستمرَّت مُزدهرةً إلى القرن العاشر حيث دُمرت مجددًا.[٩]

يتطابَق دمار القرن العاشر في جازر مع التاريخ التوراتي لتدمير المدينة على يد فرعون مصر الذي صعد إلى فلسطين ودمر جازر. وقد أعاد سليمان بناء المدينة وضمَّها إلى مملكته، على ما نقرأ في سِفر الملوك الأول ٩: ١٦–١٧: [صعد فرعون مصر وأخذ جازر وأحرقها بالنار وقتل الكنعانيين الساكنين في المدينة وأعطاها مهرًا لابنته امرأة سليمان]. وتدلُّ نتائج التنقيب الأثري على أن المدينة المدمَّرة قد أعيد بناؤها عقب خرابها، وأُقيمت لها بوابات وتحصينات مشابهة في التصميم وأسلوب العمارة لما هو موجود في المدينتَين الملكيتَين الأُخريين مجدو وحاصور، وقد استمرت المدينة في حالة ازدهار حتى الاجتياح الآشوري في آخر القرن الثامن الذي ترك آثارًا تدميرية واضحة في المدينة. وهناك آثار تدمير أخرى تعود إلى مطلع القرن السادس تتطابق مع اجتياح نبوخذ نَصَّر لَمملكة يهوذا.[١٠]

هذا الموقع الكنعاني المُهم الذي يَضرب بجذوره إلى بدايات التاريخ المكتوب، لم يُشر إليه الصليبي إلا عرضًا وفي موضع واحد من كتابه؛ حيث وجد له ثلاثة أمكنة مُحتملة في غرب العربية، فهو إما «الغزر» في وادي أضم، أو «الغزرة» في منطقة جيزان، أو «غزير» في مُرتفعات غامد (ص١١٨). وبذلك ينتقل الصليبي من وادي أضم ومرُتفعات غامد في أقصى شمال عسير إلى جيزان في أقصى الجنوب عند حدود اليمن، بحثًا عن جازر التوراتيَّة، وهو الذي قال في مقدَّمته النظرية المُقتضبة عن المسألة الأركيولوجية للتوراة: [وحتى في الحالات القليلة التي تحمل فيها مواقع فلسطينية أسماء توراتية، فإنَّ الإحداثيات المُعطاة في النصوص التوراتية للأماكن التي تحمل هذه الأسماء، في إطار الموقع أو المسافة المطلقة أو النِّسبية لا تَنطبِق على المواقع الفلسطينية] (ص٥٠–٥١).

---

[٩] K. Kenyon, Archaeology in the Holy Land, op. cit., pp. 326–27.

[١٠] Ibid., p. 327.

K. Kenyon, Royal Cities, op. cit., p. 69.

قبل أن نغادر مدينة جازر نودُّ أن نلفت النظر إلى مسألة مهمَّة تتعلَّق بمنهجِها في اعتماد الرواية التوراتيَّة، فلقد انطلَقنا منذ البداية من موقف شكوك بالخبر التوراتي، إلى أن يتقاطَع مع الحدث التاريخي الثابت أو مع نتائج علم الآثار الحديث. وحتى في حال حدوث مثل هذا التقاطُع، فإنه يتوجَّب على الباحث أن يفرز المعلومة التاريخية التي يَحملها الخبر التوراتي عن أرضيتها الملحمية والأسطورية، وعن شبكة المعلومات المتضاربة التي قد تُقدم ضمنها هذه المعلومة التاريخية، ولنا في خبر تدمير فرعون مصر لجازر وتقديمها مهرًا لابنته زوجة سليمان خير مثال على ذلك.

ففي هذه الرواية التوراتية هناك معلومة أمكن لعلم الآثار التثبت منها، وهي تدمير جازر في أواخر القرن العاشر وإعادة بنائها بأسلوب مُشابه للمدن الملَكية الأخرى. ولما كان من غير المعقول أن يقوم سليمان بتدمير مدينة تابِعة له ويُعيد بناءها بعد ذلك، فإن مِن المُمكن أن يكون فرعون مصر قد أخذها وتنازل عنها لسليمان الذي لم يكن قادرًا حتى ذلك الوقت على اكتساب أطراف أرض كنعان بقواه الذاتيَّة. ومن الممكن أن يكون سليمان هو الذي أعاد بناءها، أو يكون المسئول عن ذلك ملوك السامرة الأوائل الذين ربما كانوا أيضًا مسئولين عن بناء مَجِدو وحاصور. إلا أنَّ هذه الرواية تحتوي على عنصر ملحميٍّ وعلى تناقض إخباري. أما العنصر الملحمي فهو زَواج الملك سليمان من ابنة فرعون مصر وتجشَّم هذا الفرعون مشاقَّ الصعود إلى كنعان وتدمير مدينة من أجل مهر ابنته.

فمن المعروف تاريخيًّا أنَّ فراعنة مصر لم يُزوِّجوا أبدًا أميرة مصرية إلى أحد من ملوك الدول الكبرى التي عاصرتهم؛ وذلك انطلاقًا من تقليد راسخ وموقف مُتعالٍ على بقية الشعوب التي ينعتونها بالبربرية، فكيف يخرجون عن هذا التقليد من أجل ملك يحكم بقعة صغيرة واقعة تحت النفوذ المصري؟ وهناك قصة ذات دلالة كبيرة في هذا المجال يَرويها المُؤرِّخ الإغريقي «هيرودوتس» عن سبب اجتياح «قمبيز» خليفة «قورش» الفارسي مصر في القرن السادس قبل الميلاد؛ أي إبان فترة انحلال الحضارة المصرية وتقلُّص نفوذ المملكة السياسي إلى حدِّه الأدنى، فيقول إن قمبيز طلب الزواج من ابنة فرعون مصر، ولكن الفرعون أرسل إليه من بنات البلاط أكثرهن جمالًا مُدَّعيًا أنها ابنته، وعندما عرف قمبيز الحقيقة شنَّ حملته الشهيرة على مصر واحتلَّها من أقصاها إلى أقصاها.[١١]

---

[١١] تاريخ هيرودوتس، ترجمة: حبيب أفندي بسترس، مطبعة القديس جاورجيوس، بيروت ١٨٨٦م. ص١٩٤–١٩٥.

وأما التناقُض الإخباري في مسألة جازر وفرعون مصر فيكمن في أن الروايات التوراتية السابقة قد قدمت معلومات مُتضاربة حول هذه المدينة، ففي سِفر يشوع ٢١: ٢٢؛ وأخبار الأيام الأول ٦: ٦٧ يرد أنَّ مدينة جازر قد أعطيت لبني قهات من اللاويين. وفي يشوع ١٦: ١٠ يرد أن الإسرائيليِّين لم يقدروا على طرد الكنعانيين منها فسكنوا معهم. وفي القضاة ١: ٢٩ نجد أن الكنعانيين كانوا فيها عبيدًا تحت الجزية. وأخيرًا نجدها مدينة كنعانية مُستقلَّة لم تقدر قوة المملكة الموحدة المزعومة على وضعها تحت سيطرة السلطة المركزية في أورشليم إلا بمعونة جيش أجنبي، وهو الخبر الأصح عن جازر؛ لأنه لو كان فيها إسرائيليُّون يعيشون إلى جانب الكنعانيِّين لما سمح سليمان بتدميرها، ولما تجشَّم الفرعون مشقَّة الصعود إليها ومساعدة الملك سليمان على أهلها.

من هنا فإنَّ الخبر التاريخي المؤكد الذي تقدمه الرواية التوراتية بعد اختبارها على محكِّ البينة الأركيولوجية، هو أن فرعون مصر، في فترة انحسار النفوذ المصري عن بلاد الشام وصعود قوة آشور، قد حاول تقوية دولة صغيرة قامَت على حدوده لتكون خطًّا دفاعيًّا مُتقدمًا في وجه القوات الآشورية التي كانت قد بدأت حملاتها المُتفرِّقة على بلاد الشام. وممَّا يُؤكد نجاح هذه الاستراتيجية المصرية، هو ما رأيناه مِن استنجاد ملوك يهوذا الذين خلفوا سليمان، بمصر، كلَّما حاق بهم الخطر الآشوري، واستعداد مصر الدائم لقتال الآشوريين في أرض فلسطين، وقد دمَّر الفرعون مدينة جازر وجوارها وأعطاها لسليمان الذي أعاد بناءها وضمَّها إلى مملكته.

هذا وسيكون لنا وقفة أطول في فصل قادم مُستقلٍّ يُعالج مسألة تاريخية الرواية التوراتية.

بعد السامِرة وأورشليم والمدن الملكية الثلاث، نتابع بسط البيِّنة الأركيولوجية من خلال عدد آخر من المواقع الكنعانية.

(٤) بيت شان

تمَّ التعرُّف على «بيت شان» قرب مدينة «بيسان» الحالية في فلسطين؛ وذلك في الحملة التنقيبية التي نظمتها جامعة بنسلفانيا في ثلاثينيات هذا القرن بإشراف السيد A. R. Rowe وقد بيَّنت التنقيبات أنَّ الموقع كان مسكونًا منذ الألف الرابع قبل الميلاد، ثم ظهرت المدينة المسوَّرة التي بلغت أوج ازدهارها إبان القرن الرابع عشر قبل الميلاد، ولعلَّ أكثر

مُكتشَفات بيت شان إثارة للانتباه، سلسلة من المعابد الكنعانية المُتموضعة فوق بعضها في طبقات آثارية مُتتالية، ويُظهر المعبد الذي يرجع بتاريخه إلى الفترة ما بين القرنين الثاني عشر والثالث عشر في تصميمِه وعمارته تأثُّرًا بالمعابد المصرية الصغيرة من فترة تل العمارنة. وقد عُثر في حرم المعبد على تماثيل لآلهة كنعانية ومصرية، ممَّا يُشير إلى عبادة مختلطة مصرية كنعانية وإلى نفوذ مصري واضح، ولربما إلى وجود حاميات مصرية كانت تقيم بشكل دائم هناك منذ عهد سيتي الأول. يليه معبد يرجع إلى الفترة الإسرائيلية، وآخر إلى الفترة الهلنستية، وأخيرًا كنيسة بيزنطية.[١٢]

ويُؤكد قوة النفوذ المصري في بيت شان (كما فصلنا أثناء دراستِنا للسجلات المصرية) العثور على نُصب تذكاري تركه الفرعون سيتي الأول (١٣٠٢–١٢٩٠ق.م.) في الموقع، يذكر فيه أنه صد عن بيت شان جحافل الأعداء وأجبرهم على التراجُع، وتمثال لرمسيس الثالث (١١٩٨–١١٦٦ق.م.) مع نصٍّ تركه أحد قادة هذا الفرعون، يذكر أنه قد وصل بقواته إلى شمال فلسطين وهو يطارد فلول شعوب البحر. يُضاف إلى ذلك عدد من النقوش الهيروغليفية الأبكر ترجع إلى عهد تحوتمس الثالث (١٤٩٠–١٤٣٦ق.م.).

في الطبقة الآثارية الخامسة التي تَرجع إلى القرن العاشر قبل الميلاد تظهر مجموعة من الأبنية الجديدة بعضها ذو طابع رسمي، تشابه في أسلوب البناء ونوع الحجارة المنحوتة المستخدمة أبنية المدن الملكية الثلاث، مما يُشير إلى أنَّ السلطة المركزية (التي ربما كانت السامرة) قد أولَت هذه المدينة عنايةً خاصة وفي عهد المملكة المُنقسمة تتبَع بيت شان بالتأكيد إلى المملكة الشمالية، ويتزايَد فيها عدد الأبنية ذات الطابع الإداري.[١٣] ويبدو أن بيت شان قد نجت بطريقة ما من التدمير الآشوري الذي نال مِن مُعظم المراكز الحضرية للمملكة الشمالية؛ إذ لا تظهر التنقيبات في الموقع آثار دمار يرجع إلى تاريخ الاجتياح الآشوري.

وهكذا تَجتمع في موقع بيت شان كل البينات المُعاكسة لنظرية كمال الصليبي. فاسم الموقع قديم قدم سكناه، وقد وُجد مكتوبًا في الوثائق التي عُثر عليها بين أنقاض المدينة، ولا علاقة لليهود النازحين إلى فلسطين بتسميتِه تيمنًا بموقع قديم في غرب العربية كما يرى الصليب]، واللقى المصرية التي وُجدت في الموقع من نُصب وتماثيل ونقوش تُثبِت

---

[١٢] K. Kenyon, Archaeology in the Holy Land, op. cit., pp. 197, 320–21.

[١٣] Ibid., pp. 227–229, 251–252, 273.

أن مسرح السجلات التاريخية المصرية هو بلاد الشام لا غرب العربية، ونتائج التنقيب الأركيولوجي تتَّفق مع الروايات المصرية والآشورية. ومع ذلك ودون توقُّف عند هذه الحقائق، يَنقل الصليبي بيت شان إلى منطقة الطائف فيَجدها في قرية «الشنية»، وذلك في حاشية صغيرة مُقتضبة (ص٢٠٩ الحاشية ٣).

(٥) بيت شمس

تمَّ التعرُّف على «بيت شمس» في تل «عين شمس» إلى الغرب من مدينة القدس. وفي مُنتصَف المسافة بينها وبين البحر المتوسِّط، وقد تمَّ التنقيب في الموقع لأول مرة من قِبل «صندوق اكتشاف فلسطين» في بريطانيا. وذلك بين عامي ١٩١١ و١٩١٢م ثم قامت المدرسة الأمريكية للدِّراسات الشرقية بالقدس بالحملة التنقيبية الثانية؛ وذلك بين عامي ١٩٢٨ و١٩٣١م. وقد تبيَّن أن المدينة قد تأسَّست في عصر البرونز الوسيط، أوائل الألف الثاني قبل الميلاد، واستمرَّت إلى عصر الحديد الثاني أواسط الألف الأول قبل الميلاد.[١٤]

ورغم أن النصَّ التوراتي قد اعتبرَها الحد الأدنى الغربي لبني إسرائيل في مُواجهة الفلستيين من سكان الساحل، فإنَّ الطبقة الآثارية العائدة إلى القرن الثاني عشر قبل الميلاد تُظهر أن المدينة كانت تحت سيطرة الفلستيين؛ وذلك لشيوع الخزف الفلستي فيها. وقد دُمرت المدينة في أواخر القرن الحادي عشر، وهي الفترة التي عرَفت الحروب الطاحنة بين الفلستيين وشاول أول ملوك بني إسرائيل. وبعد إعادة بناء المدينة تمَّ تدميرها مجدَّدًا حوالي عام ١٠٠٠ق.م.، وهي فترة الصراع بين الملك داود الذي خلف شاول والفلستيين. وعندما أُعيد بناء المدينة، غاب عنها الطابع الفلستي وساد الطابع الكنعاني المميَّز لمدن فلسطين في تلك الفترة، ثم استمرَّت بيت شمس كجزء من مملكة يهوذا الجنوبية.[١٥]

بعد الاجتياح الآشوري الكبير لفلسطين وسقوط مملكة إسرائيل بكاملها في يدِ الآشوريِّين فيما بين ٧٣٤ و٧٢١ق.م. بقيت مملكة يهوذا التي حرضت الآشوريين على جيرانها الشماليين، في حالة استقلال شكلي حتى عام ٧٠٥ق.م. عندما توجَّه إليها سنحاريب لتأديب ملكها حزقيا الذي توقَّف عن دفع الجزية بوعود وتحريض من مصر.

[١٤] Ibid., p. 321.

[١٥] Ibid., pp. 231–32–252.

فاجتاح سنحاريب كل مدن يهوذا ودمَّر وأحرق معظمها وحاصر أورشليم طويلًا ثم ارتدَّ عنها قائمًا بالإتاوة الباهظة التي قدمها حزقيا.

وكانت بيت شمس من المدن التي تلقَّت ضربات سنحاريب الأليمة، حيث أظهرت التنقيبات في الطبقة العائدة إلى ذلك التاريخ دمارًا كاملًا للمدينة وحرائق شاملة ثمَّ أُعيد بناؤها مجددًا ولكنها لم تُكمل قرنًا آخر من حياتها حتى دُمِّرت مجددًا في مطلع القرن السادس قبل الميلاد، في تاريخ يَتطابق وحملة نبوخذ نصر الذي قضى على أورشليم ومملكة يهوذا عام ٥٨٧ق.م.[١٦]

لم تَرِد مدينة بيت شمس في كتاب الصليبي، ولم يَقترح موقعًا لها في غرب العربية.

(٦) شكيم

تمَّ التعرُّف على شكيم في «تل بلاطة» قرب نابلس الحديثة؛ وذلك في الحملة التنقيبية الأول التي جرت بين عامي ١٩١٣ و١٩٣٤م بإشراف الدكتور E. Sellin والدكتور G. Walter. وبعد فترة من التوقف، تابع التنقيب الدكتور G. E. Wright بين عامي ١٩٥٦ و١٩٦٤م. وقد بيَّنت النتائج أنَّ الموقع كان مسكونًا منذ العصر الحجري الحديث، إلا أن المدينة المسوَّرة لم تَظهر إلا في عصر البرونز الوسيط، في مطلع الألف الثاني قبل الميلاد. وقد دُمِّرت المدينة في نهاية عصر البرونز الوسيط أواسط القرن السادس عشر قبل الميلاد، ثمَّ أعيد بناؤها في عصر البرونز الأخير، وكانت ذات شأنٍ في فترة تلِّ العمارنة؛ حيث ظهر اسمها واسم ملكها «لابايو» في المُراسَلات بين حكام فلسطين وفينيقيا من جهة، وفرعون مصر من جهة أخرى.

ثم دُمِّرت المدينة مجددًا في أواخر القرن الثاني عشر قبل الميلاد، ولم يُعد بناؤها إلا في القرن العاشر قبل الميلاد. وقد استمرت جزءًا من مملكة إسرائيل الشمالية إلى حين الاجتياح الآشوري؛ حيث دُمِّرت هذه الطبقة الآثارية تمامًا حوالي ٧٢١ق.م. أي حوالي التاريخ الذي دُمِّرت فيه مدينة السامرة عاصمة المملكة. وقد أعقب ذلك فترة فراغ في الاستيطان استمر حتى عام ٣٣١ق.م. حيث نهضت المدينة مجدَّدًا وصارت مركزًا للفئة الدينية اليهودية المنشقَّة المعروفة بالسامريين.[١٧] وعندما أعاد الرومان بناء المدينة بعد

[١٦] Ibid., pp. 289–299.

[١٧] Ibid., pp. 341–342.

خرابها أثناء القضاء على الفِتَن اليهودية، أسموها «فلافيا نيابوليس»[18] أي المدينة الجديدة، ومنه جاء اسم نابلس.

ويَقترح الصليبي مكانين مُحتملَين لشكيم. فهي إما «سقامة» الحالية في وادي سقامة على المنحدَرات الجنوبية الغربية من بلاد زهران، أو «القاسم» الحالية في منطقة القنفذة، ويَبعد الموقعان عن بعضهما حوالي ٢٠٠كم.

(٧) لخيش

تمَّ التعرف على «لخيش» في «تل الدوير» غرب مدينة «الخليل» في مُنتصَف المسافة تقريبًا بينها وبين البحر، وقد بدأت الحملة التنقيبية الأولى بين عامي ١٩٣٢ و١٩٣٧م بإشراف السير H. Wellcome والسير Ch. Marston، ثم توقَّف التنقيب حتى عام ١٩٧٣م؛ حيث بدأ مجددًا بإشراف الدكتور D. Ussishkin. وقد بيَّنت نتائج التنقيب أن الاستيطان في الموقع قد ابتدأ في العصر النحاسي، واستمرَّ شكله البسيط إلى عصر البرونز الوسيط حيث ظهرت المدينة المسورة مع مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، وقد تمَّ تدمير هذه المدينة في أواخر القرن الثالث عشر أو أوائل الثاني عشر، وربما كان المسئول عن ذلك شعوب البحر أثناء تقدمهم نحو مصر، أو الفرعون رمسيس الثالث الذي صدَّ هجومهم وطاردهم إلى أرض فلسطين، ثم بُنيَت المدينة مُجدَّدًا بعد ذلك، وهناك آثار سور جديد يعود إلى أواخر القرن العاشر، وربما كان هو السور الذي بناه رحبعام أثناء تحصينه للمدينة في وجه حملة شيشناق الأول (انظر أخبار الأيام الثاني ١١: ٥–١١). وقد بقيَ هذا السور قائمًا حتَّى دمار المدينة على يد الآشوريين.[19]

في نهاية القرن الثامن قبل الميلاد، تظهر في الطبقة الآثارية العائدة إلى هذا التاريخ آثار حرائق ودمار شامل، وقد كان هذا من فعل سنحاريب الذي غزا مدن يهوذا عام ٧٠٥ق.م. فالنصوص الآشورية تتحدَّث عن حصار لخيش والقضاء عليها من قِبل

---

[18] «فلافيا» نيابوليس Flavia Neapolis؛ أي المدينة الفلافية الجديدة، نسبةً إلى الإمبراطور، «فسباسيان» مؤسس السلالة الفلافية التي ضمَّت ثلاثة أباطرة هم فسباسيان، وتيتوس ودوميتان، وحكمت من عام ٧١ إلى عام ٩٦ ميلادية.

[19] Ibid., pp. 331–32, 206–227, 281.

سنحاريب، كما تُصوِّر إحدى المنحوتات البارزة التي عُثر عليها في مدينة نمرود بآشور حصار مدينة لخيش. وتتقاطع الأخبار الآشورية مع الروايات التوراتية حول حصار المدينة ممَّا يُمكن مُراجعته في سِفر الملوك الثاني ١٨: ١٤و١٧؛ وأخبار الأيام الثاني ٣٢: ٩؛ وإشعيا ٣٦: ٢، و٣٧: ٨. وقد عثَر المُنقِّبون بين أنقاض هذه الطبقة الآثارية على أسلحة آشورية كانت مُستخدمةً في تلك الفترة، وعلى خوذات حربية مُماثلة للخوذات التي يَضعها الجنود في نحت النمرود الذي يُصوِّر حصار لخيش.[٢٠]

ثم بُنيَت المدينة مجدَّدًا واستمرَّت جزءًا مِن مملكة يهوذا بعد تراجُع سنحاريب، ولكنَّها دُمرت بعد قرابة قرن من الزمان إبان حملتي نبوخذ نَصَّر على يهوذا بين عامي ٥٩٨ و٥٨٧ق.م. (انظر سِفر الملوك الثاني ٢٤، و٢٥؛ وإرميا ٣٤). وتظهر التنقيبات في الطبقة العائدة لهذه الفترة، آثار دمار كبير وحرائق هائلة وجُثَث نالت منها النِّيران قد دُفنت بالآلاف في مقابر جماعية، وفي الكثير منها آثار الإصابات الحربية. وتتشابَه هذه البينات الآثارية في لخيش مع ما تمَّ اكتشافه في مدن يهوذا الأخرى التي دُمر معظمها وأكثرها لم يُعد سيرته الأولى.[٢١]

وقد عثر المُنقِّبون في غرفة الحراسة المتصلة ببوابة سور لخيش على مجموعة من الرسائل موجَّهة من قائد قوة عسكرية إلى سيده. والنصوص في حالة سيئة جدًّا بسبب الانهيارات والحرائق التي حلَّت ببوابة السور حيث حفظت إلى يومنا هذا، مما جعل قراءتها وتفسيرها موضع خلاف بين العلماء. وقد ورد في الرسالة الرابعة ذكر لمدينة لخيش ومدينة عزيقة وهما المدينتان الحصينتان اللتان صمدتا حتى النهاية أمام جيوش نبوخذ نَصَّر وكانتا آخر ما سقط. نقرأ فيه إرميا ٣٤: ٦–٧: [فكلَّم إرميا النبي، صدقيا ملك يهوذا بكل هذا الكلام في أورشليم؛ إذ كان جيش ملك بابل يحارب أورشليم وكل مدن يهوذا الباقية: لخيش وعزيقة، لأن هاتين بقيَتا في مدن يهوذا مدينتين محصنتين]. وقد ورَد في نهاية الرسالة الرابعة المنوه بها أعلاه ما يأتي: [... وليعلم سيدي أننا نترقَّب إشارات لخيش، وَفق كل المؤشِّرات التي أعطاها سيدي؛ لأنَّنا لا نرى عزيقة].[٢٢] والجو

[٢٠] Ibid., p. 290.

[٢١] Ibid., pp. 299–231, 305–06.

W. F. Albright, Palestinian Inscriptions (in: Ancient Near Eastern Texts), op. cit., p. 322.

[٢٢] W. F. Albright, Palestinian Inscriptions (in: Ancient Near Eastern Texts) op. cit., p. 322.

العام لهذا النصِّ يُوحي بأنَّ قائد القوة العسكرية يَنتظِر إشارات من جهة مدينة لخيش لأنَّ مدينة عزيقة قد سقطت.

غير أن لكمال الصليبي وجهة نظر أخرى في هذا النَّص الواضح إلى درجة معقولة، فهو يرى أن كلمة «لخيش» يجب أن تجزأ إلى «ل» باعتبارها حرف جرٍّ و«كيش» كاسم مشتق من «كشه» أي امتلاء أو شبع بالطعام. وأنَّ كلمة إشارات — التي هي بالكنعانية «مس ء ت» وتَعني في الأصل «ارتفاعات أو صعودات» وفسَّرها مُترجمو النص على أنها إشارات ناجمة عن صعود الدخان — يجب أن تُفسَّر على أنها حمولات لأنَّ الفعل «نس ء» يعني أيضًا «حمل»، وعليه فالأقرب أن تكون كلمة «مس ء» هي اسم الفاعل من «نس ء» وتعني «حموله» وليس صعودًا أو ارتفاعًا. أما كلمة «مؤشِّرات» بالكنعانية «ء تت» من الفعل «ء ته» الذي يجب أن يُقارن برأيه بالفِعل العربي «أتا» ومنه أتت الشجرة أي طلع ثمرها وكثر حملها، لتغدو الكلمة «أتأوى» بدل «المؤشرات» أو «الدلالات».

أما كلمة «عزيقة» التي لم يَستطِع شطرها إلى قسمَين كما فعل في «ل – كيش» فيرى فيها اسم رجل لا اسم المدينة. وعليه تُصبح ترجمة النص بعد كل هذه الاجتهادات المتطرفة وتشطير الكلمات والاستعانة باللغة العربية كما يأتي: [ليعرف مولاي أننا ننتظر حمولات الطعام وكذلك كل الأتاوى التي أعطاها مولاي؛ لأننا لا نستطيع رؤية (السيد) عزيقة] (ص١٠٩–١١٠). بعد ذلك يَغفل عن إعطائنا مكانًا للخيش في غرب العربية.

نَكتفي بهذا القدر من المسح الأركيولوجي للمواقع الكنعانية، فقائمة المواقع الطويلة، وغرض هذا الكتاب لا يَسمح بأكثر مما جرى عرضه من بيانات. وسنَنتقِل في الفصل القادم إلى ساحل فلسطين الذي استقبل موجة من شعوب البحر استوطنته وعاصرت الفترة المؤقَّتة والعابرة للسيطرة السياسية الإسرائيلية على أرض كنعان، ثم ذابَت تدريجيًّا في بحر كنعان عرقيًّا وحضاريًّا.

الفصل الخامس

ماذا عن الفلستيين؟

في أواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد، تعرَّضت الحضارة المِسينية[1] على البرِّ اليوناني إلى سلسلة من الهجَمات البربرية دمرت كل مراكزها الحضَرية الهامَّة، وأدَّت إلى تشتُّت أهلها في الأصقاع المجاورة، وكمون المد الحضاري في اليونان وفي جزر بحر إيجة التي تعرَّضت للخطر ذاته. ويبدو أن ضغط البرابرة على اليونان وحضارة بحر إيجة، قد أدى إلى سلسلة من تحركات الشعوب الغالبة منها والمغلوبة، بحثًا عن مواطن جديدة للاستقرار بعيدًا عن عالم قد تمَّ تهديمه تمامًا، وعمَّته الفوضى والاضطراب والفقر المدقع. وقد وصلت طلائع هذه الفئات الهائمة إلى شماليِّ أفريقيا وتعاونت مع الليبيِّين الذين كانوا يتربَّصون منذ زمن للانقضاض على مصر، فتقدَّموا جميعًا نحو الدلتا في محاوَلة للاستقرار فيها. ولكن الفرعون «مرنفتاح» استطاع القضاء عليهم وردهم عن حدود مصر البرية والبحرية عام ١٢٢٠ق.م.

وفي الوقت نفسه تَقدَّمت حملة أخرى من نقطة ما من الأرخبيل الإيجي فحطَّت على شواطئ آسيا الصغرى ودمَّرت المملكة الحثية التي لم تَقُم لها قائمة بعد ذلك، ثمَّ توجَّهت نحو بلاد الشام فسقطت أمامها ممالك سورية الشمالية مِن أُوغاريت إلى كركميش. بعد ذلك تقدَّمت هذه الشعوب نحو أواسط سورية حيث أقامت لها محطَّة مُستقرَّة في مملكة «آمورو» تحفزًا للانقضاض مرةً أخرى على مصر، أسمن الطرائد في ذلك العصر. وفي

---

[1] نَستعمِل هنا كلمة «مسيني» و«مسينية» كترجمة لكلمة Mycenae المنسوبة إلى مدينة Mycenae وذلك جريًا على المُصطلح الشائع في المراجع العربية إلى وقتٍ قريب إلا أنَّنا نودُّ التنبيه إلى أن مُصطلح «موكيني» و«موكينييه» قد بدأ يحلُّ في العربية محل الأول، وهو الأصح.

طريقها إلى مصر أشاعت الدمار في مَمالك الدويلات الفلسطينية، ولكن المصريين استطاعُوا ردَّهم للمرة الثانية عن حدودهم؛ إذ قام الفرعون رمسيس الثالث بتشتيتهم والقضاء عليهم نهائيًّا كقوة ضاربة قادِرة على التحرُّك العسكري؛ وذلك حوالي عام ١١٩١ق.م. ومنذ ذلك الوقت اختفى ذِكرهم من التاريخ. وبعد الهزيمة التي حلَّت بهم، سمح الفرعون المصري لِقسمٍ منهم وهم البيلست أو الفيليست بالتوطُّن على الساحل الفلسطيني الأدنى.

وقد دعيت هذه الموجات التي غزَت بلاد الشرق الأدنى القديم بشعوب البحر؛ لأن مصدر انطلاقها كان من جزء بحر إيجة على ما تذكُره السجلات المصرية. فمن سجلِّ حملة رمسيس الثالث، نعرف أن خمسة شعوب انطلقت مِن جُزُرها الشمالية هي: «التجاكر» و«الوشوش» و«الشيكليش» و«البيلست» و«الدينيان»، فقضَت على «حاتي» و«كود» و«كركميش» ثم تقدمت إلى مصر من آمورو، ولكن الفرعون بادَرها بالتحرُّك نحو بلاد «زاهي» حيث شتَّتهم واستأصلَ شأفتَهم إلى الأبد.[٢] وقد أمكن لعِلم الآثار تتبُّع تحركات شعوب البحر، من خرائب الحضارة المسينية في اليونان إلى الدَّمار الفاجع للمَملكة الحثية في آسيا الصغرى إلى أوغاريت وكركميش وبقية دويلات ممالك بلاد الشام. ونظرًا لعدم اهتمام مصر بمَناطق نفوذِها السابقة في بلاد الشام، فقد قامت بعض الفئات التي شتَّتها رمسيس الثالث بالتوطُّن في مناطق الساحل السوري، وأسَّسوا لهم خمس مدن وهم المعروفون في التوراة باسم الفلسطينيِّين.[٣]

هذه باختصار أخبار شعوب البحر التي أتَت بالفلستيين التوراتيين إلى بلاد كنعان. فماذا قال كمال الصليبي في أمر الفلستيِّين؟ يقول في مقدمته وقبل الدخول في مقارناته اللغوية، ما يلي:

[الفلستيُّون، بين شعوب العهد القديم هم الأكثر وضوحًا والأكثر إثارة للحيرة في آنٍ معًا. وإثارتهم للحيرة لا تبدو مبعث دهشة؛ إذ إن الباحثين دأبوا على البحث عن موطنهم التوراتي في المكان الخطأ. ولأنه أشير إلى الفلستيِّين في بعض الفقرات على أنهم «كريتيون» (كرتي، نسبة إلى كرت)؛ فقد ساد الاعتقاد بأنهم كانوا في الأصل «شعب بحر» من أصل

---

[٢] J. A. Wilson, Egyptian Historical Texts (in: Ancient Near Eastern Texts), op. cit., pp. 262–263.

[٣] الفلسطينيُّون في الترجمات العربية للتوراة كلمة غير دقيقة الترجمة ومتأثِّر بالاسم الحالي لفلسطين باللغة العربية.

عرقي غامض توطَّن أصلًا في جزيرة كريت في البحر المتوسط، ثم انتقل مِن هناك واستقرَّ في ساحل فلسطين. والأمر المؤكد هو أن الفلستيين الذين تتحدث عنهم التوراة العبرية لم يكونوا فلستيي فلسطين، ولا هم أتوا على كل حالٍ مِن جزيرة كريت. ولا بدَّ أن كرت التوراتية (صموئيل الأول ٣٠: ١٤ صفنيا ٢: ٤–٥، حزقيا ٢٥: ١٥–١٦) كانت وادي «كريت» (كرث)، وهو رافد لوادي «تيه» في مُرتفعات رجال ألمع، وهناك واحة تُسمَّى «الكراث» (كرث) في وادي بيشه، حيث هناك قرية تُسمَّى «الفلسة» (قارن مع العِبرية فلشت التي يكون جمع النسبة إليها فلشتيم أي فلستين)] (ص٢٤٥–٢٤٦).

وبعد أن يجد لكل مدينة من مدن الفلستيين الخمس مكانها في غرب العربية، يَنتهي إلى القول: [ومهما كانت الأماكن الأخرى التي وُجد فيها الفلستيُّون التوراتيُّون، فقد كانت لهم مدنهم الرئيسية في الجانب البحري من عسير وجنوب الحجاز … وذلك حتى زمن ملوك إسرائيل الأوائل الذين قضوا عليهم أو على وجودِهم المُستقلِّ في تلك المناطق. (وربما كان في ذلك ما يُفسر هجرة الفلستيِّين إلى الشام حيث أعطوا اسمهم لأرض فلسطين)، وقد كانت أراضيهم هناك مُتداخلة مع أراضي بني إسرائيل والشعوب المحلية الأخرى. وليس في التوراة العبرية ما يُفيد بأنهم كانوا في الأصل مُستوطنين غرباء في البلاد، وصلوا إليها كأهل بحرٍ من الخارج. وهذا الرأي ما هو إلا من تصوُّر الباحثين التوراتيين، وليس هناك ما يُسنده إطلاقًا …] (ص٢٥٣–٢٥٤).

والحقيقة، فإن السند الذي لا يَتصوَّر الصليبي وجوده إطلاقًا، يأتي من النصوص التوراتية ذاتها، ومن مقاطع أغفل الصليبي الإشارة إليها تمامًا. فإضافة إلى وصف التوراة للفلستيين بأنهم كريتيُّون كما هو الأمر في سِفر صفنيا ٢: ٤–٥؛ وحزقيا ٢٥: ١٥–١٦، فإنه يَنسبهم إلى جزيرة «كفتور» وهو الاسم التبادلي، في التوراة لجزيرة كريت المعروفة في البحر المتوسِّط. نقرأ في سِفر إرميا ٤٧: ٤ [بسبب اليوم الآتي لهلاك كل الفلسطينيين، ليَنقرض من صور وصيدون كل بقيةٍ تُعين؛ لأن الرب يُهلك الفلسطينيِّين، بقية جزيرة كفتور]، فهم إذن أهل بحر أتوا من جزيرة. وكذلك هم غرباء عن كنعان أتوا إليها من الخارج شأنهم في ذلك شأن الإسرائيليِّين. نقرأ في سِفر عاموس ٧: ٩ [ألم أصعد إسرائيل من أرض مصر؟ والفلسطينيين من كفتور؟] وفي سِفر التثنية ٢: ٣٢ [… والعويون الساكنون في القُرى إلى غزة، أبادَهم الكفتوريُّون الذين خرجوا من كفتور وسكنوا مكانهم].

وكفتور هذه، لم تَرِد في التوراة فقط، بل في العديد من نصوص الشرق القديم. ففي أسطورة بعل وعتاة الأوغاريتية تَبعث الإلهة «عشيرة» برسولها إلى كفتور، التي هي كريت

في نصوص أوغاريت، لإحضار إله الحرف والصناعة من هناك ليبني بيتًا للإله بعل.[٤] كما ترد كفتور في النصوص المصرية بصيغة «كيفتو» للدلالة على كريت وجزر بحر إيجة، وحذف الراء من الاسم في الهيروغليفية وارد؛ لأن الراء في كفتور هي لاحقة وليسَت من أصل الكلمة.[٥]

أما السند الآخر الذي لا يَتصوَّر الصليبي وجوده، فيأتينا من علم الآثار فلقد أعطت نتائج التنقيب الأركيولوجي على الساحل الفلسطيني معلومات وافرة عن بدايات الاستيطان الفلستي ونشوء مدن الفلستيين الخمسة: غزة وجت وأشقلون وأشدود وعقرن، التي تمَّ التعرُّف عليها جميعًا. فمع بداية القرن الثاني عشر قبل الميلاد، يَظهر بشكلٍ مفاجئ في المنطقة الساحلية الفلسيطينية نمط من الخزف غير معروف في كنعان قبل ذلك، وهذه الخزفيات التي اكتُشفت على وجه الخصوص في المواقع الخمسة المذكورة أعلاه، تُشبه الخزفيات السائدة في بحر إيجة في تلك الفترة، دون أن تكون نسخًا مُطابقة لها، مما يدلُّ على أنها قد صُنعت محليًّا من قِبَل مهاجرين أتوا من تلك المنطقة، ولم تُجلب معهم من موطنهم الأصلي. وبعد فترة قصيرة تغدو هذه الخزفيات النمَط السائد في مواقع الفلستيين التاريخية، مع تواجُد عرضي في بعض المناطق المتاخمة لهم، ولكنها تنعدم كليًّا في المناطق الداخلية من فلسطين. ومن الملفت للنظر أن الخزف الفلستي يظهر في معظم المواقع الفلستية بعد طبقة من الخرائب والحرائق التي تَحجب طبقات كنعانية أسبق، مما يدل على أن شعوب البحر قد عادت إلى سكن المواقع التي دمرتها إبان اجتياحها الأول.[٦] وسنعمد فيما يلي إلى تقديم مثالَين يفيان بالغرض، الأول من موقع «أشقلون» والثاني من موقع «أشدود».

أشقلون، مدينة كنعانية قديمة على ساحل فلسطين، ورد ذِكرها في سجلات الفرعون رمسيس الثاني الذي حكم منذ عام ١٢٩٠ق.م.، أي قبل فترة لا بأس بها مِن توطُّن الفلستيين في فلسطين، كما ورد ذِكرها في سجلات الملك الآشوري تغلات فلاصر الثالث في القرن الثامن قبل الميلاد.[٧] وقد تم التعرف عليها في موقع عسقلان الحديثة منذ

[٤] H. L. Ginsberg, Ugaritic Myths (in: Ancient Near Eastern Texts), op. cit., p. 183.

[٥] C. H. Gordon, The Ancient Near East, Norton, New York, 1965, p. 183.

[٦] K. Kenyon, Archaeology in the Holy Land, op. cit., pp. 214–15, 224–25.

[٧] James Pritchard, Ancient Near Eastern Texts, op. cit., pp. 214–15, 224–25.

الحملة التنقيبية الأولى مِن قِبَل صندوق اكتشاف فلسطين ببريطانيا، وذلك بين عامي ١٩٢٠–١٩٢١م. وقد بيَّنت التنقيبات أنَّ الطبقة الآثارية العائدة لعَصر البرونز الأخير، وقد دُمِّرت تمامًا وتغطَّت بطبقة من الرماد سمكها ٥٠سم، تحجب تحتها مدينة نموذجية كنعانية. وفي الطبقة الآثارية التي تلتها مباشرة، تظهر الخزفيات الفلستية الغربية عن أرض كنعان.[٨]

وعلى مسافة ١٥كم تقريبًا إلى الشمال الغربي من عسقلان، تمَّ التعرُّف على مدينة «أشدود» قرب بلدة «أسدود» الحالية، حيث جرت الحملة التنقيبية الرئيسية بين عامي ١٩٦٢ و١٩٧٢م بإشراف البروفيسور M. Dothan. وقد تبيَّن أن الموقع كان مسكونًا منذ العصر النحاسي، إلا أنَّ المدينة المسورة تعود إلى عصر البرونز الوسيط حوالي عام ١٧٠٠ق.م.، واستمرت مزدهرةً إلى عصر البرونز الأخير؛ حيث ورد ذِكرها في سجلات أوغاريت كمدينة مشهورة بتصنيع النسيج. وقد دُمرت هذه المدينة في نهاية القرن الثالث عشر واختفَت تحت طبقة سميكة من الرماد، وعندما أُعيد بناؤها في الطبقة التالية، تأخَّر ظهور الخزفيات الفلستية قليلًا ثم سادت الموقع بشكلٍ كامل، وظهر إلى جانب الفخاريات الفلستية أختام أسطوانية عليها كتابات تَنتمِي إلى الزمرة القُبرصية الإيجية، كما عُثر على تماثيل للإلهة الأم، مصنوعة وَفق الأسلوب الكريتي المعروف. إلا أنه في أشدود بشكلٍ خاص، يظهر بشكل تدريجي وواضح كيفية ذوبان الشخصية الحضارية الفلستية في الشخصية الكنعانية. فمنذ القرن العاشر، يبدأ النمط الخزفي الفلستي في الاختفاء ليحلَّ محلَّه النمط الكنعاني المعروف في عصر الحديد، وتختفي تماثيل الآلهة الكريتية ليتحوَّل الفلستيون إلى الآلهة المحلية[٩] التي نجد أسماءها في التوراة، مثل الإله «داجون» الإله السوري القديم المعروف في نصوص أوغاريت وإيبلا. وفي الحقيقة، لم يكن هذا التحوُّل صعبًا بسبب قرب العبادة الكيريتية من العبادة الكنعانية وتَماثُل آلهتها مع الآلهة الكنعانية.

نَكتفي بهذا القدر من البينات النصية والأركيولوجية التي لم يعبأ بها كمال الصليبي أو لم يكن على علمٍ بها، لنُتابعه في بحثه عن مدن الفلستيين الخمس في غرب العربية، ونجده يعثر على «غزة» في موقع «العزة» الحالي في وادي أضم، و«أشدود» في «السدود» في

---

[٨] K. Kenyon, op. cit., p. 215.

[٩] Ibid., pp. 215.

منطقة رجال ألمع، و«أشقلون» في «شقلة» بجوار مدينة «القنفذة»، و«جت» في «الغاط» بمنطقة جيزان، و«عقرون» في «عرقين» بوادي عتود الفاصل بين رجال ألمع ومنطقة جيزان (ص٢٥٢–٢٥٣). ولكن نظرة سريعة على خارطة الصليبي رقم ٣، تُظهر أمرًا غاية في الغرابة، فالمدن الخمس التي عُثر عليها في غرب العربية، تتوزَّع على مسافات شاسعة جدًّا عبر بلاد عسير من أقصاها إلى أقصاها، وتتباعَد عن بعضها مئات الكيلومترات أحيانًا عبر مساحات مليئة بمدن الشعوب الأخرى التي تعرَّف عليها الصليبي هناك، مثل أهل يهوذا وأهل إسرائيل والكنعانيِّين والآراميين. فالعزة (غزة) الواقعة في منطقة الليث، والغاط (جت) الواقعة في منطقة جيزان، تبعدان عن بعضهما حوالي ٧٠٠كم. والسدود (أشدود) تبعد عن شقل (أشقلون) أكثر من ٢٠٠كم. وعرقين (عقرون) تبعد عن شقلة حوالي ٥٠٠كم. فكيف تسنَّى لشعب واحد، كان عبر أسفار التوراة عدوًّا تقليديًّا للإسرائيليين، أن يبني مدنه الخمس على هذه الأرض الواسعة، وفي مواقع مُتبعثِرة عبر أراضي الأعداء؟ لقد ذَكر الصليبي مسألة التداخل بين أراضي الفلستيين والإسرائيليِّين، عندما عرج مطولًا على قصة شمشون في التوراة (ص٢٤٥–٢٥٥). ولكن التداخُل شيء والتبعثُر شيء آخر. ولقد كانت أراضي الفلستيين عند حدودهم الشرقية متداخلةً مع أراضي غيرهم، مما أثبته توزع الفخاريات الفلستية، إلا أن الأرض التي شغلوها على الساحل الفلسطيني كانت أرضًا متَّصلة، بمُدنها التي يسهل التوصُّل بينهما والانتقال والتنسيق وتجهيز الجيوش التي كانت تُواجه الإسرائيليين تحت راية فلستية موحَّدة.

وإذا عدنا إلى البيِّنة النصية مرةً أخرى وجدنا كل الشواهد المؤيدة لوجود أرض واحدة متَّصلة للفلستيين، قائمة على وجه التحديد في المنطقة الساحلية، لا في المناطق الداخلية حيث عثر كمال الصليبي على معظم مدن الفلستيين، والتي تتوزَّع بعيدًا عن ساحل البحر بمئات الأميال. نقرأ في حزقيا ٢٥: ١٦ [فلذلك هكذا قال السيد الرب. ها أنا ذا أمدُّ يدي على الفلسطينيين وأَستأصِل الكريتيِّين وأهلك بقية ساحل البحر] وفي صفنيا ٢: ٤–٥ [لأنَّ غزة تكون متروكة، وأشقلون للخراب. أشدود عند الظهيرة يَطردونها، وعقُرون تستأصل. ويل لسكان ساحل البحر أمة الكريتيين].

هذه أسانيد الرأي الذي يقول عنه الصليبي [ما هو إلا مِن تصوُّر الباحثين التوراتيِّين، وليس هناك ما يُسنده إطلاقًا] (ص٢٥٤).

الفصل السادس

علم الآثار وتاريخية التوراة

يقوم المحور الرئيسي في نظرية الصليبي ونهجه على القبول بالرواية التوراتية باعتبارها تاريخًا مؤكَّدًا مُسلَّمًا بصحته، والشك في جغرافيتها. فهو يقول في فصله الأول: [في الدراسة الراهِنة، ستُقلب الأمور رأسًا على عقب، وبدلًا من أخذ جغرافية التوراة العبرية كمُسلَّمة، ومناقشة صحتها التاريخية، سآخُذ تاريخيتها كمُسلَّمة وأناقش جغرافيتَها وبين شعوب الشرق الأدنى القديم. يبدو أن بني إسرائيل كانوا وحدَهم المالكين لإحساسٍ مُرهَف بالتاريخ. أو هم على الأقل الوحيدون الذين فهمُوا أنفسهم تاريخيًّا وعبَّروا عن ذلك بطريقة واضحة مُنسجِمة مُكتملة. وتُقدِّم كتبهم المقدسة رسمًا ذاتيًّا حيًّا ومُفصلًا، وهو رسم فريد من نوعه بالنسبة إلى عصره] (ص٥٣).

وفي الحقيقة، فإنه منذ ظهور النَّقد المنهجي للتوراة اعتبارًا من مطلَع القرن الثامن عشر، لم تقم مدرسة واحدة على القبول المطلق بالرواية التاريخية باعتبارها تاريخًا حقيقيًّا غير خاضِع للمُناقشة أو النقد، نَستثني من ذلك الاتجاه اللاهوتي الذي يؤمن بأن الكتاب في صيغته الحالية، قد دُوِّن بإلهامٍ من الرُّوح القدس. ثم جاء عصر الاكتشافات الأركيولوجية الكبرى في آشور وبابل منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وفي سورية مع مطلَع القرن العشرين، ليضع بين أيدي الباحثين التوراتيِّين معلومات تاريخية ونصية وأركيولوجية، لم يسقطها من حسابه أحد قبل كمال الصليبي قط.

والتسليم بتاريخية التوراة عند كمال الصليبي، هو نتيجة منطقية لنقلِه جغرافيتها ومسرح أحداثها إلى غرب العربية، حيث نَفتقِد إلى أي محكٍّ موضوعي يمكن اختبار روايات التوراة عليه، فالمنطقة لم تُستكشف آثاريًّا، ولم يأتِنا عنها بنبأ واضح أي شعب من شعوب الشرق القديم. والصليبي بعد أن شككنا بكثير من معلوماتنا حول تاريخ بلاد الرافدين والشام ومصر، ورفض السجلات التاريخية كوثيقة يُمكن الاعتماد عليها

(إلا قُرئت على طريقته)، فإنه لم يترك أمامنا من معيار آثاري ونصِّي وتاريخي يُمكن الاعتماد عليه في نقد التوراة، لتبقى وحدها الوثيقة المُعتمَدة، شاهدة على نفسها وشاهدة على أحداث عصرها. وهذه نتيجة لم يضعها في حُسبانه قطعًا عندما [شعر بأن من الواجب عليه أن لا يُبقي ما توصلت إليه معرفته بشأن التوراة سرًّا] (ص١٩).

أما بعد أن أوقفنا على قدمَيها الأمور التي قلبها الصليبي، على حدِّ قوله، رأسًا على عقب، وأوضَحنا المسلَّمات التاريخية والأركيولوجية التي لم تُوضَع قبل ذلك في مُتناول جمهرة القراء من غير المتخصِّصين، فإنَّنا نستطيع الآن أن ندلف إلى امتحان تاريخية التوراة استنادًا إلى البيِّنة الأركيولوجية المدعومة بالبيِّنة التاريخية. ولسوف نُقسِّم الفترة التي تُغطيها أحداث التوراة إلى المراحل الآتية، باحثين عن تاريخية الأحداث في كل منها: (١) عصر الآباء، (٢) الخروج من مصر ودخول بلاد كنعان، (٣) عصر القضاة، (٤) المملكة الموحدة، (٥) المملكة المنقسمة والانهيار.

(١) عصر الآباء

هناك اتِّفاق بين المؤرِّخين على أن تحرُّكات الآباء الواردة في سِفر التكوين، قد جاءت في فترة الاضطرابات التي أحدثها ظهور العموريين في الهلال الخصيب بين نهاية الألف الثالث وبداية الألف الثاني قبل الميلاد. تلك الفترة التي تميَّزت بتعطُّل تام للمراكز الحضارية في المنطقة، وتدمير للمدن ونزوح وهجرات. وقد توسَّطت هذه الفترة بين عصر البرونز المبكر وعصر البرونز الوسيط.

ففي مصر، انتهت المملكة القديمة حوالي عام ٢١٨٥ق.م. إثر غزوات بربرية، شكَّل الآسيويون جزءًا لا بأس به من عناصر البشرية، وأعقب ذلك فترة مِن الفَوضى لم تنتهِ إلا في عام ١٩٩٠ق.م. مع ابتداء حكم الأسرة الثانية عشرة. وفي بلاد الرافدين، اجتاح العموريون القادمون من السهوب الآسورية كلًّا من سومر وأكاد وأسَّسوا الأسرة العمورية التي اشتهر من ملكوها حمورابي. وتلقت فلسطين موجة من هؤلاء العموريين قضَت بشكلٍ كامل على مدن عصر البرونز المبكر، أعقبتها فترة فراغ طويلة في الاستيطان الحضري؛ لأنَّ العموريين في فلسطين لم يَعبئوا في البداية بسكن الحواضر، ولم يَعمدوا إلى إعادة بناء المدن التي دمَّروها، بل سكنوا على أطرافها فتابعوا حياتهم شبه البدوية ذات التنظيم القبلي. وقد استطاعت التنقيبات الأثرية اقتفاء أثر هؤلاء العموريين في فلسطين، بتتبع أنماطهم الخزفية المُتميزة عن خزفيات عصر البرونز المبكِّر وعصر البرونز الوسيط،

وأيضًا عن طريق دراسة شواهدِهم الأثرية التي جاءت بشكلٍ خاصٍّ من القبور. وعندما بدأت المدن الكنعانية تُعيد بماء مواقعها القديمة، خلال الربع الأول من الألف الثاني قبل الميلاد، أخذ العموريون بالذَّوبان في المجتمَعات الناهضة، وبدأت شواهدهم الأثرية بالاضمِحلال حتى زالت تمامًا.[١]

غير أنَّ الفصل الأخير في تاريخ العموريين قد كتَبه الهكسوس في مصر، عندما دخلوها أواسط القرن الثامن عشر قبل الميلاد وأنهوا المملكة المتوسِّطة. فلقد غدا من الثابت اليوم، واعتمادًا على نصوص «ماري» و«أوغاريت» أنَّ أسماء ملوك الهكسوس الذين حكموا مصر خلال فترتها الانتقالية الثانية، هي أسماء إما كنعانية أو عمورية؛ وذلك مثل «يعقوب - هار» و«سموقينا» و«باليما» ... إلخ وصار من الواضح الآن لماذا قال المؤرخ المصري «مانيثو» من القرن الثالث قبل الميلاد، بأنَّ الهكسوس كانوا قومًا من الفينيقيِّين، كما تراجعت نظريات الأصل الحثي أو الحوري أو الهندو أوروبي للهكسوس، على الرغم من إمكانية وجود مجموعات غريبة عن العموريين رافقتهم مصر.[٢]

والرأي الشائع بين الباحثين اليوم، هو أنَّ شخصيات روايات سِفر التكوين في التوراة، مثل إبراهيم وإسحاق، (وهم مَن يُطلِق عليهم الباحثون التوراتيُّون اسم الآباء) تَنتسِب إلى الأقوام العمورية؛ وذلك اعتمادًا على الأصول اللغوية لأسمائهم، كإسحاق ويعقوب وعيسو، وأن تحرُّكاتهم التي ابتدأ مع نزوح إبراهيم من بلاد الرافدين، ترجع إلى النصف الأول من القرن الثامن عشر. وفي الحقيقة، لم يُمكن حتى الآن العثور على أدلة آثارية تثبت رواية سِفر التكوين، لأن تحركات الآباء كانت في حقيقتها تحركات قبلية قامت بها مجموعاتٌ مُتنقِّلة لم تعرف الاستقرار ولا سكنى الحواضر. أما النصوص التاريخية، فصامتة تمامًا عن هذا الموضوع، سواء في بلاد الرافدين وبلاد الشام أم في مصر التي رحل إليها يوسف بن يعقوب وصار هناك الوزير الأول للفرعون — حسب الرواية التوراتية — من هنا، فإن كل ما كُتب ويكتب اليوم، حول روايات الآباء في التوراة، هو محض تخيُّل وافتراض، ومحاولة لاستقراء نصوص التوراة وتفسيرها، على ضوء الأوضاع السائدة في الشرق القديم إبان تلك الفترة. لذا فنحن واجدون من الاجتهادات حول هذا الموضوع قدر

---

[١] K. Kenyon, op. cit., pp. 119–147.

[٢] W. F. Albright, The Role of the Canaanite in History (in the Bible and Ancient Near East, Edited by Ernest Wright, Eisenbrauns, Indiana, 1979) p. 335.

ما لدينا من باحثين تصدَّوا له. أما التاريخ وعلم الآثار فلا يستطيعان البتَّ في مسألة الآباء في المرحلة الراهنة.

فقصص الآباء في سِفر التكوين رغم ترجيح وجود أساس واقعي لها، ليسَت إلا نوعًا من الملحمة البطولية، مما تعوَّدت الشعوب تدبيجه عن البدايات الأولى، ولنا في «الشاهنامة» ملحمة الفرس الشهيرة، خير مقال على ذلك. فالنَّفَس الملحمي يسود في سِفر التكوين، سواء في الأسلوب أم في المضمون. فبعد المقدِّمة الميثولوجية المتعلِّقة بخلق العالَم، تدخل في سلسلة أحداث مليئة بالتهويلات والمبالغات. فنرى مجموعة إبراهيم القليلة تهزم تجمع ملوك بلاد الرافدين السبعة بقيادة «أميرافل» الذي قرنه بعض الباحثين بحمورابي (التكوين ١٤: ١–١٦)، ومدن بكاملها تَختفي من الوجود بنار وكبريت من السماء تَنسكِب عليها (التكوين ١٩: ٢٢–٢٦)، وتوهب الذرية لرجال ونساء في المائة من عمرهم (التكوين ١٧: ١٨–٢٤)، ويأتي الآلهة إلى بيوت البشر ويأكلون على موائدهم (التكوين ١٨: ١–٢٣)، وتَلتحِم بعض شخصيات الآباء في صراع جسدي مع الآلهة (التكوين ٣٢: ٢٢–٢٩).

(٢) الخروج من مصر، ودخول كنعان

بعد ذلك تترك الرواية التوراتية فجوة زمنية تمتد قرابة أربعمائة سنة في تسلسل أحداثها، فالنص يتنقَّل مباشرة من موت يوسف في مصر واستبعاد بني إسرائيل هناك من بعده. إلى ولادة موسى، ويَصمُت صمتًا تامًّا عن حياة الأسباط الاثنَي عشر في مصر بين هذين الحدثين، الأمر الذي دعا كثيرًا من الباحثين إلى القول بأن الخارجين من مصر لا علاقة لهم بالآباء الأولين، وأن الربط بين التقليديين الشفويين، قد تمَّ على يد مُحرِّري التوراة المتأخرين.[٣]

أما عن زمن الخروج، فهناك اتِّفاق على وضعه قرابة ١٢٦٠ق.م.، إبان حكم الفرعون رمسيس الثاني الذي اشتهر بتشييد المباني العامة والصُّروح الضخمة، اعتمادًا على اليد العامِلة المسخَّرة، والذي اتخذ عاصمة له في منطقة الدلتا، حيث يسهل الفرار إلى بلاد الشام

[٣] نودُّ أن ننبه هنا، إلى أن القرآن الكريم لم يربط بين شخصية يعقوب حفيد إبراهيم، وإسرائيل، الجد الأعلى لبني إسرائيل، ولم يورد كلمة إسرائيل كاسم علم إلا مرةً واحدة: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ (آل عمران: ٩٣).

القريبة. وقد ورد في سِفر الخروج، أن خروج بني إسرائيل قد تمَّ من مدينة «رعمسيس» باتجاه «سكوت» (الخروج ١٢: ٣٧). ومدينة رعمسيس معروفةٌ في التاريخ المصري، فهي التي بناها الفرعون رعمسيس الثاني في الدلتا قرب الحدود المصرية الشرقية وأطلق اسمه عليها. إلا أنه رغم الجهود الكبيرة التي بذَلها المؤرِّخون حتى الآن، فقد فشلوا في إيجاد أساس تاريخي لقصة الخروج من مصر، وبقيت النصوص المصرية صامتة صمتًا مطبقًا عن هذا الحدث المركزي في كتاب التوراة. مما يرجح أن الخروج قد قامت به مجموعة صغيرة من الأجراء المسخَّرين فرت بشكل سِلمي، أو سمح لها بالخروج والعودة من حيث أتت. فمن غير المعقول أن يغادر مصر ستمائة ألف مسخر من أشباه العبيد، وينسحبون من الدلتا في قتال تراجُعي نحو برزخ السويس حيث يَهزمون الفرعون ويتسبَّبون في مقتله، دون أن تأتي سجلات ذلك العصر، الذي يُعتبر من أكثر فترات التاريخ المصري توثيقًا، على ذِكرهم.

كل هذا يَجعلنا نلحق سِفر الخروج بسِفر التكوين، باعتباره استمرارًا للقصص الملحمي التي تَعتمِد القليل من الأحداث التاريخية الواقعة. فالسِّفر، كسابقه، مليء بالتهويلات الملحمية، كقصة ولادة موسى وحياته، والأوبئة العشرة التي حلَّت بفرعون وأهل بيته وكل شعبه، وعبور البحر، وقتال العماليق، وبقاء ثياب الهاربين جديدة لا تبلى، وغير ذلك من الأحداث.

أما عن دخول بلاد الشام وعبور نهر الأردن إلى أرض كنعان، فإنَّ نتائج التنقيب الأثري تُشير إلى بطلان الرواية التوراتية في كثير من أحداثها. فالمقاومة المسلَّحة التي واجهها الإسرائيليون من قِبَل ملوك شرقي الأردن لا أساس لها من الصحة؛ لأنَّ منطقة شرقيِّ الأردن كانت خالية من المراكز الحضرية بين القرن السابع عشر والقرن العاشر قبل الميلاد.[٤] أما الاقتحام الصاعق للأراضي الكنعانية عبر الأردن، وتدمير وإحراق مدنها الرئيسية، فلم تَقُم عليه بينة تاريخية حتى الآن، أما البينة الآثارية فتُؤكِّد عدم صحة جزء لا بأس به من الفتوحات المعزوة إلى يشوع بن نون، قائد قوات الغزو الإسرائيلي وسوف نعمد فيما يلي إلى بسط نتائج التنقيب الأثري في أهم ثلاثة مواقع كنعانية، وصفَ سِفر يشوع عملية اقتحامها وإحراقها وتدميرها، وهي: أريحا وعاي وحاصور.

[٤] Kathleen Kenyon, The Bible and Recent Archaeology, op. cit., p. 33.

فيما يتعلَّق بأريحا، يُعطي سِفر يشوع وصفًا دراميًّا حيًّا عن اقتحام المدينة وتدميرها. فبعد الدوران حول المدينة ست مرات، حاملين تابوت العهد نافخين بالأبواق، تسقط أسوار المدينة من تلقاء ذاتها أمام الإسرائيليِّين الذين يدخلون المدينة ويَقتُلون مَن فيها من رجل وامرأة وطفل وشيخ وبقر وحمير وغنم. وقد فسر بعض الباحثين سقوط سور أريحا على أنه نتيجة لزلزال نسَبَه المهاجمون إلى مُعجِزة من الرب، إلا أنَّ لعلم الآثار رأيًا مختلفًا في هذا الموضوع. فرغم أن الزلازل كانت شائعة في فلسطين، إلا أنَّ آثار الدمار الزلزالية في أريحا تعود إلى أزمنة سابقة بكثير للتاريخ المُفترض لدخول الإسرائيليِّين خلال الربع الأخير من القرن الثالث عشر قبل الميلاد. وقد ثبتت أن آخر الزلازل المدمِّرة التي تصدَّع بسببها سور أريحا، قد وقع حوالي عام ٢٣٠٠ق.م.، وأنَّ المدينة قد بُنيت مجددًا حوالي عام ١٩٠٠ق.م.؛ حيث استمرَّت الحياة فيها إلى عام ١٥٦٠ق.م. ثم هُجرت تمامًا، وعندما عادت الحياة إليها في العصر البرونزي الأخير، انتعَت جزئيًّا لفترة قصيرة دون أن تبنيَ لنفسِها سورًا جديدًا، ثم هُجرت في مطلع القرن الثالث عشر وغمرها النسيان إلى القرن العاشر قبل الميلاد. أي إن مدينة أريحا لم تكن قائمةً عندما دخل الإسرائيليون إلى فلسطين.[٥]

وفيما يتعلَّق بمدينة «عاي» فإنَّ البينات الأثرية تُشير إلى أن المدينة قد انتهت تمامًا قبل ألف عام من وصول الإسرائيليِّين. وعلى ذلك فإنَّ أوائلهم لم يسمعوا إلا بذكرى تلك المدينة العظيمة التي ازدهرت في عصر البرونز المُبكِّر. وقد تمَّ الكشف في المستويات العليا للمَوقع عن قرية غير ذات شأن تعود إلى القرن العاشر قبل الميلاد؛ أي بعد فترة طويلة من دخول الإسرائيليين. أما بخصوص مدينة «حاصور» فقد دلَّت التنقيبات على أن المدينة قد دُمِّرت في نهاية القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وهو التدمير الذي يتطابق في تاريخه مع حملة الفرعون سيتي الأول على فلسطين. ثم أُعيد بناء المدينة مباشرة لتُدمِّر قرابة عام ١٢٣٠ق.م. أي حوالي الفترة المفترضة لدخول الإسرائيليين.[٦]

بعيدًا عن هذه المواقع الثلاث، تَتفاوت البينات الآثارية فيما يتعلَّق بالمدن التي يروي سِفر يشوع اقتحامها وتدميرها، فمنها ما يتطابق مع التاريخ المفترض لدخول الإسرائيليِّين، ومنها ما يتباعد. ولكن الذي يجعل الأمر أكثر تعقيدًا مما نَعتقده، هو أن

٥ .Ibid., pp. 33–40

٦ .Ibid., pp. 40–41

الدمار الذي لحق المدن الفلسطينية خلال الربع الأخير من القرن الثالث عشر، لا يُمكن إرجاعه بصورة مؤكَّدة إلى جهة بعينها. فإضافة إلى أحداث سِفر يشوع، وهي أحداث غير مؤكَّدة إلى جهة بعينها. فإضافة إلى أحداث سفر يشوع، وهي أحداث غير مؤكَّدة تاريخيًّا، هناك شعوب البحر الذين كانوا في طريقهم إلى مصر في تلك الفترة، ثم تراجعُوا عنها أمام رمسيس الثالث الذي دفعهم إلى فلسطين وطاردهم هناك، وعلى ذلك فإن جزءًا لا بأس به من المدن المدمَّرة يمكن عزوها إلى شعوب البحر أو إلى رمسيس الثالث نفسه.

وخلاصة القول في موضوع دخول كنعان، هو أنه لم يتوفر لدينا دليل تاريخي يُثبت رواية التوراة، أما الدلائل الأركيولوجية فلا تُؤيد الرواية التوراتية إلا في بعض جوانبها. وحتى في هذه الحالة، فإنَّ الشكوك تبقى قائمةً والبرهان غير أكيد. ومن المرجَّح أن الدخول قد تمَّ بشكل بطيء وسِلمي في معظم الأحوال، وعلى فترات طويلة ومُتباعِدة سمحت للقادمين بالاختلاط مع المقيمين في الأرض واستيعاب ثقافتهم، وأنَّ هؤلاء القادمين لم يدخلوا بأعداد كبيرة من شأنها تغيير الطبيعة السكانية للمنطقة والطغيان على الغالبية الكنعانية الموجودة هناك منذ بدايات التاريخ المكتوب. ومن المؤكَّد أن السيطرة القصيرة للإسرائيليين في مملكتي السامرة ويهوذا، لم تكن إلا سيطرة سياسية لا تعكس بالضرورة تفوقًا عدديًّا.

والبرهان على هذه المقولة يأتي من علم الآثار الذي لم يستطع أن يكتشف أية دلائل تُشير إلى دخول فلسطين، خلال الجزء الأخير من القرن الثالث عشر قبل الميلاد، مِن قِبَل جماعات كبيرة العدد ذات طابع ثقافي مُتميز. فالثقافة الكنعانية في المواقع الفلسطينية جميعها، بقيت مُستمرةً في تطورها الطبيعي دون انقطاع أو انحراف يُؤشِّر إلى حلول أقوام جديدة أتت معها بتقاليد غريبة عن كنعان.[٧] نَستثني من ذلك طبعًا منطقة الفلستيين على الساحل الفلسطيني حيث تتبعنا من الفصل السابق الظهور المفاجئ للثقافة الفلستية واختفائها السريع بعد ذلك.

لقد تداخَلَت في سِفر يشوع الأحداث التاريخية مع الأحداث الملحمية بشكل يَجعل من الصعوبة بمكانٍ فرز الحقيقة عن الخيال.

[٧] K. Kenyon, Archaeology in the Holy Land, op. cit., pp. 204–206.

(٣) عصر القضاة

بعد سِفر يشوع الذي يَصف اقتحام القبائل الإسرائيلية أرض كنعان واستيلاءها على أرض فلسطين كاملة، نجد سِفر القضاة يُعطينا صورةً مختلفة تمامًا عن تلك القبائل المُنتصرة. فبعد الاستقرار في الأرض، نجد أن القادمين ليسوا إلا جماعات مفكَّكة منقسمة على نفسها إلى فريقين متخاصمَين هم القبائل الشمالية والقبائل الجنوبية، وأن خطًّا من المدن الكنعانية القوية تُشكِّله أورشليم وجازر وعجلون يفصل بين المجموعتَين ويمنع اتصالهما، وأن بعض المدن الكنعانية التي من المفترض أنها وقعَت في أيدي الإسرائيليين إبَّان اجتياحهم، تعيش حياتها الطبيعية كمُدن مُستقلَّة، وبعضها الآخر قد سكنه الإسرائيليُّون إلى جانب الكنعانيِّين الذين لم يتمكَّنوا من طردِهم. كما نجد غزاة الأمس المُتجبِّرين ليسوا إلا فِرقًا مُستضعفة واقعة تحت نير جيرانهم الفلستيين، يضطهدونهم ويسومونهم سوء العذاب.

ويُعطي المؤرِّخون من ذوي الاتجاه التَّوراتي لهذا الواقع المُتناقض تفسيرات أكثر تناقُضًا وأقرب إلى اللاهوت منها إلى المنطق التاريخي، ولنقرأ على سبيل المثال ما يقوله عالِم اللغات القديمة اللامع البروفيسور ك. هـ. غوردن في كتابه «الشرق الأدنى القديم» الذي أفرد ثلثَيه لتاريخ بني إسرائيل، في معرض تفسيره لأحوال الإسرائيليِّين في عصر القضاة: [عند اقتحام أرض كنعان، لم يُمارس الإسرائيليون عملية إبادة كاملة للكنعانيِّين ولم يَطردهم من مدنهم وأراضيهم، وحينما كانت شوكة الإسرائيليين تقوى كانوا يستعبدون الكنعانيين ويُشغلونهم في أعمال السخرة لصالحهم. لقد أرادت المشيئة الإلهية إبقاء الكنعانيين إلى جانب بني إسرائيل، من أجل إبقاء روح النضال قويةً وشعلة الإيمان متَّقدةً، فإذا رجحت كفَّة الكنعانيين في الصراع، عاد الإسرائيليون عن غيِّهم وانقلبوا إلى عبادة الإله القادر على تخليصِهم من يد أعدائهم]![٨]

لقد دام عصر القُضاة قرابة قرنين من الزمان، ومع ذلك لم يَستطِع علم الآثار تقديم أيِّ دليل على وجود وازدهار ثقافة إسرائيلية مُتميِّزة، وخصوصًا في المواقع التي كانت مركز الأحداث في سِفر القضاة مثل «شِلوَه» و«بيت إيل» و«جبعة» و«دان». ففي موقع «جبعة» التي كانت مقرَّ داود ومسقط رأسه، لم يعثر المنقبون إلا على قرابة صغيرة تعود

---

٨ C. H. Gordon, The Ancient Near East, Norton, N.Y, 1965, pp. 148–49.

إلى مطلع عصر الحديد حوالي ١٢٠٠ق.م.، ذات تحصينات بدائية وبيوت ذات أسقف خشبية الأمر الذي يُشير إلى أن الإسرائيليِّين كانوا يعيشُون على هامش المجتمعات الكنعانية والفلستية القوية، والشيء نفسُه يَنطبق على بيت إيل التي كانت مدينة كنعانية مُتواضِعة في عصر البرونز الأخير، ثم هُدمت وانقطع فيها الاستيطان إلى بداية عصر الحديد، حيث عادت الحياة إليها من خلال بلدة صغيرة ذات بُنيان بدائي، استمرَّت حتى القرن العاشر، أي طيلة فترة عصر القضاة. أما مدينة «دان» التي اعتُبرت في سِفر القضاة الحد الشمالي للاستيطان الإسرائيلي، فقد تبيَّن من غلبة النمط الخزفي الفلستي في موقعها، أنها كانت واقعة تحت النفوذ الفلستي مُعظَم عصر القضاة.[٩]

ولعلَّ في قصة شمشون المعروفة في سِفر القضاة، أوضح دليل على استمرار الأسلوب والمضمون الملحمي في سِفر القضاة وعلاقة شخصية شمشون بشخصيات مَلحمية أخرى في أدبيات الشرق القديم، معروفة ولا مجال هنا لإعطاء مَزيد من التفصيلات.[١٠]

(٤) المملكة الموحدة

بعد خُضوعهم لاضطهاد الفلستيين فترة طويلة قرَّر الإسرائيليون توحيد قواهم تحت قيادة أول ملوكهم «شاؤل» الذي أمضى حياته في قراع الفلستيين، عبر روايات لا تمكن إلا في زمرة الملاحم. وتبلغ الحكمة الملحمية لحياة شاؤل ذروتها، في مشهد موته مع أولاده الثلاثة. نقرأ في صموئيل الأول ٣١: ٢–١٣ [واشتدت الحرب على شاؤل فأصابه الرماة رجال القسيِّ فانجرح جدًّا من الرماة. فقال شاؤل لحامل سلاحه استلَّ سيفي واطعنِّي به لئلا يأتي هؤلاء الغُلف ويطعنونني ويُقبحونني، فلم يشأ حامل سلاحه لأنه خاف جدًّا. فأخذ شاؤل السيف وسقط عليه، ولما رأى حامل سيفه أنه قد مات شاؤل، سقط هو أيضًا على سيفه ومات معه. فمات شاؤل وأبناؤه الثلاثة وحامل سلاحه وجميع رجاله في ذلك اليوم معًا ... وفي الغد لما جاء الفلسطينيون ليعدُّوا القتلى، وجدوا شاؤل وبنيه الثلاثة ساقطين في جبل جلبوع، فقطعوا رأسه ونزعوا سلاحه ... وسمَّروا جسده على

[٩] K. Kenyon, Archaeology in the Holy Land, op. cit., pp. 229–232.

[١٠] راجع مؤلَّفي «كنوز الأعماق»، قراءة في ملحمة جلجامش، دار العربي، دمشق ١٩٨٧م، ومؤلَّفي الأسبق «ملحمة جلجامش» دار الحكمة، بيروت ١٩٨٢م.

سور بيت شان. ولما سمع سكان يابش جلعاد بما فعل الفلسطينيُّون بشاؤل، قام كل ذي بأس وساروا الليل كله وأخذوا جسد شاؤل وأجساد بنيه عن سور بيت شان وجاءوا بها إلى يابيش وأحرقُوها هناك. وأخذوا عظامهم ودفنوها]. وهذا مشهد يليق بملحمة من ملحمتَي هوميروس المعروفتين، وخُصوصًا فيما يتعلَّق بإحراق جثة شاؤل وأولاده قبل دفنهم، وهي عادة غير معروفة في تعاليم التوراة، تركها مُحرِّرو التوراة في حلتها الملحمية هذه رغم تعارضها مع الشريعة.

وخلَف داود شاؤل، بعد أن أظهر بطولات خارقة أثناء خدمته مع شاؤل، استهلَّها بقتلِه فارس الفلستيين «جُليات»، عندما كان فتًى غر لا يَحمل سوى المقلاع وعصا الراعي، وهذه فكرة كثيرة التكرار في ملاحم الشعوب. إضافة إلى ذلك فإن بقيَّة سيرة حياة داود كملك تفشِّي الكثير من العناصر الملحمية المعروفة في الشرق القديم. فقد كان الأصغر بين إخوته الثمانية، مع ذلك اختاره الرب ليخلف شاؤل على المُلك. وهما يُمكن أن نقارن مع ملحمة كرت الأوغاريتية، حيث كان كرت ثامن إخوته. ومثل كرت أيضًا الذي حصل على عروسِه بالحرب، كذلك داود الذي ترتَّب عليه قتل العديد من الفلستيين مهرًا لعروسه. وكلا الملكَين يتعرض لغضب سماوي بسبب خطاياهما، فداود يخطئ بزواجه من زوجة أوريا الحثي بعد أن دبر قتله، وبإحصائه بني إسرائيل، وكرت يُخطئ بنسيانه تقديم النذور للآلهة، فتتعرَّض مملكتا الاثنين للجوائح والمصائب، ويهلك من بني إسرائيل سبعون ألفًا. وشخصية داود في سِفر صموئيل أبعد ما تكون عن ملامح الرصانة التي حاول مُحرِّرو التوراة رسمها لملوكهم، فكان مولعًا بالموسيقى، ويقود موكب الرقص العنيف أمام تابوت العهد بعد معارك النصر كملك وثني.

لقد وحَّد داود قبائل الشمال وقبائل الجنوب، وأسس أول وآخر مملكة موحَّدة لبني إسرائيل. وتقول الرواية التوراتية التي لم يُؤيدها شاهد تاريخي، أن داود بعد أن استقرت له الأمور داخليًّا، قد اتَّجه إلى التوسُّع فأخضع منطقة شرقي الأردن، ثم امتدَّ شمالاً إلى آرام فأخضع دمشق والممالك الآرامية الأخرى. أما ابنه سليمان فقد تفرغ من بعده إلى البناء والتشييد والتجارة والنشاط الدبلوماسي، فبنى هيكل الرب في أورشليم وإلى جانبه المنطقة الملكية بقصورها المتعددة وأبنيتها الإدارية، وجمَّل العاصمة وحصَّنها تحصينًا قويًّا. وإضافة إلى أعماله في أورشليم فقد أعاد بناء ثلاث مدن كنعانية قديمة هي حاصور ومجدو وجازر. وقد بلغ من ثروة سليمان في ذلك الوقت أن سفنَه قد جاءت في إحدى حملاتها محمَّلة بأربعمائة قنطار من الذهب، أي ما يعادل سبعة عشر ألف كيلوغرامًا

بأوزاننا المعروفة اليوم، وبلغ من رخاء الناس أنَّ الفضة في أورشليم كانت مثل الحجارة!

فأين هذا الإطناب التوراتي من البيِّنة الأركيولوجية والتاريخية؟ في الحقيقة يُمكن لنتائج التنقيب الأثري، وخصوصًا في المدن الملكية الثلاثة مجدو وجازر وحاصور أن تسند واقعة قيام سلطة مركزية خلال القرن العاشر قبل الميلاد في فلسطين الداخلية، غير أن المنقِّبين لم يعثروا على دلائل تقدم حضاري وازدهار اقتصادي. فخارج المواقع القليلة التي لقيَت عناية خاصة، كان أهل المملكة يعيشون حياة فقيرة جدًّا وبسيطة إلى أبعد الحدود. أما الديانة السائدة في المواقع التوراتية المكتشفة كلها، فكنعانية قديمة تتمحور حول آلهة الخصب المعروفة.[١١] أما عن عظَمة أورشليم أيام الملك سليمان، فإنَّ علم الآثار (كما بينَّا سابقًا بالتفصيل) لا يستطيع تقديم بينة عليها؛ لأن المدينة بكاملها قد ضاعت بسبب استخدامها كمقالع للحجارة، عدا أجزاء من السور لا تُقدِّم كثيرًا من المعلومات الدقيقة، رغم تقديمها لتواريخ أكيدة. والشيء نفسه ينطبق على هيكل سليمان الذي لم يبقَ منه ولا من أسواره حجر واحد. وجلُّ ما بقي قائمًا إلى اليوم هو جزء من أساسات سور هيكل زرُبابل الذي أُقيم بعد العودة من المنفى، وما يدعى خطأً ببرج داود، الذي يرجع إلى فترة المكابيين في القرن الثاني قبل الميلاد، وأجزاء من سور هيكل هيرود بما فيها حائط المبكى التي تعود إلى القرن الأول قبل الميلاد. وتؤكد عالمة الآثار السيدة كاثلين كينيون، التي كشفت عن كل ما يُمكن كشفه في موقع أورشليم القديمة، عدم جدوى البحث عن هيكل سليمان لأنه قد ضاع إلى الأبد.

أما من الناحية التاريخية، فلا يُمكن التثبت من قيام المملكة الموحدة، ولا من وجود داود وسليمان؛ لأنَّ أخبار هذه المملكة وأسماء ملوكها لم ترد في سجلات الثقافات المجاورة. أما القول بأن المملكة الموحَّدة كانت موجودة لأنَّ انقسامها هو الذي أدَّى إلى نشوء مملكتي إسرائيل ويهوذا، فقولٌ مردود لأنَّنا نعرف الآن أن إسرائيل قد نشأت قبل يهوذا بأكثر من قرن.

وخلاصة القول في أمر المملكة الموحَّدة اعتمادًا على البيِّنات الأركيولوجية والتاريخية، هو أنها لم تكن، في حال وجودها، سوى مملكة صغيرة قامت خلاف فترة قصيرة لا تتجاوَز السبعين عامًا ثم آلت إلى الانهيار.

[١١] Ibid., p. 254.

(٥) المملكة المنقسمة

بعد موت الملك سليمان حوالي عام ٩٣١ق.م.، عادت الخلافات القبلية (وفق الرواية التوراتية) من جديد، وانقسمَت المملكة إلى مملكة يهوذا في الجنوب تحت حكم ابن سليمان المدعو «رحبعام» ومملكة إسرائيل في الشمال تحت حكم «يربعام» ويُمكن القول اعتمادًا على نتائج التنقيب الأثري، أن المملكة الحقيقية المزدهرة قد استمرَّت في الشمال؛ حيث الأراضي الزراعية الخصبة والطرق المفتوحة على التجارة في البر والبحر. أما في المملكة الجنوبية التي لم تَنل من القسمة إلا الأراضي الفقيرة فقد عاشت أورشليم في حالة من العزلة محاطة ببلاد معادية من جهاتها جميعها. وبينما انفتحت السامرة على بقية العالم الكنعاني وصارت جزءًا منه، ازداد انكفاء أورشليم على نفسها تدريجيًّا ودخلت عصر التحجُّر.

وقد رأينا من خلال دراستنا الأركيولوجية لعدد من المواقع الرئيسية في المملكتين تطابق الرواية التوراتية أحيانًا مع نتائج التنقيب الأثري ونصوص الشرق القديم. وهذا يدلُّ على أن أسلوب مُحرِّري التوراة قد بدأ بالتغيُّر فضعُفَ السرد الملحمي للأحداث، وحلَّ محله محاولة لسرد الأحداث بأسلوب تاريخي متسق. غير أنه، ورغم العديد من التقاطعات بين الرواية التوراتية والشواهد الآثارية والتاريخية خلال فترة المملكة المُنقسمة، فإن محرري التوراة كانوا في كثير من الأحيان على شيء من الانتقائية في تقديم الأحداث. فاشتراك الملك آخاب في حلف قرقرة إلى جانب حلف دمشق ضد شلمنصر الثالث لم يَرِد في التوراة، وليس لدينا ما يدعو إلى الشك في صحة الخبر الآشوري المتعلق بذلك، حيث تم تقديم معلومات مفصلة عن عدد الجنود والفرسان والعربات التي قدمها آخاب للمعركة، وكذلك الأمر فيما يتعلق بخضوع الملك ياهو للعاهل الآشوري وتقبيل الأرض تحت قدميه، الذي أغفلته الرواية التوراتية بينما نراه مُصورًا في منحوتة آشورية بارزة كُتب تحتها: «جزية ياهو بن عمري».

ورغم المحاولة التي هدفت إلى تقديم تسلسلٍ تاريخي متَّسق لأخبار المملكة المنقسمة، فإن الظلال الملحمية بقيَت تؤطر الكثير من الأحداث والأشخاص، فملاك الرب يضرب جنود سنحاريب عند أسوار أورشليم ويقتل ١٨٥ ألفًا من جنوده (الملوك الثاني ١٩: ٣٥) والنبي إيليا أيام الملك آخاب يقتل مائة من جنود الملك أتوا لإحضاره (الملوك الثاني ١: ٣–١٦)، ويذبح أربعمائة من أنبياء البعل بعد تغلُّبه عليهم في منافسة تقديم الذبيحة (الملوك الأول ١٨: ٢٠)، ويفلق مياه الأردن بضربة من ردائه (الملوك الثاني ٢: ٨) وهو

يُنزل المطر أو يحبسه عن الأرض (الملوك الأول ١٧: ١، ١٨: ١–٤٦) ويركب عربة نارية تحمله إلى السماء (الملوك الثاني ٢: ١١–١٣).

بناءً على ما تقدَّم كله، نخلص إلى القول بأن كتاب التوراة قد ابتدأ بالأسطورة في مطلع سِفر التكوين، حيث جاء بعدة أساطير تنتمي إلى النسق الميثولوجي السوري–البابلي ثم انتقل إلى السرد الملحمي الذي يعتمد أحداثًا مغرقة في القدم تختلط بالخرافة وتُحيط بها هالات البطولة والمعجزة، بطريقة يصعب معها تبين الخط الفاصل بين الحقيقة والخيال. بعد ذلك أخذ الخيط التاريخي يتوضَّح تدريجيًّا بين الخيوط المتشابكة للسرد الملحمي، حتى توصل محررو التوراة إلى محاولة للتوثيق التاريخي، يجب التعامل معها بحذر بسبب انتقائيتها وتدخل أهواء أصحابها.

من هنا، يجب تصنيف مضمون الكتاب وَفق هذه الزمر الأربعة وإرجاع كل رواية إلى زمرتها قبل دراستها والتعقيب عليها. فليس من المعقول أن نبحث عن الأساس التاريخي لدمار مدينتي سدوم وعمورة بنار وكبريت من السماء بنفس الطريقة التي نبحث فيها عن الأساس التاريخي لدمار السامرة أو أورشليم، كما فعل الصليبي عندما أعطى القيمة التاريخية نفسها لكلا الحادثَين، انطلاقًا من القبول الكامل بالرواية التوراتية باعتبارها تاريخًا مؤكدًا.

الباب الثالث

البيِّنة النصية من كتاب التوراة

بعد قراءتنا للتوراة مجددًا على ضوء نظرية كمال الصليبي، تبيَّنت لنا حقيقة محيرة وهي أن كل ما في هذا الكتاب، سواء بنصه العبري المسوِّري (محركًا كان أم غير محرك)، أم بترجماته المختلفة إلى اللغات القديمة، لا يتَّفق على الإطلاق مع نتائج «التوراة جاءت من جزيرة العرب». وقبل أن نبدأ في بسط بيناتنا النصية، نرى من الواجب التوقُّف قليلًا عند مسألة تاريخ النص العبري للتوراة وترجماته القديمة، لأن الصليبي لم يشرح لنا في مقدماته النظرية سوى جزء يسير من الحقائق المتعلقة بهذا الموضوع.

يقول الصليبي في مطلع فصله الثاني تحت عنوان «مسألة نهج»: [والموضوع هنا، هو التوراة العبرية، وهي مجموعة نصوص تاريخية وأدبية ودينية باللغة القِدَم كُتبت أصلًا بأحرف أبجدية خالية من الحركات والضوابط، ولأنَّ لغة هذه النصوص خرجت عن إطار الاستعمال العام منذ زمن يعود إلى ما بعد القرن السادس أو الخامس قبل الميلاد، فإنه لا يُمكن لأحد أن يعرف كيف كانت هذه اللغة تلفظ وتصوت في الأصل لدى الشعب أو الشعوب التي تكلمتها. ولقراءة التوراة العبرية وفهمها يتوجَّب على الباحث إما أن يَتبع تقليد العبرية المتأخِّرة، أو أن يسعى إلى الإرشاد عبر اللغات السامية التي ما زالت حيَّة مثل العربية والسريانية، وعلى العموم فإنه مِن الأضمن للباحث في التوراة أن يعتبر لغتها العبرية مجهولة عمليًّا يجب تفكيك رموزها من جديد بدلًا من معاملتها كلغة مكشوفة الأسرار].

[وبفضل الأمانة العِلمية التي تحلى بها المُسوِّريون، وهم العلماء اليهود التقليديون القدماء الذين ضبطوا النصوص التوراتية بالإشارات الصوتية، فإنَّ النص المكتوب

بالأحرف الساكنة للتوراة العبرية وصل إلينا من القدم دون أن يمسَّ تقريبًا ... ولا بدَّ أن الأسفار التوراتية عمومًا، كما هي موجودة بين أيدينا، قد أخذ معظمها شكله الحالي قبل النهاية التاريخية لبني إسرائيل؛ أي في حدود القرن السادس أو الخامس قبل الميلاد. والدليل على ذلك هو أن التوراة العبرية كانت قد تُرجمت فعلًا بكاملها إلى اللغة الآرامية خلال المرحلة الأخمينية وإلى اليونانية، وقد بُدئ بها في المرحلة الهيلينية، وإن إضافة الأحرف الصوتية إلى العبرية التوراتية، باستعمال إشارات صوتية خاصة، هو ما فعله المسوِّريون الفلسطينيون والبابليون بين القرن السادس والتاسع أو العاشر من العصر المسيحي. وكانت اللغة العبرية في حينِه قد غابت عن الاستعمال العام منذ ألف سنة أو أكثر] (الصفحات ٥٧–٥٩).

تتضمَّن هذه المقدمة النظرية عددًا من المعلومات التي تنقصها الدقة، والآراء غير المسندة إلى واقع الأمور:

(١) يقول الصليبي: إنَّ هناك نصًّا عبريًّا واحدًا لكتاب التوراة، تسلسل بشكلِه الثابت منذ القرن الخامس قبل الميلاد إلى القرن العاشر الميلادي، حين انتهت عملية تنقيطِه على يد المسوِّريين. والحقيقة أن دراسات وثائق البحر الميت قد أثبتَت وجود عدة نصوص للتوراة العبرية، لم يكن النص المسوِّري إلا واحدًا منها.

(٢) وهو يقول: إنَّ التوراة العبرية قد تُرجمت بكاملها إلى اللغة الآرامية خلال المرحلة الأخمينية (أي بين فتوحات قورش والإسكندر)، وإلى اليونانية التي بُدئ بها في المرحلة الهلينستية، والحقيقة أن ما يُدعى بالترجومات (مفردها بالآرامية ترجوم)، وهي ترجمات التوراة إلى الآرامية الشرقية قد تمَّت بعد الميلاد، وفي حدود الفترة الواقعة بين القرنين الثاني والخامس الميلاديين، كما تمَّت الترجمة المعروفة بالبشيطة إلى السريانية في خلال الفترة نفسها.

(٣) وهو يرى أن اللغة العبرية قد خرجت عن إطار الاستعمال العام بعد القرن السادس أو الخامس (ص٥٧) وماتت كلغة محكيَّة؛ حيث راح قرَّاء التوراة الذين لم يَعرفوا كانت اللغة العبرية لكُتبهم المقدسة تلفظ في الأصل، يضيفون إليها الإشارات على الأساس الآرامي، اللغة التي كانوا بها يتكلَّمون (ص٤٥).

والحقيقة أن خروج اللغة العبرية عن إطار الاستعمال العام، والذي لا يعود قطعًا إلى هذا الوقت المبكر، لا يعني موت اللغة؛ لأنها بقيت لغةً مقدسة تُستخدم في العبادات والطقوس وقراءة أسفار التوراة، على الأقل بالنسبة للكهنة المتفرغين. وإذا كان العلماء

المسوِّريون الذين أكَّد الصليبي على دقَّتهم قد حفظوا النَّص العبري للتوراة لفترة تزيد عن ألف سنة، فكيف تموت اللغة العبرية في القرن الخامس ق.م.، ولما يَمضِ على بناء هيكل زرُبابل بضعة عقود من الزمن.

(٤) إنَّ أول تحريك للنص العبري الساكن قد اكتمل على يد المسوِّريين بين القرن التاسع والعاشر الميلاديين، بعد مُضي أكثر من ألف عام على موت اللغة العبرية (ص٥٩)، ولهذا فإنَّ إدخال الحركات والضوابط على النص، قد تمَّ بصورة اعتباطية في كثير من الأحيان، مما غيَّر إعراب الجمل وحوَّر المعاني (ص١٥).

والحقيقة أن النص العبري المحرِّك قد اكتمل فعلًا على يد المسوِّريين في القرن العاشر الميلادي، غير أنَّ النص الساكن قد تمَّ تحريكه بصورة غير مباشرة في وقت مبكر، وذلك عن طريق الترجمة إلى لغة مصونة؛ كاليونانية التي ترجم التوراة إليها أواسط القرن الثالث قبل الميلاد. ولإعطاء مثال مبسَّط عما تعنيه بالتصويت غير المباشر، تقول إنَّ كلمة «كتب» باللغة العربية، إذا وردَت هكذا وبدون تحريك، وإلى جانبِها ترجمتها الإنكليزية Wrote فإنَّ الكلمة تعني الفعل «كَتَب» لا «كُتُب» كجمع لكلمة «كتاب».

ولقد كان بين أيدي المسوِّريين عدد لا بأس به من الترجمات إلى لغات مصوتة (كما سنُبيِّن لاحقًا) ترشدهم في مواضع الإشكال، وهذه الترجمات قد صيغت في وقت مُبكِّر كان خلاله واضعوها على صلة مباشرة باللغة الحية أكثر من زملائهم المسوِّريين. من هنا، فإن وصف كمال الصليبي عمل المسوِّريين بالاعتباط لا يتَّفق وقوله فيهم: [ولو كان الباحثون المحدثون في التوراة بمثل عناية المسوِّريين واحتراسهم لما كان علم التوراة الحديث على ما هو عليه من تشويش اليوم] (ص٥٩)؟

ورغم أن هذا الأمر لا يَنفي وقوع المسوِّريين في أخطاء عديدة، إلا أنه يجعل من مقولة الصليبي (بأن من الأضمن للباحث اعتبار لغة التوراة لغة مجهولة يتوجَّب تفكيك رموزها)، مبالغة لا تقوم على مسوِّغ تاريخي أو علمي.

ومن أجل إلقاء مزيد من الضوء على ملاحظاتنا أعلاه، سنعمد فيما يلي إلى تقديم عرض تاريخي سريع لمسألة النص التوراتي.[١]

إن كل ترجمات التوراة إلى اللغات الحديثة، ترجع إلى النص المسوِّري، الذي أكمل العلماء المسوِّريون تنقيطه في تاريخ لا يتجاوز القرن العاشر الميلادي.

---

١ John Allegro, The Dead Sea Scrolls, Penguin, London, 1966, pp. 59–83.

وكلمة مسوري ومسوريون هي النِّسبة إلى «ماسوَّراء» أي التقليد، لأن علماء الكتاب في ذلك الوقت، قد قرروا وضع الصيغة التقليدية النهائية لقراءة التوراة، من أجل إغلاق باب الاجتهاد في هذا المجال، في زمن صارت فيه اللغة العبرية في عداد اللغات الميتة فعلًا. غير أنَّ النص الساكن الذي عمل المسوريون على تحريكه، يرجع في عهده إلى مجمع «يمنيا» في أواخر القرن الأول الميلادي بين عامي ٩٠ و١٠٠ ميلادية، حيث قام علماء الكتاب باختيار النص العبري المعتمَد من بين نصوص عديدة كانت مُتداولةً حينها.

إلى جانب النص التقليدي، لدينا ترجمات قديمة للتوراة بعضها يرجع إلى ما قبل الميلاد، اعتمدَت نصوصًا مُغايرة للنص التقليدي الذي تم تثبيته بعد ذلك، أهمها الترجمة اليونانية المعروفة بـ «السبعينية» (السبتوجنت)، التي أُنجزت في الإسكندرية أواسط القرن الثالث قبل الميلاد على يد اثنين وسبعين عالمًا في الكتاب، إبان عهد «بطليموس فيلاديلفوس» (٢٨٥–٢٤٦ق.م.)، الذي جمعهم لهذه المهمة بعد أن سمع بالكتاب وأحب ضمه إلى مكتبته. وقد غدت الترجمة السبعينية الكتاب المتداوَل بين اليهود المتكلِّمين باليونانية، وشاعت في شتى بلدان حوض المتوسِّط، وبعد وقتٍ قصير تمَّ اعتمادها من قِبَل الكنيسة المسيحية الناشئة. ولكن عندما أخذ المسيحيون يُحاجُّون اليهود اعتمادًا على النص السبعيني، فقَدَ جاذبيتَه عند اليهود فعملوا على إنجاز ترجمة أخرى، فظهرت ترجمة AQUILA حوالي مُنتصَف القرن الثاني الميلادي، والتي يبدو أنها اعتمدَت نصًّا أقرب إلى النص التقليدي منه إلى النصِّ الأصلي للترجمة السبعينية، وقد استبدل اليهود هذه الترجمة بالترجمة السبعينية التي بقيت مرجعًا عند المسيحيين. وبعد ذلك بقليل ظهرت ترجمة SYMMACHUS التي تميزت بحرية أكثر في التعبير وبأسلوب يوناني أكثر جزالةً.

وبعد ذلك بنصف قرن ظهرت ترجمة THEODOTION، التي يبدو أن أصلها العبري أقرب إلى أصل AQUILA والنص التقليدي منه إلى السبعينية. وخلال النصف الأول من القرن الثالث الميلادي، قام أوريجين الإسكندري بوضع نصٍّ مقارن قسَّمه إلى عدة أعمدة، حيث وضع في العمود الأول النص التقليدي، وفي الثاني النص التقليدي مكتوبًا بالأحرف اليونانية،[٢] واتبع ذلك بترجمة AQUILA ثم SYMMACHUS ثم THEODOTION، وفي العمود الأخير الترجمة السبعينية مراجعة من قِبله، غير أنَّ المراجعة التي قام بها أوريجين للترجمة السبعينية، قد غدت بحد ذاتها ترجمةً مستقلَّة، وتمَّ تداولها على هذا الأساس.

[٢] راجع ما أشرنا إليه منذ قليل حول التصويت غير المباشر للنصِّ العبري.

بين هذه الترجمات اليونانية، كان يبدو أنَّ السبعينية وحدها تنتمي إلى تقليد يختلف عن التقليد الذي تَنتمي إليه بقية الترجمات. ورغم أن الخلاف لا يمسُّ القضايا الجوهرية، إلا أن السبعينية تقدم في أجزاء من الكتاب وخصوصًا في الكتب التاريخية قراءة أوضح، بينما يتفوَّق النص التقليدي في المزامير والأمثال والأسفار الشعرية الأخرى. وكان السؤال المطروح، هو إلى أي حدٍّ تُمثل السبعينية تقليدًا مُستقلًّا تمام الاستقلال؟ وإلى أي حدٍّ ساهم المترجمون في حصول الاختلاف؟ وقد بقي هذا السؤال معلقًا دون جواب حتى عام ١٩٤٨م حين بدأت الوثائق المعروفة بمخطوطات البحر الميت تظهر تباعًا من كهوف وداي قمران عند البحر الميت، ومنها لفائف تحتوي على أجزاء متفرِّقة من أسفار التوراة، بينها أجزاء لا بأس بها من سِفر إشعيا وسِفر صموئيل الأول، ومُتفرِّقات من أسفار موسى الخمسة، وشذرات أخرى من هنا وهناك. وقد أرجع الباحثون أقدم نصٍّ بينها إلى نهاية القرن الثالث قبل الميلاد، بينما تتوزع بقية الوثائق التوراتية على مدى القرن الثاني قبل الميلاد.[٣]

وفي وقت قصير تمَّ تشكيل لجنةٍ دولية لقراءة نصوص قمران وترجمتها شارك فيها علماء من خمس دول هي: الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وألمانيا وبولندا. وكانت لفيفة سِفر إشعيا أول ما تمَّ ترميمه وقراءته، وقد تبيَّن أنَّها تتبَع بدقة النص التقليدي حتى في أصغر جزئيات التهجئة، الأمر الذي أكد على قدم النص التقليدي واستمراريته. إلا أنَّ الأجزاء التي عُثر عليها من سِفر صموئيل الأول، وتمَّت عملية ترميمها وقراءتها بعد عدة سنوات، كانت مفاجأةً للعلماء؛ لأنها قدمت نصًّا يتَّفق مع السبعينية كلمة فكلمة تقريبًا. وبذلك تمَّ الحصول على جواب السؤال القديم المعلَّق، فالترجمة السبعينية تُمثِّل تقليدًا مختلفًا عن النص المسوِّري، ذي أصول مستقلَّة. وسنقدم فيما يأتي مثالًا من سفر صموئيل الأول في ترجمته السبعينية، وفي نص قمران وفي النص التقليدي المُسوِّري وفق الترجمة العربية لإعطاء فكرة عن نوعية الاختلاف والاتِّفاق بين هذه النصوص الثلاثة:

[٣] يقول كمال الصليبي في حاشية مقتضبة أسفل الصفحة ٥٩ (إنَّ وثائق البحر الميت قد تكون ذات فائدة في دراسة اليهودية الفلسطينية في أيام الرومان، ولكنَّها لا تنفع في حل ألغاز وغوامض التوراة العبرية. وليس لها قيمة بالعلاقة مع غرض هذه الدراسة). ولكنَّنا سنظهر فيما يلي مدى قيمة هذه الوثائق بالعلاقة مع غرض هذه الدراسة.

صموئيل الأول ١: ٢٣–٢٤

قمران	السبعينية
فمكثَت المرأة وأرضعت ابنها حتى فطمته.	فمكثَت المرأة وأرضعت ابنها حتى فطمته.

النص التقليدي

فمكثَت المرأة وأرضعت ابنها حتى فطمته.

قمران	السبعينية
وأصعدته معها إلى «شيلوة» مع عجل ذي ثلاث سنين وخبزًا وإيفة دقيق وزق خمر، ودخلت بيت الرب في شيلوة ومعهم الصبي.	وأصعدته معها إلى «سلوام» مع عجل ذي ثلاث سنين وخبزًا وإيفة دقيق وزق خمر، ودخلت بيت الرب في، سلوام ومعهم الصبي.

ثمَّ حين فطمته أصعدته معها،

بثلاث ثيران وإيفة دقيق وزق خمر،

وأتت به إلى الرب في «شيلوة»،

والصبي صغير.

قمران	السبعينية
وجاءوا أمام الرب، وذبح أبوه التقدمة، كما فعل سنة بعد سنة للرب، ثمَّ قربوا الصبي فذبح العجل. وأتت حنَّة، أم الصبي إلى «عالي» وقالت: …	وجاءوا أمام الرب، وذبح أبوه التِّقدمة، كما فعل سنة بعد سنة للرب، ثمَّ قربوا الصبي فذبح العجل وأتت حنة، أم الصبي إلى «عالي» وقالت: …

فذبحوا الثور، وجاءوا بالصبي إلى

«عالي»، وقالت: …

ولعل من المفيد أيضًا أن نعطي مثالًا عن كيفية انحراف الترجمة السبعينية عن أصلها العِبري القديم في بعض المواضِع الحَرِجة التي تعكس العناصر الوثنية في التوراة، وعن كيفية التفاف النص التقليدي على هذه الفقرات، والمثال من سِفر التثنية ٣٢: ٤٣.

قمران	السبعينية
تهلَّلي أيتها السماوات معه.	تهلَّلي أيتها الأمم شعبه.
وأنتم أيها الآلهة اعبدوه.	وأنتم يا ملائكة الله اعبدوه.

النص التقليدي

تهلَّلي أيتها الأمم، شعبه

وإلى جانب التأكد من وجود أصل عِبري مُستقلٍّ للترجمة السبعينية، فقد أكَّدت لنا مخطوطات البحر الميت وجود أصول عبرية قديمة لنصوص توراتية متداولة إلى جانب النص التقليدي، مثل التوراة السامرية. فالسامريون، منذ تكوين طائفتهم الصغيرة في القرن الخامس قبل الميلاد يَعتمدون توراة لا تحتوي إلا على أسفار موسى الخمسة، ويعتقدون ببطلان ما عداها. وهذه تختلف مع النصِّ التقليدي في ستة آلاف موضع بينها ١٩٠٠م موضعٍ تأتي في اتِّفاق مع الترجمة السبعينية. وتعود أقدم نُسخها إلى القرن الحادي عشر الميلادي، رغم أن السامريين يعتقدون بأنها ترجع إلى أيام موسى نفسه. وكان علماء الكتاب يقفون موقف الحذر من الأسفار السامرية، مُعتقدين أن الاختلافات فيها إنما هي من صُنع السامريِّين لتثبيت معتقداتهم في مواجهة اليهود والدفاع عن وجهات نظرهم تجاههم. إلا أن مخطوطات البحر الميت قد أثبتت وجود أصل عِبري قديم للتوراة السامرية. ففي الكهف الرابع من كهوف قمران، تمَّ العثور على بقايا من مخطوط قديم لأسفار موسى الخمسة، يتَّفق مع التوراة السامرية ضد النص التقليدي والترجمة السبعينية. الأمر الذي أثبت أصالة وقِدم كتاب السامريِّين وانتسابه إلى تقليد مستقل بذاته، له من المشروعية ما للنص التقليدي.

وهكذا نجد أن الطائفة المنشقَّة عن اليهودية، التي كانت تُقيم في مناطق قمران المنعزلة، كانت تحتفظ إلى جانب نصوصها الخاصة، بنصوص توراتية تَنتمي إلى تقاليد مُتعدِّدة دون أن تُلزم نفسها بتقليد معين. ومِن المؤكد أن تعدد التقاليد هذا، هو الذي حثَّ مجمع «يمنيا» على تثبيت النص التوراتي بشكل نهائي، باعتماد أحد التقاليد واعتباره المثل الحقيقي للكتاب المقدس. وهذا التقليد المُعتمد هو الذي أوصله المُسوِّريون إلى صيغته المنقطة المعروفة اليوم. ولعلَّ أهم ما قدمته مخطوطات البحر الميت التوراتية إلى علم الكتاب، هو تغيير موقف العلماء الحديثين من النص المُسوِّري؛ لأنه لم يَعُد يُمثل النص الوحيد الحقيقي في مقابل نصوص مشكوك بأمرها. وصار من المشروع، بل ومن الضروري، أن يرجع العلماء إلى النصوص الأخرى في مَواضع الإشكال أو الغموض التي يطرحها النص المسوِّري التقليدي، بعد أن تبيَّن لها من الأصالة مثل ما له.

وبعيدًا عن التقاليد المتنوِّعة للنص التوراتي، أخذ العلماء تدريجيًّا بالاعتماد على نصوص أوغاريت، بعد أن تبيَّن مدى الصلة بين الكنعانية الأوغاريتية ولغة التوراة المدعوَّة

بالعبرية (والتي ليست سوى كنعانية فلسطين مكتوبة بالخط الآرامي المربع). وقد أدَّت هذه الدراسات المقارنة حتى الآن، إلى إلقاء الضوء على مئات المواضِع الغامضة في النص التقليدي اعتمادًا على نصوص أوغاريت. وسنقدم فيما يأتي مثالًا واحدًا لغرض الإيضاح،[٤] وهو مأخوذ من أنشودة دبُّورة في سِفر القضاة، التي يَعتبرها علماء الكتاب من أقدم نصوص التوراة، وذلك اعتمادًا على أسلوبها وطبيعة الكلمات المُستخدمة فيها:

«جلعاد» في عبر الأردن سكن،
و«دان» لماذا استوطن عند السفن،
و«أشير» أقام على ساحل البحر، وفي فُرَضِه سكن.

(القضاة ٥: ١٧)

تلوم التنبيه دبورة في هذا المقطع القبائل التي لم تَهُب إلى مساعدتها ضد «سيسرا» قائد جيوش مدينة حاصور الكنعانية. والمشكلة تَكمن هنا في السطر الثاني الذي يقول إن أهل دان أقاموا عند السفن، في الوقت الذي نعرف فيه أن الدانيين لم يسكنوا عند البحر ولم يمارسوا أي نشاط بحري على الإطلاق. فالذي يُضفي الغموض على إدانة دبورة للدانيين هو كلمة «السفن» التي وردت في العبرية الساكنة «ء نيوت» وتعني «سفن». ولكن السفن هنا لا محلَّ لها في المعنى المراد توصيله، ولا بدَّ أن في الكلمة تجانسًا في التهجئة مع كلمة أخرى تختلف عنها في المعنى. ومثل هذه الفرضية بدا مرجحًا نظرًا لقدم الأنشودة، وخروج بعض كلماتها عن الاستعمال العام. ولكن ما هو المعنى الآخر الذي خرج عن الاستعمال، لكلمة «ء نيوت» خصوصًا وأنه لا وجود لمعنى آخر لها في التوراة؟

وكمثال قريب من اللغة العربية عن مثل هذا التجانُس بين كلمتين مُتفقتين في التهجئة ومختلفتَين في المعنى، نجد كلمة «زند» التي تعني أعلى الذراع، و«زند» التي تعني عود الخشب الذي تقدح به النار، وذلك بتحريكه حركة دائبة ضمن ثقب محفور في عود آخر يُدعى «الزندة» مما يُؤدي إلى اشتعاله بالنار. وقد بقيت الكلمة الأولى مستعملة في لغتنا الحديثة، بينما انقرضَت الكلمة الثانية التي لا نعثر عليها إلا في الأشعار الجاهلية أو المعاجم. ولكن المشكلة المتعلِّقة بموضوعنا هنا، هي أن التوراة هي المرجع الوحيد للغة

[٤] Peter C. Craigie, Ugarit and The Old Testament Eerdmans, Michigan 1983, pp. 84–86.

العبرية، ومن غير الممكن تَقصِّي الكلمات المهجورة في أي مرجع آخر. هنا قدمت الكنعانية الأوغاريتية الحل الأقرب إلى الصحة لفهم كلمة مهجورة في الكنعانية التوراتية.

ففي ثلاثة نصوص أوغاريتية، وردَت كلمة «ء ن» وبشكلها الآخر «ء ني» بمعنى يَسترخي أو يركن إلى الراحة. وفي أحد هذه النصوص وردَت الكلمة متعلِّقة بالفعل «جر» أي يبقى، وهذه حقيقة مُثيرة للاهتمام؛ لأنَّ «جر» الأوغاريتية تعادل «جور» العبرية المُستعملة في السطر أعلاه والمتبوعة بالكلمة الغامضة «ء نيوت»، وبذلك يكون التعبيران الأوغاريتي والتوراتي مُتعادلين لغويًّا، وتغدو الترجمة الصحيحة للمقطع كما يأتي:

جلعاد في عبر الأردن سكن.
ودان لماذا بقيَ مرتاحًا.
وأشير لماذا أقام على ساحل البحر، وفي فُرَضِه سكن.

ولقد أردنا من ذلك كله توضيح عدد من الأمور المهمَّة الوثيقة الصِّلة بموضوعنا. فأولًا: إنَّ حل إشكالات النص العبري للتوراة، عند هذه المرحلة المُتطوِّرة من علم الكتاب، لا يتأتَّى من التسمُّر عند الصيغة المسوِّرية ومحاولة استنطاقها بما لا تستطيع النُّطق به، كما فعل كمال الصليبي؛ ذلك أن المعلومات التي صارت مُتيسِّرةً أمام الباحثين الآن، تُتيح لهم عددًا متنوعًا من المصادر التي تضيء النص التقليدي من خارجه، خصوصًا وأن ترجمات التوراة المختلفة التي اعتمدت أصولًا مغايرة للنص التقليدي، قد صار لها الآن المشروعية نفسها، واللجوء إليها يزود الباحث بنظرات ثاقبة ومصيبة. فإذا عجزت هذه الترجمات عن إيضاح بعض الغوامض، يبقى لدينا نصوص قمران، واللغة الكنعانية الأم بلهجاتها المختلفة مثل الأوغاريتية والفينيقية.

إنَّ ما قمنا به من تعريف سريع بالترجمات اليونانية للتوراة وتواريخ إنجازها وتسلسلها إلينا من مصادر عبرية مُختلِفة، ومِن تعريف بمخطوطات قمران التوراتية، يَنفي مقولة الصليبي عن موت اللغة التوراتية اعتبارًا من القرن الخامس قبل الميلاد، وأن موت هذه اللغة قد ساهم في نسيان جغرافية الحدث التَّوراتي (الصفحات من ٤٥ إلى ٤٩). فإذا كان أقدم نص تَوراتي من نصوص قمران يرجع إلى نهاية القرن الثالث قبل الميلاد، وأَقدم ترجمة ذات أصل مستقل، وهي السبعينية ترجع إلى أواسط القرن الثالث قبل الميلاد؛ أي بعد قرنين فقط من بناء نحميا لسور أورشليم بعد العودة من السَّبي، وقرنين ونصف القرن من إعادة بناء الهيكل على يد زربابل، فكيف تسنى لهؤلاء نسيان مسرح الحدث التوراتي في غرب العربية، خلال هذا الوقت القصير جدًّا.

وأخيرًا، إنَّ توضيح تاريخ النصِّ التقليدي للتوراة العبرية، الذي اعتمد عليه الصليبي كوثيقة وحيدة، يَضعنا في جوٍّ تمهيدي للبدء في تقديم بياناتنا النصية التي تَعمد على الوثيقة ذاتها.

وسنَعمد فيما يأتي من فصول هذا الباب إلى تقديم ما قاله كتاب التوراة بكلماته ذاتها، حول بعض المسائل المهمَّة التي أثار حولها الجدل الدكتور كمال الصليبي، وجميعه لا يقدم سندًا من قريب أو بعيد لأطروحاته كلها.

الفصل الأول

مسألة الأردن

بعد نقل مواقع الحدث التوراتي إلى غرب العربية، واجهت الصليبي مشكلة شائكة هي مشكلة «نهر الأردن» الذي تَرتبِط به جلُّ أحداث التوراة الرئيسة. فكيف توصَّل إلى حلِّها؟ نقرأ في فصله المعنون «مسألة الأردن» ما يلي:

[الأردن (هـ - يردن) لم يكن في التوراة العربية نهرًا. وأكثر من ذلك فإنَّ أهل الاختصاص يعرفون تمامًا أنه ما من مكان وردت فيه الكلمة في النصوص التوراتية مُعرَّفةً على أنها نهر. فكيف صار النهر الفلسطيني الشهير يُعرف بهذا الاسم فهي مسألة تستحق التمحيص بحد ذاتها، ولكنها ليست المسألة التي سنتطرَّق إليها هنا. والمسألة المباشرة والآنية هي التالية: إذا كان أردن التوراة العبرية ليس نهرًا، فماذا يمكن أن يكون؟ ... في الاستعمال التوراتي، تُؤخذ كلمة (هـ - يردن) تقليديًّا على أنها اسم النهر المعروف في فلسطين، ولكنها ليست دومًا اسمًا بل تعبير طوبوغرافي يعني «جرف» أو «قمة» أو «مرتفع». وفي المبنى «عَبر هـ - يردن» (عَبْرْ أو ما بعد الأردن) الذي أخذ حتى الآن على أنه يعني «عبر الأردن» (أي شرق الأردن) تُشير «هـ - يردن» بلا استثناء إلى الجرف الرئيسي لسراة عسير الجغرافية، الذي يمتد من الطائف في جنوب الحجاز إلى منطقة ظهران الجنوب قرب الحدود اليمنية. وفي مُعظم الحالات تُشير (عبر هـ - يردن) إلى أراضي عسير الداخلية تفريقًا لها عن عسير الساحلية التي كانت أرض يهوذا الإسرائيلية. وعلى العموم فإن «هـ - يردن» من دون «عبر» يمكنها أن تُشير إلى أي جزء من جرف عسير، وكثيرًا ما تشير أيضًا إلى أي من القمم والمرتفعات التي لا تُحصى في الجانب البحري من عسير وجنوب الحجاز] (ص١٣٣-١٣٤).

والنقطة المصيبة في مقدمة الصليبي عن مسألة الأردن هي أنه فعلًا لم تَرد الكلمة في التوراة معرفة على أنَّها نهر في كل المواضع التي ورَدَت فيها، ولكن السياق الذي ورَدت

فيه دومًا، لا يدع مكانًا للشك بأنَّ المقصود بالكلام هو نهر بعينه يُدعى نهر الأردن وسنُقدم فيما يلي بضعة أمثلة تكفي لتوضيح ذلك.

نقرأ في سِفر الملوك الثاني ٦: ١–٦: [وقال بنو الأنبياء لـ «إليشع» هو ذا الموضع الذي نحن مُقيمون فيه أمامك، ضيق علينا. فلنَذهب إلى الأردن ونأخُذ من هناك كل واحد خشبة ونعمل لأنفسنا هناك موضعًا لنُقيم فيه. فقال اذهبوا ... وإذا كان واحد يقطع خشبه وقع الحديد في الماء، فصرخ وقال آه يا سيدي؛ لأنها عارية (أي إن الفأس كانت مُستعارة). فقال رجل الله أين سقط؟ فأراه الموضع فقطع عودًا وألقاه هناك فطفا الحديد ...] في قصة مُعجزة النبي «إليشع» هذه، هنالك تتابُع منطقي في الأحداث لا يمكن أن يشير إلى أن المقصود بالأردن جرف صخري من أي نوع كان، فالجماعة تذهب لتحتطب خشبًا من ضفاف الأردن لا من ذرا الجرف الصخري حيث لا توجد الأخشاب، وهناك تقع رأس الفأس الحديدية من أحد الرجال في الماء، الذي هو ماء نهر الأردن؛ لأن مجمعات المياه عادةً لا توجد في الجروف الصخرية.

ونقرأ في سِفر يشوع عن معجزة فلق مياه الأردن أمام الإسرائيليين: [فقال الرب ليشوع ... وأما أنت فأمُر الكهنة حاملي تابوت العهد قائلًا: عندما تأتون إلى ضفة مياه الأردن تقفون في الأردن ... ويكون حينما تستقر بطون أقدام الكهنة حاملي تابوت الرب، سيد الأرض كلها، في مياه الأردن، إن مياه الأردن المنحدرة من فوق تنفلق وتقف ندًّا واحدًا. ولما ارتحل الشعب من خيامهم لكي يعبروا الأردن، والكهنة حاملو تابوت العهد أمام الشعب، عند إتيان حاملي التابوت إلى الأردن وانغماس أرجل الكهنة حاملي التابوت أمام الشعب، فعند إتيان حاملي التابوت إلى الأردن وانغماس أرجل الكهنة حاملي التابوت في ضفة المياه، والأردن مُمتلئ إلى جميع شطوطه كل أيام الحصاد، وقفت المياه المنحدرة من فوق وقامت ندًّا واحدًا ... وعبر الشعب مقابل أريحا] يشوع ٣: ١٣–١٧.

من هذا الوصف الملحمي الحي لعبور الأردن، يتَّضح دون لبسٍ أو إبهام أن المقصود بالأردن هو نهر وليس جرفًا صخريًّا. ذلك أنَّ الحديث يدور حول «مياه الأردن» و«ضفة مياه الأردن» و«الأرجل التي تنغمس في ضفة المياه» و«شطوط الأردن»، ونحن إذا استبدلنا كلمة «الجرف» بكلمة «الأردن» في المقاطع أعلاه لحصلنا على مقطع لا معنى له.

وفي تعليقه على كلمة «شاطئ الأردن» أو «شطوط الأردن» يقول الصليبي: إن تعبير «شاطئ الأردن» الذي يرد في ترجمات التوراة كترجمة لتعبير «سفت هـ - يردن» بالعبرية، لا يعني «شاطئ الأردن» بل «شفا الجرف» (ويستشهد على ذلك بسِفر الملوك الثاني

٢: ١٣ دون أن يورد الشاهد). فلتنظر الآن إلى تعبير «شاطئ الأردن» في سِفر الملوك الثاني ٢: ٧–١٣ في سياقه العام لنَعرف ما هو المقصود فعلًا بـ «سفت هـ - يردن». يروي الموضع من السِّفر معجزة قيام النبي إيليا بفلق مياه الأردن بردائه، فقبل أن يصعد إليا إلى السماء بمركبة نارية يأخذ بيد «إليشع» إلى الأردن حيث يُسلمه النبوة هناك: [ووقف كلاهما بجانب الأردن، وأخذ إيليا رداءه ولفه وضرب الماء فانفلق إلى هنا وهناك فعبرا كلاهما في اليبس، ولما عبرا، قال إيليا لـ «إليشع»: اطلب ماذا أفعل لك قبل أن أؤخذ منك. فقال ليَكن نصيب اثنين من روحك علي ... وفيما هما يَسيران ويتكلَّمان إذ مركبة من نار وخيل من نار ففصلت بينهما، فصعد إيليا في العاصمة إلى السماء. وكان «إليشع» يرى وهو يصرخ ... ولم يره بعد. فأمسك ثيابه ومزقها قطعتين، ورفع رداء إيليا الذي سقط عنه ورجع ووقف على شاطئ الأردن، فأخذ رداء إيليا الذي سقط عنه وضرب الماء وقال أين هو الرب إله إيليا، ثم ضرب الماء أيضًا فانفلق إلى هنا وهناك فعبر «إليشع»].

من الواضح في المقطع أعلاه أن الحديث يجري عن نهر وليس عن جرف صخري؛ فالنبيان يقفان أولًا «بجانب الأردن»، ولا معنى لقولنا أنهما وقفا «بجانب الجرف». وهناك يأخذ إيليا رداءه ويضرب الماء فيفلقه ويعبر كلاهما في اليابسة. وبعد صعود إيليا إلى السماء، يستبدل النص تعبير «جانب الأردن» بتعبير «شاطئ الأردن» حيث يقف إليشع في الموضع نفسه على الضفة الأخرى التي عبرا إليها، ويُكرر المعجزة بعد أن حلت عليه روح إيليا. ولا مكان هنا لاستبدال «شاطي الأردن». ويُكرِّر المعجزة بعد أن حلَّت عليه روح إيليا. ولا مكان هنا لاستبدال «شاطئ الأردن» بـ «شفا الجرف» لسببين؛ الأول أنه ما مِن مُسوِّغ يدعو النبيِّين إلى الصعود إلى أعلى الجرف؛ والثاني أن شفا الجرف لا يحتوي على المياه.

غير أنَّ الصليبي يتقدم بتفسير لوجود الماء على الجرف الصخري، وذلك في تعليقه على رواية عبور يشوع لنهر الأردن الواردة أعلاه، عندما عَبَرَت قوات يشوع الأردن، «وهو مُمتلئ إلى شطآنه»، فيقول: إنهم [انطلقوا إلى عبورهم في وقتِ الحصاد، عندما كانت الوديان على جانبي الجرف مُمتلئةً بمياه السيول. وعندما وصلوا إلى النقطة التي يمكنهم عبورها، تراجَعَت المياه، أو هي جُعِلت تتراجع ببناء سدود لتحويل مجراها، لتَسمح لهم بالعبور. فنهر الأردن لا يفيض في وقت الحصاد، وهو آخر الربيع. وعلى العموم فإنَّ هذا موسم الأمطار الغزيرة في عسير الجغرافية، وهي الأمطار التي يُمكنها أن تتسبَّب في سيول هائلة أحيانًا].

وهذا التفسير لا يَنطبِق على رواية العبور بتاتًا فصياغة تعبير «والأردن مُمتلئ إلى جميع شطوطه كل أيام الحصاد» دقيقة وواضحة ولا تَحتمِل استبدال كلمة الأردن كنهر بالجرف الصخري، وإلا لتحدَّثت الرواية التوراتية عن سيول ووديان الجرف، ثمَّ إنه مِن الواضح أن الحديث هنا يجري عن عقبة مائية دائمة يتوجَّب اجتيازها، لا عن سبل مؤقَّت يُمكن انتظار تراجعه خلال فترة قصيرة. أما عن قول الصليبي بأن نهر الأردن لا يَفيض في وقت الحصاد وهو آخر الربيع، فإنَّ النص التوراتي لم يتحدَّث عن فيضان بل عن امتلاء، والفرق كبير بين المعنيَين؛ ذلك أن الأردن لا يفيض فعلًا في أي فصل من فصول السنة، ولا يجب أن نخلط هنا بين ظاهرة الفيضان التي تتميَّز بها بعض الأنهار كالنيل مثلًا حيث يغمر الماء الأراضي الزراعية المحاذية لضفتيه، وظاهرة الامتلاء الطبيعي للنهر حيث يَزداد منسوب المياه دون حدوث الفيض. فمياه الأردن ترتفع في الربيع بسبب ذوبان الثلوج على جبل حرمون، وقد تصلُ فعلًا إلى شطوطه في بعض السنين، وهذه ظاهرة تَشترك بها كل الأنهار التي تُعززها مياه الثلوج الجبلية.

وفي سِفر صموئيل الثاني ١٩: ١٥–١٨، نجد أن الأردن يُعبَر بواسطة القوارب وخوضًا على الأرجل: [فرجع الملك وأتى إلى الأردن، وأتى يهوذا (أي جمع سبط يهوذا) إلى الجلجال سائرًا لملاقاة الملك، ليعبر الملك الأردن. فبادَر شمعي بن جيرا البنياميني الذي من بحوريم ونزل مع رجال يهوذا للقاء الملك داود، ومعه ألف رجل من بنيامين وصبي، غلام بيت شاءول وبنوه الخمسة عشر وعبيده العشرون معه. فخاضوا الأردن أمام الملك، وعبر القارب لتعبير بيت الملك وعمل ما يحسن في عينيه].

في هذا المقطع، لا نستطيع التصديق أيضًا بأن السيول على جانبي الجرف هي التي قطَعها الرجال خوضًا على الأرجل، ثم جاءوا بقارب ليعبر عليه الملك وأهله مياه الأردن؛ فالتعبير اللغوي «خاضوا الأردن» لا يمكن أن ينطبق إلا على مياه النهر. فنحن نستطيع أن نقول مثلًا «خاض نهر بردي» أو «خاض بردي» لتأدية المعنى نفسه، ولكن من الخطأ أن نقول: «خاض الجرف» بمعنى خاض سيولًا على جانبَي الجرف. أما عن خوض مياه نهر الأردن على الأرجل فأمر معروف، حيي يتسع سرير النهر في مواضع تُدعى مُعابر أو مخاضات، وتكثر خصوصًا في الشمال.

وفي سِفر الملوك الثاني ٥: ٩–١٤، يأتي «نعمان» القائد الآرامي إلى النبي إليشع أملًا أن يشفيَه مِن برَصِه، فيطلب منه النبي أن يغتسل في نهر الأردن ليُشفى: [فجاء نعمان بخيله ومركباته ووقف عند باب إليشع، فأرسل إليه إليشع رسولًا يقول اذهب واغتسل

سبع مرات في الأردن، فيرجع إليك لحمك وتطهر. فغضب نعمان ومضى وقال: هو ذا قلت أنه يخرج إليَّ ويقف ويدعو باسم الرب إلهه ويرُد يده فوق الموضع فيُشفى الأبرص. أليس إبانة وفرفر نهرًا دمشق أحسن من جميع مياه إسرائيل، أما كنت أغتسل بهما فأطهر؟ ورجع ومضى بغيظ فتقدَّم عبيده وكلموه وقالوا: يا أبانا لو قال لك النبي أمرًا عظيمًا أما كنت تعمله؟ فكم بالحري إذا قال لك اغتسل واطهر. فنزل وغطس في الأردن سبع مرات حسب قول رجل الله، فرجع لحمُه كلحم صبيٍّ صغير وطهر].

وتعقيبًا على هذه الرواية، لا يجد الصليبي مناصًا من الاعتراف بأنَّ كلمة الأردن هنا تَعني جدول ماء، فيقول [وعلى العموم فإن تعبير «يردن» يظهر في بعض الحالات في التوراة بمعنى جدول أو بركة، وبهذا المعنى تكون الكلمة مشتقَّة من «يرد» بمعنى ذهب إلى الماء. وهكذا فإن «هـ - يردن» التي غطس فيها نعمان الآرامي سبع مرات ليُعالج نفسه من الجذام كانت بالتأكيد بركة ماء أو نبعًا أو جدولًا. وإذا أخذ في الاعتبار أنها كانت قرب السامرة («شمرون» التي هي «شمران») في جنوب القنفذة، فإن «يردن» نعمان كانت بلا شك تشير إلى مجمع مياه وادي «نعص» الذي يجري هناك]. وهكذا يُضيف الصليبي دلالة جديدة تضاف إلى الدلالات التي أعطاها لكلمة الأردن. فهي الجرف الرئيسي لسراة عسير، أو أي جزء من هذا الجرف، أو أي من القِمم والمُرتفعات التي لا تحصى في الجانب البحري من عسير وجنوب الحجاز، أو أي جدول أو بركة ماء. وهذه، لعمري، خيارات واسعة جدًّا للتعامل مع كلمة بسيطة واحدة، ورَدَت في صيغة واحدة عبر الكتاب بأكمله. ولا ندري لماذا اختار مُحرِّرو التوراة استعمال هذا التعبير الفضفاض للدلالة عن عدد متنوع من المعالم الجغرافية، وهم المعروفون بتسميتهم الدقيقة للأماكن والمعالم والأشخاص المهمين منهم والثانويين، إلى درجة تبعث على السأم أحيانًا.

ويتوقف الصليبي عند صيغتين تكررتا مرات قليلة في التوراة هما «هذا الأردن» و«أردن أريحا» فيقول: [«يردن يرحو» لا يعني «أردن أريحا»، بل «جرف يرحو» ويرحو هنا تشير إلى مرتفع من جبل «عيسان» في بلاد زهران، حيث يبدأ وادي «وراخ»، وفيه أيضًا قرية اسمها وراخ. وحقيقة أن هنالك أكثر من «يردن» واحدة، تظهر أيضًا في التعبير «هـ - يردن هزة» أي «هذا الجرف» أو «هذا المرتفع»، وليس «هذا الأردن» الذي يَرِد ما لا يقل عن ست مرات في أسفار مختلفة من التوراة. ولو كان «هـ - يردن» اسمًا لنهر معين، أو في هذه الحالة اسمًا لجرف أو مرتفع معين، لكان يصعب التفكير بسبب يقضي بالإشارة إليه بهذه الكثرة بالتعبير «هذا الأردن»] (ص١٣٥).

والحقيقة، أنه لدينا أكثر من مثال يثبت أن المقصود بأردن أريحا هو ذلك المقطع من نَهر الأردن المقابل لمدينة أريحا، ففي سِفر العدد ٣٣: ٤٨–٥٠ [ثم ارتحلوا من جبال عباريم ونزلوا في عربات موآب على أردن أريحا. نزلوا على الأردن من بيت بشموت إلى آبل شطيم في عربات موآب. وكلم الربُّ موسى في عربات موآب على أردن أريحا قائلًا ...] فالنصُّ هنا يستخدم «أردن أريحا» بالترادف مع «الأردن» فبعد القول بأن القوم نزلوا في منطقة عربات موآب على «أردن أريحا»، يحدد بدقة المناطق التي نزلوا فيها على «الأردن» فهي تمتد من بشموت إلى آيل شطيم. ومن ناحية أخرى فنحن لا نرى في استخدام تعبير «أردن أريحا» خروجًا عن المألوف، ففي العربية يمكن أن نقول مثلًا «إن فرات جرابلس أضيق مجرى من فرات الرقة»؛ أي إن الفرات في منطقة جرابلس أضيق مجرى من الفرات في منطقة الرقة. وأهل المنطقة الوسطى في سورية حيث يمر نهر العاصي، يُسمُّون مقطع النهر باسم المكان القريب منه، فيقولون «عاصي الخراب» و«عاصي الجديدة» و«عاصي الميماس».

أما تعبير «هذا الأردن» الذي قال الصليبي أنه يَرِد ما لا يقل عن ست مرات في أسفار مختلفة من التوراة، وأن وروده بهذه الكثرة يشير إلى دلالته على مرتفعات مختلفة عن بعضها، فإننا أيضًا لا نرى في هذا الاستخدام خروجًا عن المألوف فقد نقول بالعربية «أُعبر هذا الفرات» بديلًا عن قولنا أُعبر نهر الفرات هذا. أما كثرة ورود التعبير في أسفار التوراة، التي يُؤكد عليها الصليبي، فلا أساس لها من الصحة، فمن بين مائة وأربعين مرةً تقريبًا ورد فيها اسم الأردن، لم يرد تعبير «هذا الأردن» سوى ست مرات.

ولا بدَّ من الإشارة أخيرًا إلى السؤال الذي طرحه كمال الصليبي في مطلع مقدمتِه دون أن يُلمح إلى إجابة شافية عنه عندما قال: [أما كيف أصبح النهر الفلسطيني الشهير يُعرَف بهذا الاسم، فهي مسألة تستحق التمحيص بحد ذاتها، ولكنها ليست المسألة التي سنتطرق إليها هنا ...]. والواقع أن تسمية نهر الأردن في فلسطين قديمة قدم كنعان، ولا نخال الصليبي قادرًا على عزوها للإسرائيليِّين الذين سموا المواقع والهيئات الجغرافية في فلسطين بأسماء مواقع وهيئات ألفوها في غرب العربية؛ ذلك أن نهر الأردن قد ورَد باسمه الكنعاني في السجلات المصرية قبل وقتٍ طويل من ظهور الإسرائيليين.

الفصل الثاني

الخروج ومسألة مصر

إن المشكلة الأساسية في مسألة تاريخية التوراة تَكمن، كما أشرنا سابقًا، في عدم توافق الرواية التوراتية، فيما يتعلَّق بدخول الإسرائيليين إلى مصر والخروج منها، مع التواريخ المصرية والسجلات الملكية الفرعونية. ولما كان الخروج من مصر بالطريقة التي قدمتها الرواية التوراتية، يُشكِّل المحور الرئيسي في كتاب التوراة برمته، فقد جهد المؤرخون المهتمون بهذا الموضوع في صياغة نظريات معقولة حول الخروج وزمنه، تجعله في اتفاق مع التاريخ المصري. فقال البعض بأن الإسرائيليين ليسوا إلا جماعة من الهكسوس غادروا مصر إبان الثورة الشاملة التي طردتهم من هناك حوالي عام ١٥٧٠ق.م. وقرن البعض بين العبرانيين والمعابيرو الذين كانوا يهاجمون المدن الفلسطينية خلال فترة تل العمارنة في مصر. وقام فريق ثالث بالتوسط بين النظريتين، فقال إن الإسرائيليين قد خرجوا من مصر مع الهكسوس ودخلوا فلسطين باعتبارهم عابيرو، بعد فترة تجول تزيد عما ذُكر في التوراة.

غير أنَّ آراء المؤرخين تتفق اليوم على أن الخروج قد تم في عهد الفرعون رمسيس الثاني، حوالي عام ١٢٦٠ق.م.، وذلك لأسباب عديدة لا مجال لبسطها جميعًا، منها أن الخروج قد تم، وفق الرواية التوراتية، من مدينة «رعمسيس». وهذه المدينة، كما هو معروف من السجلات المصرية، قد بناها رمسيس الثاني الذي اشتهر بتشييد المباني العامة وأطلق عليها اسمه. ومنها أيضًا، أن اسم إسرائيل قد ورد لأول مرة في السجلات التاريخية، في نصٍّ للفرعون «مرنفتاح» عام ١٢٢٠ق.م.، يتحدث عن وجود فئة في كنعان اسمها إسرائيل. وقد ورَد الاسم في صيغة لغوية هيروغليفية تدلُّ على شعب متجوِّل غير مستقر.[١]

في مقابل هذه المحاولات التاريخية الجادة لإعطاء صيغة شبه تاريخية لحادثة الخروج الملحمية، قامت محاولات أخرى تهدف إلى تقويض كل معارفنا التاريخية

---

١ W. H. McNeill and J. Sedlar, The Ancient Near East, Oxford, 1968, p. 25.

المتحصَّلة حتى الآن وفق المناهج العلمية، من أجل إثبات صحة الرواية التوراتية بحرفيتها وكما وردت في التوراة، باعتبار أن الكتاب هو كلمة الوحي التي لا تخطئ من ذلك، نذكر أعمال الأمريكي «عمانوئيل فيليكوفسكي»، وخصوصًا كتابه «عصور في الفوضى»،[٢] الذي أحدث ظهوره منذ عام ١٩٥٣م كثيرًا من الجدال داخل حلقات الاختصاصيين وخارجها. وكان منطلق فيليكوفسكي هو أن عدم التوافق بين الرواية التوراتية والتاريخ المصري، لا يرجع إلى خلل في الرواية التوراتية، بل إلى خلل في المعلومات التاريخية المتحصلة لدينا. من هنا أخذ على عاتقه مهمَّة تصحيح تاريخ مصر وتاريخ الشرق الأدنى القديم، فعمد إلى تعديل التواريخ المصرية مدة ستمائة سنة وعاد بتاريخ الخروج إلى القرن الثامن عشر قبل الميلاد، إبان نهايات المملكة المتوسطة؛ وذلك بأسلوب مبدع يختلط فيه البحث التاريخي بالأسلوب الروائي البوليسي.[٣]

ونظرية الصليبي في مسألة الخروج، تعتمد بدورها على القبول بحرفية الرواية التوراتية والبحث عن منفذ للخروج من مأزقها التاريخي، ولكن دون مساس بتواريخ الشرق القديم، بل بإلغاء أيَّة إمكانية للمقارنة بينها وبين الرواية التوراتية، وذلك بنقلِ مسرح الحدث إلى غرب العربية حيث تنعدم التواريخ والأحداث التاريخية الثابتة.

وقد تعامل الصليبي مع مسألة مصر بحرية أكبر مما رأيناه في مسألة الأردن. فإذا كان الأردن تارةً الجرف الرئيسي لسراة عسير، وتارةً ثانية أيُّ مَرتفع من القمم والمُرتفعات التي لا تحصى في الجانب البحري من عسير وجنوب الحجاز، وتارةً ثالثة أي مجرى أو مسيل أو بركة ماء، فإنَّ موقع مصر يَنتقِل عند الصليبي من إفريقيا إلى الجزيرة العربية جيئة وذهابًا، وفق الحادثة التوراتية المترافقة معها. فإن كان للحادثة التوراتية تقاطع ثابت مع واقعة تاريخية مثبتة، لم يجد الصليبي مناصًا من الاعتراف بأن المقصود بالكلمة التوراتية «مصريم» هو مصر الفرعونية، وإن لم يكن للحادثة أي تقاطع تاريخي ثابت، أخذها بحرفيتها كحادثة تاريخية، ووجد لمصريم المرتبطة بها موقعها المناسب، فهي إما قرية «المصرمة» في مرتفعات عسير بين أبها وخميس مشيط، أو قرية «مصر» في وادي بيشة في عسير الداخلية أو «آل مصري» في منطقة الطائف.

---

[٢] I. Velikovsky, Ages in Chaos, Abacus, London, 1981.

[٣] لا يقلُّ إعجابي بهذا الكتاب عن إعجابي بكتاب الصليبي، رغم قناعتي التامة ببطلان النظريتين.

ففيما يتعلق بحملة الفرعون «شيشق الأول» على مملكة يهوذا والوارد ذِكرها في سِفر الملوك الأول ١٤: ٢٥–٢٨ يعترف الصليبي بأن المقصود بمصريم هنا هو مصر الفرعونية. وهو لا يستطيع غير ذلك؛ لأنَّ شيشق الأول (٩٤٥–٩٢٤ق.م.) معروف تاريخيًّا على أنه الفرعون الأول من الأسرة الثانية والعشرين في مصر، وأخبار حملته مذكورة في السجلات المصرية بتفاصيلها. وكذلك الأمر فيما يتعلق بحملة الفرعون «نخو» وهزيمته من قبل البابليين عند الفرات، الوارد ذِكرها في سِفر الملوك الثاني من الأسرة السادسة والعشرين في مصر، وأخباره مذكورة في سجلات وادي الرافدين.

أما فيما يتعلَّق بقصص الآباء ودخول مصر أيام يوسف ثمَّ الخروج منها بقيادة موسى، وجميعها روايات لا تتقاطَع مع أخبار الشرق القديم وسجلاته، فقد حوَّل مسرحها باطمئنان إلى غرب العربية. فرحيل «أبرام» وزوجته «ساراي» إلى مصر بعدما حدث جوع شديد في الأرض (التكوين ١٢: ١٠: ٢٠) هو رحيل إلى موقع قرية «المصرمة» بين أبها وخميس مشيط، التي يرى فيها «مصريم» سِفر التكوين، وفي حاكمها المتسلِّط «فرعة»،[٤] فرعون الرواية التوراتية. «والمصرمة» هذه، هي التي وصَل إليها يوسف بن يعقوب وتبعه بعد ذلك إخوته حيث أقاموا وتناسَلوا إلى زمن الخروج. وفي ذلك يقول الصليبي: [ليس هناك أدنى شك بأن أسلاف الإسرائيليِّين من العبرانيِّين كانوا ذات يوم قومًا قبليًّا وقع في الأَسر وأُجبر على العمل في السخرة في مكان اسمه «مصريم» لم يكن بالضرورة مصر، وأنهم خرجوا من هناك في هجرة جماعية برعاية قائد يُسمَّى موسى، نظمهم في مجتمع ديني وأعطاهم شريعتهم، وأنهم عبروا نقطةً تُسمى هـ - يردن ليست بالضرورة نهر الأردن برعاية قائد آخر اسمه يشوع ليستقروا في أرض كانت لهم عليها أخيرًا السيطرة السياسية] (ص٥٣).

هذا جلُّ ما يذكره الصليبي عن رواية الخروج من مصر وهو رغم تحديده للمكان الذي خرج منه الإسرائيليون بالمصرمة في القسم الجنوبي لمُرتفَعات عسير (انظر خريطة الصليبي رقم ٦). وتحديده لمكان الانطلاق لعبور الأردن بمنطقة الطائف في الشمال (انظر خريطة الصليبي رقم ٧)، إلا أنه لم يُعنَ بدراسة مسار الخروج من المصرمة إلى الطائف، وذلك فيما عدا بضع إشارات ثانوية في هوامش الصفحة ٧٠ والصفحة ٥٢.

[٤] لقب الفرعون في اللغة المصرية القديمة هو «برعو».

ولعلَّ السبب الأساسي في ذلك، هو عدم مقدرته على حل مشكلة عبور البحر الذي شقَّه موسى بعصاه ومشى فيه على اليبس مع أتباعه.

فمهما كان اتجاه الطريق الذي سار عليه الفارُّون بين المصرمة والطائف، فإنهم لن يلتقُوا ببحر أو بتجمُّع مياه كبير يشبه البحر.[٥] ولكنه توقف طويلًا عند جبل «حوريب» الذي تجلَّى عنده الرب لموسى أول مرة في شجر تحترق، عندما كان يرعى غنم حميه «يثرون» كاهن «مديان» بسيناء، ثم عرج على الموضع نفسه بعد الخروج بجماعتِه من مصر، وهناك وقعت المعركة الكبرى بينهم وبين العماليق.

في تعرفه على جبل حوريب يستعين الصليبي هذه المرة بالقرآن الكريم، فيقول إنَّ القرآن الكريم حيثما تكلم عن الآباء العبريين أو عن إسرائيل أو عن الأنبياء اليهود، أشار إلى عدد من الأماكن التي هي من الأسماء المعروفة في غرب شبه الجزيرة العربية. وحيث يُمكن للتوراة مثلًا أن تعطي اسم جبلٍ في غرب العربية، فإن القرآن قد لا يعطي اسم هذا الجبل، بل اسم وادٍ أو بلدة أو اسم موقع آخر في الجوار نفسه. وحتى الآن جرى البحث عن جبل حوريب التوراتي في سيناء ولم يُعثر عليه بهذا الاسم. ولكن القرآن يقول لنا بدقَّة أين كان حوريب، فهو مُرتفَع جبلي في المنطقة البحرية من عسير، ويُسمى اليوم جبل هادي. وعلى سفح جبل هادي هناك قرية ما زالت تُدعى حتى اليوم «الطوَّا» يُمكن أن تكون قد أعطَت اسمها ذات يوم إلى رافد مُجاور يَصب في وادي بقرة، ولا بدَّ أن هذا الرافد هو الوادي المقدس طوى المذكور في القرآن، وفي وادي بقرة، توجد هناك حتى اليوم قرية تُدعى «حارب» لا بد أن تكون قمة جبل هادي المجاورة قد أخذت منها (ص٦٩–٧٠).

والاستشهاد هنا يتمُّ بما ورد في سورة القصص ٢٩–٣٠ حيث نقرأ: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ * فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾. وبما ورَد في سورة طه: ١١–١٢: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾. والحقيقة، فإنَّ كمال الصليبي في استشهاده بالقرآن الكريم قد

[٥] تدارك الصليبي هذه الثغرة في كتابه الجديد «خفايا التوراة وأسرار شعب إسرائيل» الذي وصلنا بينما كان مخطوط كتابنا تحت التنضيد.

قدَّم نصف الحقيقة فقط؛ لأن جبل الطور الذي بالواد المقدس طوى يقع في سيناء على ما تذكره آيات أخرى، وهذا يتطابق مع الرواية التوراتية عن مكان حبل حوريب. نقرأ في سورة التين: ٢–٣: ﴿وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾، وفي سورة المؤمنون: ٢٠: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ﴾.

ويَرتبط بمصر في التوراة بلد آخر اسمه «كوش» الذي يرد في مُعظم المواضع مُقترنًا بمصر. وبما أن النصوص التوراتية توحي بأن كوش تقع إلى الجنوب من مصر، فقد طابق الباحثون بينها وبين الحبشة، خصوصًا وأن الترجمة السبعينية تورد الاسم تارةً بصيغته العبرية «كوش» وتارة تُترجمه إلى الحبشة. ولكن الكثير من المؤرِّخين وعلماء اللغات القديمة يَميلُون إلى اعتبار كوش على أنها أرض النوبة.

غير أن للصليبي رأيًا مختلفًا في هذه المسألة، فهو بعد أن نقل مصر إلى غرب العربية كان لا بدَّ من نقل كوش معها، حيث يعثر على مكانها القديم في موقع «الكوثة» اليوم قرب خميس مشيط ... وهو يتَّخذ من رواية هجوم «زارح الكوشي» على مملكة يهوذا منطلقًا لإثبات وجهة نظره. نقرأ في سِفر أخبار الأيام الثاني ١٤: ٩: [فأخرج إليهم زارح الكوشي بجيش ألف ألفٍ، وبمركبات ثلاثمائة وأتى إلى مريشة. ودعا آسا الرب وقال ... فضرب الرب الكوشيين أمام آسا وأمام يهوذا، فهرب الكوشيون وطردهم آسا والشعب الذي معه إلى جرار ... وضربوا جميع المدن التي حول جرار؛ لأن رعب الرب كان عليهم، ونهبوا كل المدن لأنه فيها نهب كبير].

وتعليقًا على هذه الرواية يقول الصليبي: [وتَبرُز مشكلات أخرى من خلال ذكر جرار في أخبار الأيام الثاني ١٤؛ حيث تبدو البلدة وكأنها تخصُّ الكوشيين. وقد عرف هؤلاء الكوشيون تقليديًّا بكونهم حبشيين ... وإذا نحن سلَّمنا بأنَّ الكوشيين كانوا بالفعل حبشيين، يبقى هناك السؤال كيف تيسَّر لهؤلاء الحبشيِّين أن يسيطروا على أرض هي أرض جرار، ويَفترض أنها كانت في فلسطين؟ وهل كان هؤلاء الحبشيُّون مصريِّين من عهد الأسرة الخامسة والعشرين؛ أي الأسرة الحبشية (٧١٦–٦٥٦ق.م.)؟ هذا أمر غير معقول باعتبار أن سيطرتهم على جرار كانت في عهد آسا ملك يهوذا الذي تُوفِّي قبل عهد الأسرة الحبشية هذه بحوالي قرن ونصف القرن ... ولحلِّ هذا اللغز الغامض المحيط بجرار قد يكون من الأفضل الانطلاق من الدليل الوارد في أخبار الأيام الثاني ١٤. ومحاولة تحديد الهوية الحقيقية للكوشيين المذكورين في هذا النص، وكما أُشير سابقًا، فإن كوش يترافق ذكرها في النصوص التوراتية مع مصريم التي تشير بالتأكيد إلى مصر في بعض

الفقرات التوراتية، أما في أماكن أخرى في التوراة فإن مصريم تشير إلى أي من المواقع العديدة في غرب شبه الجزيرة العربية، بما فيها قرية المصرمة في مرتفعات عسير بين أبها وخميس مشيط، أو قرية مصر في وادي بيشة في عسير الداخل، والباحث عن كوش في ذلك الجوار العام يجدها فورًا في «الكوثة» – كوث – قرب خميس مشيط].

وفي الواقع فإن الرواية التوراتية لم تذكر أن قائد القوة المهاجمة كان ملكًا لمصر أو حتى ملكًا لكوش، بل اكتفت بوصفه بالكوشي. وفي ذلك دلالة مهمة وواضحة على أن الكوشيين لم يصعدوا من إقليم في جنوب مصر إلى مملكة يهوذا، بل كانوا يعملون لمصلحة فرعون مصر، وإلا لكان النص قد وصف زارح بأنه ملك كوش، كما وصف «ترهاقة» فيما بعدُ، ولدينا أكثر من بيِّنة نصية على تواجدٍ مكثف للقوات الكوشية في الجيش المصري (راجع أخبار الأيام الثاني ١٢: ٣) وأغلب الظن أن زارح هذا لم يكن سوى قائد مصري من أصل حبشي أو نوبي توجه بأمر من الفرعون على رأس حملة قوامها الكوشيون لتأديب ملك يهوذا، وقد سيطروا في طريقهم على مدينة جرار وجوارها من أراضي الفلستيين. وعندما صدهم آسا تراجعوا إلى جرار التي كانت بمثابة قاعدة المؤخَّرة لحملتهم. وعندما أخلوها نهبها آسا مع المواقع المجاورة لها، والتي لم تكن أصلًا من أملاكه.

ويتكرَّر ذِكر كوش مرارًا كثيرة في التوراة، وغالبًا ما تُذكر بالترافُق مع ممالك كبرى مثل فارس والهند وعيلام وفوط (ليبيا)، الأمر الذي يؤكد صحة مطابقتها مع الحبشة أو بلاد النوبة، ويستبعد «كوثة» الصليبي في غرب العربية من مسرح الأحداث نقرأ في سِفر إشعيا ١١: ١١ [ويكون في ذلك اليوم أن الرب يُعيد يده ليقتني بقية شعبه التي بقيت من آشور ومن مصر ومن فتروس ومن كوش ومن عيلام ومن شنعار ومن حماة ومن جزائر البحر]. وفي حزقيال ٣٨: ٥ [وأخرجك أنت وكل جيشك خيلًا وفرسانًا كلهم لابسين أفخر لباس ... فارس وكوش وفوط معهم كلهم بمجنٍّ وخوذة ...].

وحيثما ذكرت كوش بالترافق مع مصر، كانت الإشارة واضحة في النص إلى مصر الفرعونية، الأمر الذي يستبعد «مصرمة» و«كوثة» كمال الصليبي في غرب العربية. نقرأ في إرميا ٤٦: ٧–٩: [من هذا الصاعد كالنِّيل، كأنهار تتلاطم أمواجها تصعد مصر كالنيل، وكأنهار تتلاطم المياه. فيقول (الربُّ) أصعد وأغطي الأرض، أهلك المدينة والساكنين فيها، اصعدي أيتها المركبات ولتخرج الأبطال. كوش وفوط القابضان المجن ...]. وفي حزقيال ٢٩: ٩–١٠: [ويأتي سيف على مصر، ويكون في كوش خوف شديد عند سقوط القتلى في مصر ... ويسقط عاضدو مصر وتنحطُّ كبرياء عزتها من مجدل إلى أسوان]. وفي حزقيال

٢٩: ١٠: [لذلك ها أنا ذا عليك وعلى أنهارك، وأجعل أرض مصر خربًا خربة مقفرة من مجدل إلى أسوان إلى تخم كوش]. إضافة إلى ارتباط كوش بمصر الفرعونية في هذه النصوص، فإنَّ فيها إشارة واضحة إلى موقع كوش إلى الجنوب من مصر، فهي تلي مناطق أسوان في أقصى جنوب مصر.

وفي سِفر إستير ١: ١ يرد ذِكر كوش باعتبارها إحدى النقاط القاصية التي امتدَّت إليها الإمبراطورية الفارسية، ويَقترن ذكرها هنا بالهند [وحدث في أيام أحشويرش، هو أحشويرش الذي ملك الهند إلى كوش ...]. وأحشويرش هذا هو حفيد قورش الكبير واسمه باليونانية XER XER (٤٨٥–٤٦٥ق.م.)، وقد ورث إمبراطورية قورش وقمبيز التي امتدَّت من الهند إلى وادي النيل. وقد ترك لنا أحشويرش نصًّا يرسم فيه حدود إمبراطوريته المُترامية، والبلدان التي تؤدِّي له الجزية وتخضع لأوامره وشرائعه، فيذكر الهند والعربية وأيونيا ومصر وليبيا وما بين هذه الأقطار، ثم يَنتهي بكوش.[٦] ومن البدَهي ألا يكون حد الإمبراطورية الفارسية في نقطته القصوى، التي تطابقت في كلا النصين الفارسي والتوراتي، هو «الكوثة» ذلك الموقع المغمور في غرب العربية.

وفي النصوص التوراتية التي ترد فيها كوش غير مقترنة بغيرها من البلدان يتضح من وصفها أنها ليست سوى ذلك الجزء الذي يلي مصر على حوض النيل. نقرأ في سِفر إشعيا ١٨: ١: [يا أرض حفيف الأجنحة التي في عبر أنهار كوش، المرسلة رسلًا في البحر وفي قوارب من البردي التي تَسير على وجه المياه. اذهبوا أيها الرسل إلى أمة طويلة وجرداء إلى شعب مخوف]. إنَّ التعابير المستعمَلة هنا مثل أنهار كوش وقوارب البردي التي تَسير على وجه المياه، والرسل التي تعبر البحر، لا يمكن أن تشير إلا إلى بيئة لها علاقة بنهر النيل وإفريقيا.

وهناك بينة منطقية تستمدها من أخبار حملة شيشانق ملك مصر على أورشليم الواردة في أخبار الأيام الثاني ١٢: ١–٤: [وفي السنة الخامسة للملك رحبعام، صعد شيشق ملك مصر على أورشليم؛ لأنهم خانوا الرب، بألف ومائتي مركبة وستين ألف فارس ولم يكن عدد للشعب الذين جاءوا معه من مصر، لوبيين وسكيين وكوشيين. وأخذ المدن الحصينة التي ليهوذا وأتى إلى أورشليم]. فإذا كانت حملة شيشانق قد تمَّت، كما يقول الصليبي ضد غرب العربية، فكيف حوت في صفوفها الكوشيين من أهل «الكوثة» وهي

[٦] Leo Oppenheim, Babylonian and Assyrian Historical Texts, op. cit., p. 316.

مدينة في غرب العربية ذاتها؟ وما الذي حوَّل بأهل الكوثة إلى مصر ليعودوا مرةً أخرى كعناصر مقاتلة في جيشها إلى جانب عناصر إفريقية أخرى مثل اللوبيين والسكيين؟

وتتَّفق النصوص المصرية مع النصوص التوراتية بخصوص موقع كوش في جنوب مصر، نقرأ على سبيل المثال في نص من عهد الفرعون «سنوستريس الأول» (١٩٧١–١٩٢٨ق.م.) تركه أحد قادته العسكريين: [تبعت سيدي عندما أبحر جنوبًا ليقهر الشعوب البربرية الأربعة، أبحرت جنوبًا كابن لسيد نبيل يحمل الختم الملكي، وقائدًا للقوات خلفًا لأبيه الشيخ المفضَّل لدى القصر والمحبوب من البلاط. عبرت كوش متَّجهة جنوبًا إلى أقاصي البلاد. جلبت معي كل أنواع الهدايا الثمينة وأطبقت شهرتي الآفاق ثم عاد جلالته بعد القضاء على أعدائه في كوش].[٧]

أما الآشوريون فقد دعوا «كوش» باسم «كوشو»، ويتَّفق مع ما ورد في سجلاتهم عنها مع ما تحصَّل لدينا من النصوص التوراتية والمصرية. نقرأ في التوراة عن أول احتكاك بين الآشوريين والكوشيين في سِفر الملوك الثاني ١٩: ٨–٩، حيث يَصعد «ترهاقة» ملك كوش لنجدة ملك يهوذا الذي حرضه على آشور [فرجع ربشاقي ووجد ملك آشور (سنحاريب) يحارب لبنة لأنه سمع أنه ارتحل عن لخيش. وسمع عن ترهاقة ملك كوش قولًا: قد خرج ليحاربك. فعاد وأرسل رسلًا إلى حزقيا قائلًا هكذا تكلمون حزقيا ملك يهوذا قائلين …]. وترهاقة ملك كوش المذكور في هذا النص، هو الفرعون الثالث من الأسرة الخامسة والعشرين والتي تُدعى بالأسرة الحبشية ولم يكن في عهد سنحاريب قد ارتقى العرش، بل كان يعمل قائدًا في خدمة الفرعون السابق، ثمَّ ارتقى العرش قبل عدة سنوات من ارتقاء «أسرحادون» كآخر فراعنة الأسرة الحبشية. وكما وجدنا ترهاقة يتدخل في السياسة الفلسطينية أيام الملك حزقيا، كذلك نجده وقد صار فرعونًا يتدخَّل في شئون الساحل الفينيقي محرضًا الممالك الفينيقية على آشور نقرأ في نص لأسر حادون:

[… قهرتُ صور التي في البحر، وأخذت كل مدن وممتلكات ملكها «بعلو» الذي وضع ثقته في ترهاقة ملك كوش ثم قهرت مصر وكوش، أما ملكها ترهاقة فقد أصبته بخمسة جراح برميات السهام، وحكمت فوق جميع بلاده وحملت منها الأسلاب، بعدها كل الملوك في البحر من يدنانا (قبرص) إلى ترشيش (الساحل الإسباني) خضعوا لي وتلقيت منهم الجزية].[٨]

---

[٧] W. McNeill and J. Sedlar, The Ancient Near East, op. cit., p. 25.

[٨] Leo Oppenheim, Babylonian and Assyrian Historical Texts, op. cit., p. 290.

بعد فتح مصر وكوش، يقوم أسر حادون بتعيين ملوك مصريين محليين في مختلف المقاطعات تابعين له مُباشرةً ويعود إلى آشور، غير أن ترهاقة الذي توارى عن الأنظار في الأحراش يعود إلى تنظيم قواته ويستولي على مصر مجددًا، ويطارد الملوك المعنيين من قِبل آشور، فيحمل عليه خليفة أسر حادون «آشور بانيبال». نقرأ في خبر هذه الحملة:

[ترهاقة ملك مصر وكوش، الذي هزمه أبي أسر حادون وحكم بلاده، نسي عظمة آشور وعشتار وبقية أسيادي الآلهة، واضعًا ثقته في قوته، انقلب على الملوك والولاة الذين عيَّنهم أبي في مصر، ودخل مدينة «ممفيس» التي ألحقها أبي بأملاك آشور، فجعلها مقرًّا له ... دعوت قواتي التي أوكلها إليَّ الإله آشور والإلهة عشتار، واتخذت الطريق المباشر إلى مصر وكوش ... ترهاقة ملك مصر وكوش، سمع في ممفيس باقتراب حملتي، فدعا كل محاربيه وأرسلهم إلى المعركة الفاصلة ضدي، ولكني هزمتُ القوات المدربة لجيشه في معركة مفتوحة كبيرة. سمع ترهاقة في ممفيس بخبر الهزيمة فأعماه الهلع من عظمة آشور وعشتار حتى غدا كالمجنون، ثم هرب طالبًا حياته إلى مدينة «ني» (طيبة) ولكني تقدمت وأخذت هذه المدينة أيضًا (يلي ذلك تعداد لأسماء الملوك الذين أعادهم آشور بانيبال إلى مناصبهم، وبينهم نخو، الذي سيغدو فرعونًا فيما بعد ويُقاوم نبوخذ نصر). كل هؤلاء الملوك والحكام والولاة الذين عيَّنهم أبي في مصر، والذين تركوا مناصبهم إبان تمرُّد ترهاقة وتوزعوا في البلاد، أعدتهم إلى مراكزهم السابقة، وتوليت من جديد مقاليد مصر وكوش. أما ترهاقة الذي أخذه الخوف في مخبئه من أسلحة آشور سيدي، فلم يُسمَع عنه خبر بعد ذلك].[٩]

فأين «المصرمة» و«الكوثة» في هذا الإطار الواسع لتاريخ الشرق القديم؟

(١) استطراد حول الخروج: قصة بلعام بن بعور

عندما ناقشنا مسألة تاريخية الرواية التوراتية، وخصوصًا في الأسفار الخمسة الأولى منها، توصَّلنا إلى نتيجة مفادها أن أحداث هذه الأسفار المدعوة بأسفار موسى،[١٠] لا يُمكن تصنيفها إلا في عداد الملاحم التي تعوَّدت التقاليد الشعبية تدبيجها والإضافة عليها جيلًا

[٩] Ibid., pp. 294–295.

[١٠] وطبعًا لا علاقة لموسى بهذه الأسفار لأنه لم يكن سوى شخصية بين حشدِ شخصياتها الكثيرة وأخبارها تأتي بقصص عما قبل موسى وما بعده.

بعد جيل، دون أن يمنع ذلك من وجود عناصر تاريخية مُوغلة في القدم لا يُمكن فرزها بسهولة عن نتاج الخيال الجامح، واستخلاصها من شبكة الأحداث الملحمية التي تُحيط بها. وهذه العناصر التاريخية، لا تغدو تاريخًا بالمعنى العِلمي للكلمة إلا في حال تقاطُعها مع وقائع تاريخية ثابتة، أو مع جملة نتائج آثارية. وفي الحقيقة، فإنَّ رواية الخروج من مصر من بدياتها في مدينة رعمسيس إلى نهايتها عند شاطئ نهر الأردن لم تجد لها سندًا حتى الآن من شاهد تاريخي أو أركيولوجي. إلا أنَّ هناك حادثة صغيرة في سِفر العدد الإصحاح ٢٢، تؤيد ما ذهبنا إليه من وجود أحداث موغلة في القدم وشخصيات عاشت في غابر الأزمان، وجدت طريقها إلى حبكة الملحمة.

نقرأ في العدد ٢٢: ١–٨ [وارتحل بنو إسرائيل ونزلوا في عربات موآب من عبر الأردن أريحا ... وكان بالاق بن صفور ملكًا لموآب في ذلك الزمان. فأرسل رسلًا إلى (العرَّاف) «بلعام بن بعور» إلى «فتور» التي على النهر في أرض بني شعبه ليدعوه قائلًا: هو ذا شعب قد خرج من مصر هو ذا قد غشى وجه الأرض، وهو مُقيم مُقابلي، فالآن تعالَ والعن لي هذا الشعب لأنه أعظم مني، لعله يُمكننا أن نكسره فأطرده من الأرض، لأني عرفت أنَّ الذي تباركه مباركٌ والذي تلعنه ملعونٌ. فانطلق شيوخ موآب وشيوخ مديان، وحُلوان العرافة بين أيديهم وأتوا إلى بلعام وكلموه بكلام بالاق، فقال لهم بيتوا هنا الليلة فأردُّ عليكم جوابًا كما يكلمني الرب فمكث رؤساء موآب عند بلعام].

عن بلعام بن بعور هذا، يقول الصليبي [وكان بلعام هذا من «آرام» (ء ر م، العدد ٢٣: ٧) من «جبال قدم» (ففي الترجمات جبال المشرق ٢٣: ٧). وقد سبق القول أن «آرام» هو على الأرجح الاسم القديم للحجاز وما يليه إلى المشرق من وادي «رم» بمنطقة القصيم. وقد سبق أيضًا أن أرض «قدم» ليست أرض المشرق، بل موطن بني جذمة (جذم، قابل مع قدم) بداخل الحجاز بين الطائف والمدينة، ومنه منطقة القصيم. وكان بلعام يقيم هناك في «فتور» التي على النهر (٢٢: ٥) وفتور هذه على الأرجح هي اليوم واحة الطرفية (بالاستبدال) بمنطقة القصيم، حيث يمرُّ النهر الذي هو مجرى وادي الرمة. ويبدو أن بلعام لم يكن اسم شخص العرَّاف، بل اسم القبيلة أو العشيرة التي ينتمي إليها. والدليل على ذلك أن بلعام (يلعم، تمامًا كما في التوراة، وبالتصويت ذاته) ما زال إلى اليوم اسمًا لقرية من جوار الطرفية بمنطقة القصيم].[١١]

[١١] هذا مقطع من فصل «شهادة بلعام» في الكتاب الثاني لكمال الصليبي الذي يُقدِّم فيه تطبيقات متنوعة لنظريته الأصلية، وقد وصلنا الكتاب عندما كان مخطوط كتابنا قيد التنضيد، ومن هنا جاء الاستطراد.

وفي الواقع، فإنَّ نتائج التنقيب الأثري في منطقة «دير العلا» الواقعة إلى الشمال من مصبِّ نهر الزرقا بشرق الأردن، قد كشفت عن نصوص آرامية على غاية كبيرة من الأهمية، بينها نص يؤكد أن بلعام كان شخصًا بعينه وليس اسمًا لقبيلة. والنص بعنوان: [هذه سطور «بلعام بن بعور» ناظر الآلهة].[١٢] وهذه بينة أركيولوجية وكتابية دامغة تظهر إلى أي مدى يمكن لمنهج مقابلة أسماء المواقع، أن يُؤدِّي إلى نتائج بعيدة عن واقع الأمور، عندما يفتقر إلى التقاطعات التاريخية والأركيولوجية.

لقد كان بلعام بن بعور شخصيةً دينية آرامية رفيعة المقام، كما يبدو من النص التوراتي والنص الآرامي. وقد بقيت ذكراه قائمةً في الذاكرة الشعبية، ثم انتقلت بطريقة ما إلى الرواية التوراتية. وها هو يخرج إلينا من تحت أنقاض موقع آرامي عريق، ليذكرنا بأن التاريخ يكتب بمعول التنقيب، لا بالتأمُّلات اللغوية الذهنية.

---

[١٢] الدكتور علي أبو عساف: الآراميون، دار أماني، الجمهورية العربية السورية، ١٩٨٨م، ص٧٠.

الفصل الثالث

أرض كنعان

شكلت أرض كنعان، تاريخيًّا، المناطق السورية الواقعة إلى الغرب من نهر الفرات بما فيها فلسطين. أما الكنعانيون كشعبٍ، فلم يُفصَل بعدُ في أمر موطنهم الأصلي وتاريخ استيطانهم في الأرض التي أعطتهم اسمها أو أعطوها اسمهم، إلا أن هنالك من البيِّنات ما يشير بوضوح إلى أنهم كانوا موجودين في سورية الجنوبية منذ الألف الرابع قبل الميلاد، ذلك أن العديد من المدن التي تأسست مع نهاية الألف الرابع ومطلع الألف الثالث، مثل بيت شان ومجدو وأريحا وبيت يارح تحمل أسماء كنعانية.[١]

ورغم تعدد الآراء في نشأة الكنعانيين الأولى ومصدرهم، تبقى جميعها في حدود الفرضيات غير المثبتة؛ فمن قائل بقدومهم من منطقة الخليج العربي، أو أريتريا، أو البادية السورية–العربية، أو سيناء. وجلُّ هذه الآراء يعتمد على المُؤلِّفين الكلاسيكيين المتضاربة أقوالهم بهذا الخصوص. والحق أنَّ أكثر النظريات قربًا من المنطق السليم، هي التي تجعل الكنعانيين أصليين في أرضهم، وترى في مدنهم الأولى تطورًا طبيعيًّا لمستوطنات العصور الحجرية الأقدم.[٢] ذلك أن الكثير من مقارِّ الكنعانيين التاريخيين، كانت مستوطنات مُزدهرةً في عصور ما قبل التاريخ.

ولا أدلَّ على ذلك من أريحا وجبيل وأوغاريت. فأريحا كانت أحد المراكز القليلة التي ظهرت فيها الزراعة لأول مرة في التاريخ مع مطالع العصر الحجري الحديث خلال الألف

[١] W. F. Albright, The Role of the Canaanites in History (in: the Bible and the Ancient Near East, Eisenbrauns, Indiana, 1979), pp. 328–332.

[٢] S. Moscati, The World of the Phoenicians, Cardinal, London 1979, pp. 22–23.

الثامن قبل الميلاد. وكانت في بنيتِها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية نُموذجًا موغلًا في القدم للمدن الأولى التي ظهرت أيضًا مع مطالع العصر الحجري الحديث، وقد استمرَّت مسكونة إلى نهاية العصر البرونزي حيث تضاءلت أهميتها وتحوَّل موقعها القديم إلى القرية التي ما زالت قائمةً اليوم. وأيضًا أوغاريت التي نشأت في العصر الحجري الحديث واستمرَّت مسكونةً إلى حين دمارها على يد شعوب البحر حوالي ١٢٠٠ق.م.[٣]

ويمدُّنا موقع جبيل بشكلٍ خاصٍّ بأهم وأغزر الوثائق الآثارية التي تشير إلى عراقة المدن الكنعانية وعلاقاتها المبكرة مع الحضارات المُجاورة؛ فقد عُثر في الموقع على مصنوعات مصرية عليها نقوش هيروغليفية يعود تاريخها إلى النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد، تثبت علاقات ملوك جبيل بفراعنة مصر من الأسرات الأولى. وفي المنطقة الملكية بمدينة عاي الكنعانية بفلسطين، عُثر على طاسات حجرية مصرية تعود إلى عهد الأسرة الثالثة. وبالمُقابل، فقد عُثر في مقابر الأسرة الفرعونية الأولى على فخَّاريات ومصنوعات كنعانية أخرى من الساحل السوري. كما استطاع علماء اللغات تمييز عدد من الكلمات الكنعانية المستعارة إلى الهيروغليفية المبكرة مثل «كرمو» أي كرم العنب «قمحو» أي قمح.[٤] غير أن العلاقات الودية والمتكافئة بين مصر وكنعان، ما لبثت أن تحوَّلت إلى علاقة تسلُّطٍ وسيطرةٍ من قِبل المصريين مع مطلع الألف الثاني قبل الميلاد؛ حيث بدأ فراعنة المملكة المتوسِّطة، بعد إعادة توحيد مصر عقب الفترة الانتقالية الأولى، بالنظر إلى ممالك بلاد الشام كمناطق نفوذ طبيعية، ولكن كنعان لم تكن مطيَّةً سهلةً لهم، ولنا في نصوص اللعن المصرية العائدة إلى تلك الفترة والتي تصف حكام المناطق الكنعانية بالمتمردين وتطلب من القوى الإلهية تدميرهم، مثالٌ حيٌّ على ذلك.

وخلال الفترة الانتقالية الثانية في مصر إبان حُكم الهكسوس، تراخت قبضة مصر عن كنعان مدة قرنين من الزمان انتعشت خلالها دويلات المدن الكنعانية، واستطاعت تدريجيًّا امتصاص موجة العموريِّين، التي اجتاحت المنطقة منذ مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، وسببت انقطاعًا في الحضارة الكنعانية ودمارًا لأهم مواقعهم الحضارية. وإضافة إلى الدماء العمورية التي رفدت بلاد كنعان، فقد وفَدَت إليها جماعاتٌ عرقية غير ساميةٍ من الشمال، مع بدايات الانسياح الحوري الذي غمر مناطق بلاد الشام الشمالية. ومع مطلع

[٣] James Mellaart, the Neolithic of the Near East, Thames and Hudson, London, 1981.

[٤] W. F. Albright, op. cit., p. 332.

القرن الخامس عشر، نعثر في فلسطين بشكلٍ خاصٍّ على أسماء حُكام هندو–أوروبيين، كما هو الحال في مجدو وأورشليم وأشقلون، دون أن ندري بالتفصيل عن الكيفية التي تم بها توطُّن هذه الجماعات الغريبة.

إلا أن مصر بعد تحرُّرها من الهكسوس، أواسط القرن السادس عشر قبل الميلاد، عادت إلى توطيد وجودها في سوريا، وتنازعت مع الحثِّيِّين السيطرة على بلاد الشام حتى سقوط الإمبراطورية الحثية على يد شعوب البحر، الذين تابعوا بعد ذلك تدمير الممالك الكنعانية في طريقهم إلى مصر، حيث تكسرت موجة هجومهم العارمة أما قوة جيش رمسيس الثالث، آخر عمالقة التاريخ المصري. وقد نجم عن هجمات شعوب البحر فراغ حضاري في بلاد كنعان، أخذ الآراميون الذين بدءوا بالتوطن في سورية الداخلية بملئِه تدريجيًّا، والسير بالمنطقة نحو عصر جديد. ولم تحتفظ الهوية الكنعانية بوجودها إلا على الشاطئ اللبناني في المنطقة المحصورة بين الجبل والبحر، حيث تابعت الحضارة الكنعانية استمرارها وتطورها في حلَّتها الفينيقية الجديدة، وأيضًا في منطقة فلسطين الداخلية التي تركها الفلستيون بعد أن توطنوا في المناطق الساحلية، والتي وقعت ولمدة قصيرة نسبيًّا تحت السيطرة السياسية لكلٍّ من إسرائيل ويهوذا.

هذه المناطق الأخيرة للتواجد الكنعاني، هي التي عرفها الإسرائيليون، وهي التي تحدَّث عنها كِتاب التوراة باعتبارها أرض كنعان، وحدَّدها في التكوين ١٠: ١٩–٢٠: [وكانت تخوم الكنعاني من صيدون حينما تجيء نحو جرارة إلى غزة. وحينما تجيء نحو سدوم وعمورة وأدمة وصبوئيم إلى لاشع]. وهذا النص رغم عموميته وبُعده عن الدقة الجغرافية بمفهومها العِلمي الحديث، إلا أنه يشير فعلًا إلى ما تبقَّى من أرض كنعان في نهاية الألف الثاني قبل الميلاد.

وتسمية «كنعان» و«كنعانيين» الواردة في التوراة، ليست مصطلحًا توراتيًّا كما يتصوَّر البعض، بل هي تسمية قائمة قبل تحرير أسفار التوراة، وقبل التاريخ المفترض لدخول الإسرائيليِّين إلى كنعان، فقد استعملت النصوص المصرية تسمية «كنعان» منذ الألف الثاني قبل الميلاد، وكانت تَرِد بصيغة «بي كنعان» PEKANAN.[٥] كما استعلمتْها المصادر المحلية في سورية، مثل نقش «أدريمي» ملك ألالاخ، من أواسط الألف الثاني

[٥] W. McNeill and J. Sedlar, The Ancient Near East, op. cit., p. 25.

قبل الميلاد، والذي يصفُ في هُروبه إلى بلاد كنعان من وجه مُغتصبي عرش أبيه، ثم عودته المظفرة بعد ذلك.[٦] وقد بقيت الكلمة مُستخدمة إلى العصر الهلنستي، حيث نجدها على العملة المعدنية المسكوكة في بعض مدن الساحل الكنعاني، كما نجدها في المصادر الكلاسيكية، وفي بلدان شمال أفريقيا، نجد التسمية ما تزال قائمةً إلى ما بعد الميلاد؛ حيث يتمسَّك المعمرون بأصلهم الكنعاني.[٧]

ولا نُريد هنا، أن ندخل في المسألة اللغوية حول أصل التسمية، رغم كثرة ما قيل في ذلك، غير أننا نودُّ أن نشير أخيرًا إلى أن الكنعانيِّين لم يتعوَّدوا استخدام اسم كنعان في الإشارة إلى أنفسهم أو أرضهم، ذلك أنَّ أرض كنعان لم تَعرف عبر تاريخها الوحدة السياسية أو السلطة المركزية. مِن هنا كانت الانتماءات دومًا لدولة المدينة، وانتسب كل فريق إلى مدينته وتَسمَّى باسمها، نستثني من ذلك الفترة التي كانت لصيدون فيها سلطة على جاراتها الفينيقية؛ حيث استعملت تسمية الصيدونيين للدلالة على الشعب الفينيقي، سواءً من قِبل الفينيقيين أنفسهم أم مِن قِبَل مَن احتكَّ بهم خلال تلك الفترة.

هذه كنعان بلاد الشام في التاريخ، وهي كنعان الوحيدة التي نَعرفها حتى الآن، فماذا قال كمال الصليبي في أمرها؟

[إنَّ أرض الكنعانيين التوراتيِّين هي في غرب شبه الجزيرة العربية وليس في فلسطين، كما يُفترض بها أن تضمَّ المنحدرات البحرية لعسير من منطقة بلحمر في الشمال عبر رجال ألمع، إلى منطقة جيزان في الجنوب، ومعظم هذه المنطقة ضمنًا. وهنا يُمكن ملاحظة وجود قريتين تُسميان «القناع» (قارن بالجذر كنع ومنه كنعن) في منطقة المجاورة شمال منطقة بلحمر. وفي الجوار الأوسع ذاته، هناك قريةٌ تُسمى «العزة» وكذلك قريةٌ تُسمى «القناع» وواحدةٌ تُسمَّى «ذي القناع» وواحدةٌ تُسمى «القنعات» وقريتان تُسميان «القنعة» توجدان في منطقة جيزان، هذا دون أن نتطرَّق إلى ذِكر أسماء الأمكنة المشتقة من الجذر نفسه في أجزاء أخرى من عسير وجنوب الحجاز. وأخيرًا هناك قريةٌ تُسمَّى «آل كنعان» (ءل كنع، وتعني حرفيًّا إله كنعان) في وادي بيشة عبر الشق المائي في منطقة المجاردة. والدليل الاسمي المتعلق بموقع الكنعانيين التوراتيِّين، تفريقًا عن أولئك الشاميين، في غرب

[٦] James Pritchard, The Ancient Near East, Princeton, 1975, V. 11, pp. 96–99.

[٧] S. Moscati, op., p. 21.

شبه الجزيرة العربية يستدعي إعادة نظرٍ دقيقة وبالعمق في الأفكار الشائعة حول هذا الموضوع] (ص١١٠–١٠٢).

هؤلاء الكنعانيون قد بدءوا بالهجرة إلى الساحل السوري قبل هجرة الإسرائيليِّين فهم: [قد نزحوا من غرب شبه الجزيرة العربية في زمن مُبكِّر ليُعطوا اسمَهم لأرض كنعان على امتداد الساحل الشامي شمال فلسطين في المنطقة التي سمَّاها الإغريق فينيقيا ... وفي كتابه عن الفينيقيين وعن سوريي فلسطين في القرن الخامس قبل الميلاد، لا يُبدي المؤرخ هيرودوتس أي شك حول كونهم من غرب شبه الجزيرة العربية. وهو يقول عن الاثنين: «هؤلاء الناس، واستنادًا إلى روايتهم نفسها، قطنوا قديمًا على البحر الأحمر، وبعُبورهم من ذلك المكان استقرُّوا على ساحل البحر في سورية، وما زالوا يقيمون.» ومهما كان شأن الهجرات الفلستية والكنعانية إلى هناك، لا بدَّ أن تكون قد نمت حجمًا على إثر الهزائم المتتالية التي ألحقها بهم بنو إسرائيل في مواطنهم الأصلية] (ص٣٣–٣٥ وخريطة الصليبي رقم ٦).

وفي الحقيقة فإن الصليبي هنا يستنتج من هيرودوتس بِحُرِّيَّةٍ كبيرة؛ ذلك أن المؤرِّخ الإغريقي لم يَقُل أنَّ الفينيقيِّين قد أتوا من غرب العربية، بل قال إنَّهم جاءوا من شواطئ بحر أريتريا (وهي التسمية الإغريقية للبحر الأحمر) دون أن يُرجِّح الجانب العربي من البحر على الجانب الأريتيري المقابل في أفريقيا، ونظريته معروفة تاريخيًّا بالنظرية الآريترية وهذه ترجمة للموضعين اللذين أورد فيهما ذِكر موطن الفينيقيين الأصلي؛ ففي الكتاب الأول الفقرة رقم واحد نقرأ: [إنَّ هؤلاء يوم جاءوا من سواحل بحر أريتريا إلى شاطئ بحرنا، سافروا في البحر مسافةً طويلة حالما استقروا في البلاد التي اتخذوها موطنًا لهم إلى الآن، وطفقوا يُتاجرون بالبضائع المصرية والآشورية بأن يَنقُلوها إلى عدة أماكن منها ...] وفي الكتاب السابع رقم ٨٩: [والفينيقيُّون كانوا يَسكنون سواحل بحر أريتريا، كما يقولون هم أنفسهم، وعندما اجتازوا من هناك إلى سواحل سوريا، قطنوها. وهذا القسم من سورية، مع كل البلاد التي تمتدُّ إلى تخوم مصر يُسمَّى فلسطين]،[٨] يُضاف إلى ذلك أن المؤلفين الكلاسيكيِّين الآخرين لا يُوافقون هيرودوتس الرأي، فلقد ذهب «إسترابو» إلى أن الكنعانيين قد جاءوا من خليج البصرة، وأكَّد على وجود معابد ومدائن شبيهة بما

[٨] تاريخ هيرودوتس، ترجمة بسترس مطبعة جاورجيوس، بيروت ١٨٨٦م.

هو موجود في فينيقيا، وأيَّده في ذلك «بليني»، أما «فيلو الجبيلي» فقد قال بأنَّ الكنعانيِّين أصيلون في سوريا ولم يُهاجروا إليها من أيٍّ مكانٍ.[٩]

وبعد أن حدَّد الصليبي موقع أرض كنعان في المنحدرات البحرية لعسير على مسافة كبيرة من ساحل البحر الأحمر، يقوم بتحديد مواقع أهم المدن الكنعانية الفينيقية الواردة في التوراة، في المناطق الداخلية لعسير وغرب العربية:

[صور التوراتية، لم تكن مدينة على حافة البحر (يم بالعبرية)، بل الواحة الحالية الكبيرة المسماة اليوم بالتحديد «زور الوادعة» في منطقة نجران بمحاذاة بلاد «يام» (قارون مع يم بالعبرية) المجاورة للصحراء العربية الداخلية. وسفنها (ءنيوت بالعبرية) كانت في الحقيقة قوافل حيوانات محملة (الأون بالعِبرية هو أحد جانبي ظهر الدابة) ... وجبيل التوراتية (جبل بالعبرية غير المحركة) ليست جبيل لبنان. وهناك جبيل معينة تقع قرب صور التوراتية هي «القابل» (القبل) في إقليم نجران. وأرواد غرب شبه الجزيرة العربية هي اليوم «رواد» في مرتفعات عسير] (ص٣٤–٣٥). [ومِن المؤكد أن «صيدن» ليست هي الميناء اللبناني «صيدون»، ومن بين أربعة صيدونات تُدعى اليوم «زيدان» أو «آل زيدان» (زيدن، قارن بالعبرية صيدن) تُوجد اليوم في أجزاء مختلفة من عسير، فإنَّ تلك الواردة في سِفر التكوين ١٩ لا بد أن تكون اليوم قرية «آل زيدان» في مرتفعات جبل شهدان، وهو قمة جبل بني مالك في أرض جيزان الداخلية] (ص٩٩).

فهل تتَّفق نصوص التوراة، مهما كانت الطريقة التي يُقرأ بها النص العبري الساكن، مع جغرافية الصليبي هذه؟ في الحقيقة، إنَّ هذه النصوص تتَّفق مع ما تحصَّل لدينا حتى الآن من دراسة السجلات القديمة لمصر وبلاد الرافدين، ومِن التدقيق في نتائج التنقيبات الأثرية. فمدن كنعان الفينيقية، هي نفسها تلك المدن البحرية التي تحدثت عنها السجلات التاريخية القديمة، وهي على الساحل السوري، وليست في عسير الداخلية. ولنبدأ بمدينة صور.

يرد ذكر صور بعد سِفر التكوين في التوراة بشكلٍ مُفصَّل، في خبر اتِّصال ملكها بسليمان: [وأرسل حيرام ملك صور عبيده إلى سليمان؛ لأنه سمع أنَّهم مسحوه ملكًا مكان أبيه؛ لأنَّ حيرام كان محبًّا لداود كل الأيام]. فيطلب سليمان من مَلِك صور أن

[٩] S. Moscati, op. cit., p. 20.

يرسل له خشبًا من لبنان وحرفيين للبناء: [وأرسل حيرام إلى سليمان قائلًا قد سمعت ما أرسلتَ به إليَّ. أنا أفعل كل مسرتك في خشب الأرز وخشب السرو. عبيدي يُنزلون ذلك من لبنان إلى البحر، وأنا أجعله أرماثًا في البحر إلى الموضع الذي تعرفني عنه وأنفُضُه هناك وأنت تحملُه] الملوك الأول ٥: ١–٩. وفي رواية أخرى يتم تحديد المكان الذي سيتمُّ إنزال الأخشاب فيه، وهو يافا، [... ونحن نقطع خشبًا من لبنان حسب كل احتياجك ونأتي به إليك أرماثًا على البحر إلى يافا وأنت تصعدُه إلى أورشليم] (الأيام الثاني ٢: ١٦).

من الواضح هنا أن صور المقصودة هي الميناء الفينيقي المعروف على الساحل اللبناني فحيرام سينقل الأخشاب بحرًا، وسليمان سيستلمها من البحر أيضًا وينقلها بعد ذلك إلى أورشليم. فلو كانت صور المعنية هنا هي زور الوادعة بمنطقة نجران، فأيُّ سغب في أن ينقل حيرام خشب الأرز إلى شاطئ البحر حيث يستلمُه سليمان ويقفل راجعًا به إلى أورشليم، ولماذا لا تنقل الأخشاب برًّا؟ ثم إنَّ النصَّ قد حدَّد نقطة الإنزال عند ميناء يافا، ويافا التوراتية في رأي الصليبي تقع إما في منطة جيزان وهي «الوفية»، أو قرب خميس مشيط وهي «الوافية» (ص١١٧ و١٢٠)، وكلا الموقعين يبعدان مسافات شاسعة جدًّا عن شاطئ البحر. ويجب أن نُلاحظ هنا أن «الوفية» تقع في منطقة زور الوادعة نفسها، أما «الوافية» فليست بالبعيدة عن «آل شريم» التي هي أورشليم داود وسليمان عند كمال الصليبي (ص٨٣)، فلماذا تُنقل الأخشاب إلى واحدة منها ولا تُسلَّم في أورشليم ذاتها؟

وهناك أكثر من بيِّنةٍ نصيَّة على أنَّ يافا المذكورة في التوراة هي يافا الشام، وليست أيًّا من الموقعين الذين يحددهما لها الصليبي في غرب العربية. فمن سِفر عزرا ٣: ٧ نفهم بوضوح أن يافا هي ميناء بحري وليست مدينةً داخلية: [وأعطوا فضةً للنحاتين والنجارين، ومأكلًا ومشربًا وزيتًا للصيدونيِّين والصوريين، ليأتوا بخشب أرز لبنان إلى بحر يافا، حسب إذن كورش ملك فارس لهم]. ومن ميناء يافا يبحر النبي «يونان»: [فقام يونان ليهرب إلى ترشيش من وجه الرب فنزل إلى يافا ووجد سفينةً ذاهبة إلى ترشيش، فدفع أجرتها ونزل فيها ليذهب معهم إلى ترشيش من وجه الرب. فأرسل الرب ريحًا شديدة إلى البحر فحدث نوء عظيمٌ في البجر حتى كادت السفينة تتكسَّر فخاف الملاحون وصرخوا كل واحد على إلهه، وطرحوا الأمتعة التي في السفينة إلى البحر ليُخفِّفوا عنهم] (يونان ١: ٣–٥).

وترشيش المذكورة هنا، هي الموقع البحري البعيد الذي كانت سفن صور تبحر إليه للتجارة، وقد كان للملك في البحر سفن تبحر إليه مع سفن ملك صور بعد أن تطورت

العلاقة بينهما: [كان للملك في البحر سفن ترشيش مع سفن حيرام. فكانت سفن ترشيش تأتي مرةً في كل ثلاث سنوات حاملةً ذهبًا وفضة وعاجًا وقرودًا وطواويس] (الملوك الأول ١٠: ٢٢)، وأيضًا: [لأنَّ سفن الملك كانت تسير إلى ترشيش مع عبيد حورام، وكانت سفن ترشيش تأتي مرةً كل ثلاث سنين] (الأيام الثاني ٩: ٢١). والطريق إلى ترشيش شاقة ومهولة: [بريح شرقية تكسر سفن ترشيس] (المزمور ٤٨: ٧).

وقد ذكرت ترشيش أيضًا في مصادر الشرق القديم، وفي المصادر الكلاسيكية اللاحقة. ففي السجلات الآشورية تردُ تحت اسم «ترسيسي» التي يقول أسر حادون أنها كانت الحد الأبعد لنفوذه في البحر: [كل ملوك أعالي البحار ركعوا عند قدمي وتلقيت منهم الجزية الكبيرة. من بلاد يدناتا (قبرص) إلى ترسيسي.[١٠]] ويَغلب الظن أن ترشيش أو ترسيس تقع في جنوب إسبانيا، وهي التي ذكَرها المُؤلفون الكلاسيكيون باسم «ترتيسوس» الأمر الذي يعطي بُعدًا مهمًّا للتوسع الكنعاني الفينيقي في البحر المتوسط، منذ القرن العاشر قبل الميلاد.[١١]

وقد حدد المؤلفون الكلاسيكيُّون مكانها بموقع «قادس» وهي جزيرة صغيرة مقابل إسبانيا في المحيط الأطلسي، وكانت قادِس مُستعمرةً فينيقية قامت في موقع ترشيش الأقدم، وعلى هذا يقول «بليني» من القرن الأول الميلادي في كتابه «التاريخ الطبيعي» أن معنى قادس هو المكان الحصين أو القلعة وإنَّها بُنيت في مكان ترشيش القديمة. وقد التحمَت جزيرة قادس من البر الرئيسي اليوم، بتأثير الرسوبات التي يصبُّها النهر الكبير بالقرب منها.[١٢]

إذن، فسفن صور المذكورة في التوراة لم تكن قوافل حيوانات محمَّلةً، كما يقول الصليبي، وهناك المزيد من البيِّنات النصيَّة على ذلك.

نقرأ في إشعيا ٢٣: ١–٨: [وحي من جهة صور ولْوِلي يا سفن ترشيش لأنَّها خربت ... اندهشوا يا سكان الساحل ... عند وصول الخبر إلى مصر يتوجَّعُون عند وصول خبر صور، اعبروا إلى ترشيش، ولولوا يا سكان الساحل. أهذه لكم المفتخرة التي منذ الأيام

---

١٠ Leo Oppenheim, op. cit., p. 290.

١١ S. Moscati, op. cit., p. 34.

١٢ محمد الصغير غانم، التوسع الفينيقي، المؤسسة الجامعية، بيروت ١٩٨٢م، ص٨٢–٨٥.

القديمة قِدمها، تنقلها رجلاها بعيدًا للتغرب؟ من قضى بهذا على صور المتوَّجة التي تجَّارها رؤساء؟].

ونقرأ في حزقيال ٢٨: ١–٩: [وكان إلى كلام الرب قائلًا: يا بن آدم، قل لرئيس صور، هكذا قال السيد الرب، من أجل أنه قد ارتفع قلبك وقلت أنا إله، في مجلس الآلهة اجلس في قلب البحار، وأنت إنسان لا إله ... لذلك ها أنا ذا أجلب عليك غرباء عتاة الأمم فيُجرِّدون سيوفهم على بهجة حكمتك، ويدنسون جمالك، يُنزلونك إلى الحفرة فتموت موت القتلى في قلب البحار].

وفي سِفر حزقيال ٢٦: ٣–١٧: [ها أنا ذا عليك يا صور، فأُصعد عليك أممًا كثيرة كما يعلي البحر أمواجه، فيخربون أسوار صور ويهدمون أبراجها، وأُسحِّي ترابها عنها، وأصيرها ضِحَّ الصخر، فتصير مبسطًا للشباك في وسط البحر ... لأنه هكذا قال السيد الرب. ها أنا ذا أجلب على صور نبوخذ راصر ملك بابل ... بحوافر خيله يدوس كل شوارعك، يقتل شعبك بالسيف فتسقط إلى الأرض أنصاب عزك، ويَنهبُون ثروتك، ويغنمون تجارتك، ويهدمون أسوارك، ويهدمون بيوتك البهيجة، ويضعون حجارتك وخشبك وترابك في وسط المياه ... كيف بدت يا معمورة من البحار، المدينة الشهيرة التي كانت قويةً في البحر هي وسكانها الذين أوقعوا رعبهم على جميع جيرانهم، الآن تَرتعد الجزائر يوم سقوطك وتضطرب الجزائر التي في البحر لزوالك].

وفي حزقيال ٢٧: ١–٤؛ و٢٥–٢٦؛ و٣٢–٢٤: [وكان كلام الرب إليَّ قائلًا: وأنت يا بن آدم فارفع مرثاة على صور وقل لصور الساكنة عند مداخل البحر، تاجرة الشعوب إلى جزائر كثيرة، هكذا قال السيد الرب. يا صور أنت قلت أنا كاملة الجمال، تخومك في قلب البحور] ... [سفن ترشيش قوافلك لتجارتك، فامتلأت وتمجدت جدًّا في قلب البحار، ملاحوك قد أتوا بك إلى مياه كثيرة، كسرتكِ الريح الشرقية في قلب البحار]... [يرفعون عليك مناحة، ويرثونك ويقولون أية مدينة كصور كالمسكنة في قلب البحر. عند خروج بضائعك من البحار أشبعت شعوبًا كثيرة، بكثرة ثروتك وتجارتك أغنيت ملوك الأرض، حين انكسارك من البحر في أعماق المياه سقط متجرك وكل جمعك]. وفي زكريا ٩: ٣–٤ [وقد بَنت صور لنفسها حصنًا وكوَّمت الفضة كالتراب، والذهب كطين الأسواق هو ذا الرب يمتلكها ويضرب في البحر قوتها، وهي تؤكل بالنار].

فأين صور هذه المدينة البحرية العظيمة كما تُصورها التوراة، من الواحة الكبيرة المسماة «زور الوادعة» في غرب العربية؟

فإذا انتقلنا إلى صيدون التوراتية التي وجَد الصليبي لها أربعة مواقع تُدعى «زيدان» و«آل زيدان» في عسير الداخلية ومُرتفعات شهدان في أراضي جيزان الداخلية، وجدناها ترد مقترنةً بصور وبالجزر البحرية. نقرأ في إرميا ٢٥: ٢٣: [كل ملوك صور وكل ملوك صيدون وملوك الجزائر التي في عبر البحر]. وترد صيدون أيضًا مع الموانئ الفينيقية البحرية الأخرى أرواد وجبيل. كمُدنٍ مُتعاونة مع صور مجاورة لها على البحر. نقرأ في إشعيا ٢٣: –٥: [تجار صيدون العابرون البحر ملئوك وغلتها زرع شيحور حصاد النيل على مياه كثيرة فصارت متجرةً لأمم. اخجلي يا صيدون لأنَّ البحر، حصن البحر نطق قائلًا: لم أتمخَّض ولا ولدتُ ولا ربيتُ شبانًا ولا نشأت عذارى ...] وفي حزقيال ٢٧: ٨–٩: [أهل صيدون وأرواد كانوا ملَّاحيك، حكماؤك يا صور الذين كانوا فيك هم ربابينك شيوخ جبيل وحكماؤها، كانوا فيك قلافوك.[١٣]]

وترتبط هذ الموانئ المُتجاورة في النصوص التوراتية، بجبل لبنان، فخشب الأرز كما رأينا يَحتطِب من لبنان ويرمي في بحر يافا (الملوك الأول: ٥؛ والأيام الثاني ٢؛ وعزرا ٣) ويصنع البناءون منه سواري السفن: [أخذوا أرزًا من لبنان ليصنعوه لك سواري، صنعوا من بلوط باشان مجاديفك] (حزقيال ٢٧: ٤–٥).

وهكذا، فإن البيِّنة النصية التوراتية تَثبت مع البينات المستمدَّة من السجلات المصرية والآشورية أن المواقع الكنعانية الفينيقية المذكورة في التوراة هي تلك التي قامت تاريخيًّا على الساحل السوري، ولا علاقة لها من قريب أو بعيد بغرب العربية.

[١٣] القِلافة: هي حرفة مَن يخرز ألواح السفن ويجعل في خللها القار، ومنها قلَّاف وجمعها قلَّافون. وقلفَ السفينة: أعدَّها وسد خلالها بالليف والقار.

الفصل الرابع

يهوذا وإسرائيل

في بحثه عن يهوذا وإسرائيل في غرب العربية، تتجلى كل سلبيات المنهج اللغوي لكمال الصليبي. فهنا يقوده السعي وراء تطابقات الأسماء إلى نتائج تَتنافى ونصوص التوراة التي يَعتمِد عليها باعتبارها مضمونًا تاريخيًّا ثابتًا. فأرض يهوذا ليست تلك التي رُسمت لسبط يهوذا وبنيامين في أيام يشوع، والتي شكَّل معظمها فيما بعد مملكة يهوذا الجنوبية، بل هي كامل الجانب البحري من عسير الجغرافية، من الشقِّ المائي لامتداد السراة وحتى صحراء تهامة الداخلية؛ أي بمعنى آخر كل أراضي إسرائيل التوراتية. أما إسرائيل فليست أرضًا، بل تسمية للشعب الذي أتى أصلًا من جبال السراة وسكن في أرض يهوذا. وعلى ذلك، فلا وجود لأرضٍ محدَّدة شغلتها مملكة يهوذا، ولا لأخرى شغلتها مملكة إسرائيل، بل كان لكلٍّ من السلطتين المركزيتين في أورشليم والسامرة مدن وقرى مبعثرة في كامل أرض يهوذا، تدين بالولاء لها، وتتداخل مع مدن وقرى الجماعة الأخرى، وهذه بدورها تتداخل مع مدن وقرى الفلستيين كما أوضحنا في فصل سابق (ماذا عن الفلستيين؟). وهذه ظاهرة سياسية فريدة في التاريخ، حيث تحكم ثلاث سلطات مركزية مستقلة أرضًا مشتركة تضم مجموعاتٍ بشريةً موزعة حسب ولاءاتها السياسية، دون أن تختص كل مجموعة بأرض ذات تخوم واضحة.

فيما يتعلَّق بيهوذا يقول الصليبي: [والواضح أن «يهوذا» كان اسمًا جغرافيًّا قبل أن يصبح اسمًا لقبيلة من بني إسرائيل. وصيغته العبرية «يهوده» هي اشتقاق من «يهد» المماثلة للعربية «وهد» وهو جذر يُفيد معنى الانخفاض. ومِن الجذر «وهد» بالعربية الوهد والوهدة بمعنى المُنخفِض أو الهوَّة في الأرض. ويهود ويهوده التوراتيتان تأتيان من العبرية يهد، ولا بد أنهما كانتا تعبيرَين طبوغرافيَّين ساميين قديمين يحملان المعنى نفسه.

والواقع أن الأرض الهضبية الممتدة على الجانب البحري من عسير الجغرافية، ليست مجرد أرض تحتوي على قمم وسلاسل مُتضافرة فيما بينها، بعضها يبرز من الامتداد الرئيسي للسراة وأخرى تقف معزولةً وهناك، بل هي أيضًا تحتوي على وِهاد مُنخفِضة تتعرَّج بين القمم والسلاسل، ولا شك أن هذا هو ما أعطى يهوذا اسمها القديم].

[ويُمكن للباحث أن يدرس أمثلة كثيرة من النص التوراتي لكي يُبرهن على أنَّ أرض يهوذا التوراتية كموطن لبني إسرائيل على وجه العموم وليس لقبيلة يهوذا وحدها، كانت تضم المُنحدَرات البحرية لعسير وجنوب الحجاز حتى مُرتفعات الطائف. وأحد الأمثلة الواضحة يأتي من سِفر عزرا ٢: ٣–٦٣؛ وسِفر نحميا ٧: ٨–٦٥ عن عودة بني إسرائيل من الأسر في بابل إلى أرض يهوذا. وهذان النصان، وباختلافات ضئيلة يُدرِجان أسماء المجموعات العائدة من بني إسرائيل استنادًا إلى البلدان والقرى الأصلية لها، وليس استنادًا إلى الأسرة أو القبيلة في أية حال، كما جرى الاعتقاد حتى الآن. وباستعراض النصين يُمكن للباحث المزود بخريطة مفصَّلة لشبه الجزيرة العربية، وبالمعاجم المتوفرة عن أسماء الأماكن بالعربية كموجه مضاف، أن يعثر على الأكثرية العُظمى من البلدان والقرى التي أوردها سِفرا عزرا ونحميا كمواقع ما زالت موجودةً، وتحمل الأسماء نفسها، أو بصيغ من هذه الأسماء يَسهل التعرف إليها بشكل مباشر؛ وذلك في أجزاء من غرب شبه الجزيرة العربية، تمتد بشكلٍ تقريبيٍّ من جوار الطائف والليث شمالًا وحتى منطقة جيزان في الجنوب] (ص١٥٧).

والحقيقة أنَّ هذه الأطروحة لا تجد لها سندًا من نصوص التوراة، والكتاب لم يُشِر في أي موضع من أسفاره، تلميحًا أو تصريحًا إلى منطقة ما اسمها يهوذا كانت موطنًا لبني إسرائيل. فأرض يهوذا التوراتية هي التخوم التي قسمت في أرض كنعان للسبط الذي ينتسب إلى جده الأعلى «يهوذا». وقد حدد سِفر يشوع بدقة وتفصيل المدن والقرى التي كانت نظريًّا من نصيب يهوذا، وشكَّلت فيما بعد مع نصيب سِبط بنيامين مملكة يهوذا، وهي حسب يشوع ١٥: [هذا نصيب سِبط بني يهوذا حسب عشائرهم. وكانت المدن القصوى التي لسِبط بني يهوذا إلى تخوم آدون جنوبًا. فيصيئيل وعيدر وياجور وقينة وديمونة وعدعده وقادش وحاصور ويثنان، وزيف وطالم ويعلوت، وحاصور وحدته وقريوم وحصرون، هي حاصور. وأمام وشماع ومولاده، وحصر جده وحشمون وبيت فالط، وحصر شوعال وبئر سبع وبزيوتية وبعلة وعييم وعاصم، والتولد وكسيل وحرمة، وصقلع ومدمنة وسنسنة، ولباوت وشحليم وعين ورمون. كل المدن تسعٌ وعشرون مع

ضياعها. في السهل: أشتاول ... (يلي ذلك تعداد لتسعٍ وثمانين موقعًا بين مدينة وبلدة وقرية)].

لم يلجأ الصليبي، كما يُحتِّم عليه منهجَه في مقابلة أسماء الأمكنة والمواقع إلى البحث عن الأمكنة الواردة أعلاه في غرب العربية، والتي يَبلغ تعدادها مائة وثلاثين موقعًا، بل لجأ إلى تحليل أسماء المجموعات العائدة من السَّبي البابلي، وافترض أن تلك الأسماء تُشير إلى البلدان والقرى الأصلية التي تركها المنفيون، وانتهى من ذلك إلى لائحة طويلة بأسماء مواقع موجودة في غرب العربية تتطابق، بعد عمليات معقَّدة من القلب والإبدال، مع أسماء فئات العائدين. إلَّا أنَّ المشكلة التي لم يُشِر الصليبي إلى طريقةٍ لحلها، هي أن أسماء هذه المواقع التي عثر عليها لم ترد في التوراة بتاتًا، ولم تجرِ الإشارة إلى أي منها كموقع من مواقع يهوذا أو إسرائيل، أو حتى كموقع مرتبط بالروايات الأقدم الخاصة بالآباء. وبمعنًى آخر، فإنَّ كمال الصليبي لم يقف عند حدود منهجه في مقابلة أسماء المواقع التوراتية مع أسماء مواقع قائمة في غرب العربية اليوم، بل تعدَّى ذلك إلى ابتكار أسماء مواقع غير موجودة أصلًا في التوراة وطابقها على أسماء مواقع قائمة في غرب العربية.

ولنتابع بالتفصيل فيما يأتي أسماء المجموعات العائدة، وكيف عثر الصليبي على أسماء مواطنها الأصلية في أرض يهوذا المفترضة. وإنِّي لأحثُّ القارئ غير المتخصِّص على الصبر والأناة في متابعة قائمة الأسماء الطويلة وتحليلنا لها، لما تلقيه من أضواء على منهج الصليبي وكيفية استخداماه له.

(١) الكهنة

يرى الصليبي أن اسم هذه الفئة «كهنيم» بالعبرية يجب ألا يُؤخذ على أنه صيغة الجمع لكلمة «كهن» أو «كاهن» بالعِبرية، بل على أنه جمع لـ «كهني» منسوبةً إلى «كهن» كاسم مكان يجدُه في «قهوان» بمنطقة جيزان. كما يرى أن تعداد هذه الفئة البالغ ٤٤٨٩، أي عُشر عدد الإسرائيليِّين العائدين، يجعل من الصعب تصور أن واحدًا من كل عشرة رجال كان كاهنًا.

ولكن العجب مِن ارتفاع نسبة الكهنة بين العائدين يزول إذا عرفنا الدور الذي لعبه الكهنوت والكهَّان في الحياة الدينية والعامة كما رسمتها التوراة فقد بدأ الكهنوت من أيام موسى عندما سَنَّ النظام الجديد له، وتعيَّنت رُتبة الكهنوت في عائلة هارون (الخروج ٢٨) وكُرِّس هؤلاء للرب باحتفال عظيم. وفي أيام يشوع خُصِّصت للكهنة ثلاث عشرة مدينة

مع مسارحها في نصيب يهوذا وشمعون وبنيامين (يشوع ٢١: ١٣–١٩)، مما يُشير إلى عددهم الكبير بالنِّسبة إلى بقية الشعب. وفي أيام داود قسم الكهنة إلى ٢٤ فرقةً، وازداد عددهم وتعددت الأسر التي ينتمون إليها (الأيام الأول ٢٤: ٤) فإذا أضَفنا إلى ذلك كله أن السبي البابلي قد طال عِليَة القوم ونُبلاءهم وترك فقراء الأرض، أدركنا السبب الكامن وراء زيادة نسبة الكهَنة في سبي يهوذا. أما عن «كهن» التي يجدها الصليبي في «قهوان» بمنطقة جيزان، فلم تَرد كاسم مكانٍ في أي موضعٍ من أسفار التوراة، ولم تَرتبط بأية حادثة توراتية ضئيلة كانت أم كبيرة.

بعد ذلك يَنتقِل الصليبي إلى تحليل أسماء المجموعات المنضوية تحت الكهن كما وردت في سِفري عزرا ونحميا.

(١) بنو يدعيا (يدعية) يجد موطنهم في «وادعة» (ودع بلا تصويت) في وادي نجران.

وفي الحقيقة، لم يرد في التوراة اسم يدعيا أو يدعية باعتباره موقعًا، بل ورَد مرارًا كاسم عَلمٍ وأول يدعيا مرَّ ذِكره كان رئيسًا لفرقة الكهنة الثانية أيام الملك داود (الأيام الأول ٢٤: ٧)، وإليه تُنتسب مجموعة بنو بدعيا العائدة من السَّبي.

(٢) بنو إمير (ءمر). يجد موطنهم في واحدة «الأمار» في منطقة اليمامة في وسط شبه الجزيرة العربية، شمال منطقة نجران.

بينما لم يرد في التوراة موقع بهذا الاسم، بل ورَد كاسم عَلمٍ وهو رئيس فرقة الكهنة السادسة عشرة أيام الملك داود (الأيام الثاني ٢٤: ١٤)، وإليه تُنتسب مجموعة بنو إمير العائدة من السبي.

(٣) بنو فشحور، يجد موطنهم في «الحرشف» من قُرى يام نجران بينما لم يَرِد هذا الاسم في التوراة في غير هذا الموضع بتاتًا.

(٤) بنو حاريم (حرم) يجد موطنهم في «وادي حرم» عند الحد الغربي لمنطقة اليمامة.

لم يرد الاسم في التوراة كموقع، وإنما كاسم علمٍ، وهو رئيس فرقة الكهنة الثالثة (الأيام الثاني ٢٤: ٨)، وإليه تنتسب مجموعة بنو حاريم العائدة. كما تَسمَّى بالاسم نفسه رجل من الجيل الثاني بعد السَّبي (نحميا ١٢: ١٥) وآخرون غيره (نحميا ١٠: ٥؛ وعزرا ٢١: ٣٢).

(٢) اللاويون

الزمرة الثانية من العائدين هي مجموعة اللاويين (هـ - لويم). ويرى الصليبي في «لويم» جمع «لوي» نسبة إلى «لو» أو «لوه»، وأن هؤلاء لم يكونوا لاويين كهنوتيًّا، بل كانوا مجتمَعًا يعود في أصله إلى ما هو اليوم قرية «لاوه» (لوه بلا تصويت) في وادي أضم.

وفي الحقيقة، لم يرد في التوراة أي موقع باسم «لوه»، أما «لاوي» فاسم علمٍ معروف، وهو لاوي بن يعقوب، رأس سِبط اللاويين، وقد أوكلت إلى هؤلاء منذ أيام موسى رعاية الشئون المقدَّسة وخدمة تابوت العهد (الخروج ٣٢: ٢٦–٢٩، والعدد ٣: ٩ و١١–١٣ و٤١ و٤٥ و٨: ١٦–١٨) وقد بلغ تعدادهم في ذلك الوقت ٢٢٠٠٠ (العدد ٣: ٤٣ و٤٦)، وكانت هذه الخدمة وراثية في سلالتهم، فلماذا لا يكون اللاويون في عداد العائدين من السَّبي؟ ولماذا يُفضِّل الصليبي ابتكار موطنٍ لهم لم يرد ذِكره في التوراة؟ أما المجموعات المنضوبة تحت هذه الزمرة فهي:

(١) بنو يشوع. يجد الصليبي موطنهم في قرية «شعية» في منطقة الليث على مسافة ما إلى الأسفل من وادي أضم.

بينما لم يَرد اسم الشعية في التوراة باعتباره موقعًا ... أما يشوع فهو مِن أشهر أسماء الأعلام التوراتية، فبالإضافة إلى يشوع بن نون هناك عدد كبير ممَّن تسمَّى بهذا الاسم من الأشخاص البارزين في الرواية التوراتية. ومنهم رأس عائلة لاوية عاد إلى أورشليم في قافلة الراجعين من السبي.

(٢) بنو قدميئيل (قدمي ءل) يجد موطنهم في قرية «القدمة» في الجوار السابق (ءل - قدم قارن مع قدميئيل).

لم يرد في التوراة موقع بهذا الاسم، بل هو اسم علمٍ تسمَّى به عديدون، ومنهم لاوي عاد مع عائلته من السبي، وكان من المشرفين على بناء الهيكل (عزرا ٢: ٤؛ و٣: ٩).

(٣) بنو هوديا (هودوية) يجد موطنهم في قرية «الهُدية» في وادي أضم.

لم يرد في التوراة موقع بهذا الاسم، بل هو اسم علمٍ تَسمَّى به البعض ومنهم هودويا بن هونأة من بني يامين (الأيام الأول ٩: ٧)، ورئيس عائلة من بني لاوي عاد مع عائلته من السبي (عزرا ٢: ٤٠).

(٣) المغنون

المغنون «هـ - مشرريم» هم الزمرة الثالثة من العائدين بمَن فيهم بنو آساف. ويجد الصليبي موطنهم في قرية «المسرة» في منطقة بارق غرب منطقة المجاردة بعسير. وإلى الشرق من المسرة توجد قرية «آل يوسف» (يسف لا تصويت) التي يعتقد أنها آساف.

لم يَرِد ذِكر موقعين بهذا الاسم في التوراة بأي صيغة كانت. أما «هـ - مشرريم» باعتبارهم المغنين أو الموسيقيِّين؛ فقد كانوا يُؤلِّفون مجموعة مهمَّة من اللاويين أبرزهم الملك داود لأداء التراتيل والأناشيد الدينية بمُصاحبة العيدان والرباب والصنوج. وكان آساف الذي ينتمي إليه فريق المغنِّين العائدين من السبي أحد رؤساء هذه المجموعة: [وأفرز داود ورؤساء الجيش للخدمة بني آساف وهيمان ويدثون، المتنبئين بالعيدان كل هؤلاء تحت يد أبيهم لأجل غناء بيت الرب بالصنوج والرباب والعيدان، لخدمة بيت الله تحت يد الملك] (الأيام الثاني ٢٥: ١–٦)، فلماذا لا يكون المغنون بما فيهم بنو آساف في عداد العائدين مِن السبي؟

(٤) البوابون

البوابون (هـ - شعريم) هم الزمرة الرابعة من العائدين. وعند الصليبي لم يكن هؤلاء من البوابين، بل جاءوا من المكان المسمَّى حاليًا «الشعراية» (شعري بلا تصويت) في منطقة الطائف.

لم يرد في التوراة ذِكر لمثل هذا الموقع. أما هـ - شعريم باعتبارهم البوابين، فقد كانوا جماعةً مفرزة لحراسة باب المدينة والهيكل (صموئيل الثاني ١٨: ٢٦؛ والملوك الثاني ٧: ١٠). وقد بلغ عدد البوابين على أبواب هيكل أورشليم ٤٠٠٠ بواب (الأيام الأول ٢٣: ٥). وكان لهم رؤساء يديرونهم حسب مراتبهم (الأيام الأول ٢٦: ١–١٣؛ والأيام الثاني ٨: ١٤). أما المجموعات المنضوية تحت هذه الزمرة فهي:

(١) بنو شلوم (شلوم)، ويجد موطنهم الأصلي في «الشمول» بمنطقة الشراية الآنفة الذِّكر.

لم يَرد في التوراة ذِكر لمثل هذا الموقع، بينما ورد «شلوم» كاسم علمٍ مرارًا كثيرة. فهو شلوم بن نفتالي، مؤسس عشيرة المشليميين (العدد ٢٦: ٤٩)، وشلوم رئيس بوابي قدس الأقداس (الأيام الأول ٩: ١٧) وشلوم بن يابيش الذي قتل الملك زكريا (الملوك الثاني ١٥:

٨–١٥) وشولم أحد أفراد أسرة رؤساء الكهنة التي مِن صادوق (الأيام الأول ٦: ١٢–١٥)، وشلوم أحد أفراد أسرة رؤساء الكهنة التي من صادوق (الأيام الأول ٦: ١٢–١٥)، وشلوم عم النبي إرميا (إرميا ٣٢: ٧–٨).

(٢) بنو آطير (ءطر) يجد موطنهم في «وترة» بالجوار نفسه:

لم يرد ذِكر في التوراة لمثل هذا الموقع بل هو اسم علمٍ ويعني بالعبرية «المغلق» أو «الذي يُغلق»، ولذا يغلب أن اسم رأس المجموعة العائدة كان مسمى لوظيفة من وظائف البوابين.

(٣) بنو عقوب (عقوب) يجد موطنهم في «عقيب» بالجوار نفسه:

لم يرد ذكر هذا الموقع في التوراة، بل هو اسم علم لرأس عائلة من بوابي الهيكل على بابه الشرقي (الأيام الأول ٩: ١٧) وإليه تَنتسب المجموعة العائدة من البوابين.

(٤) بنو طلمون (طلمن) يجد موطنهم في «المنطلة»:

لم يرد ذكر لمثل هذا الموقع في التوراة، بل هو اسم علم لبواب مِن بني لاوي: [والبوابون شلوم وعقوب وطلمون وأخيمان وإخوتهم، شلوم الرأس وحتى الآن هم في باب الملك إلى الشرق. هم البوابون لِفرق بني لاوي]. الأيام الأول ٩: ١٧–١٨.

(٥) بنو حطيطا (حطيط). يجد موطنهم في الحويط:

ورَد حطيطا كاسم علم مرةً واحدة، وهو رأس أسرة رجع أفرادها من السَّبي البابلي (عزرا ٢: ٤٢).

(٦) بنو شوباي (شبي) يجد موطنهم في «الثوابية» بالجوار نفسه:

وقد ورَد شوباي كاسم علمٍ مرةً واحدة في الكتاب، وهو لاوي من عائلة البوابين عاد مع أسرته من السبي (عزرا ٢: ٤٢).

(٥) خدم المعبد

خدم المعبد (نتينيم) هم الزمرة الخامسة من العائدين. ويرى الصليبي أنهم لم يكونوا بالتأكيد خدم معبد، بل كانوا قبيلة منتشرة في مواقع مختلفة من مناطق جيزان ورجال ألمع وقنا والبحر. والمناطق الثلاث هذه متاخمة لبعضها البعض في جنوب عسير. وربما كان موطن القبيلة الأصلي إحدى قريتين تسميان الآن «طناطن» (طنطن).

وفي الحقيقة فإن «نتينيم» تعني بالعربية «المُكرسون» وهم جماعة كرسها الملك داود لخدمة الهيكل وخدمة الكهنة اللاويين (عزرا ٨: ٢٠). وكان موسى من قبلُ قد كَرَّس

لهذا العمل جماعة المديانيين (عدد ٣١: ٤٧). ثم عيَّن يشوع لهذا العمل الجبعونيين وعهِد إليهم باحتطاب الحطب وسقي الماء للعابدين ولمذبح الرب (يشوع ١٩: ٢٢–٢٧). ولما كان عدد المجموعات المنضوية تحت هذه الزمرة ٣٥ مجموعةً فإننا سنَختار بضع عينات عشوائية منها:

(١) بنو لبانة (لبنة)، وجد موطنهم في «اللبانة» في منطقة جيزان.

لم يرد في التوراة موقع بهذا الاسم، ولم يرد أيضًا كاسم علمٍ إلا في سِفر عزرا ٢: ٤٥ كاسم لرأس أسرة من خدم المعبد العائدين من الأسر. ويبدو أن الكلمة مشتقة من الوظيفة التي كان يمارسها هؤلاء في خدمة المعبد ف «اللبونة» بالعبرية تعادل «اللبان» بالعربية، وهو صمغ عطري أبيض اللون أو مصفرُّه، يشتعل فتنبعث منه رائحة عطرة، وكان إحدى المواد التي يتركَّب منها دهن المسح المُستعمَل في تكريس الكهنة لوظيفتهم المقدسة. (الخروج ٣٠: ٣٤) كما كان يُضاف مع الزيت إلى التقدمة (سِفر اللاويين ٢: ١–٢ و١٥ و١٦).

(٢) بنو رآيا، وجد موطنهم في «راية» بمنطقة جيزان.

لم يرد موقع بهذا الاسم في التوراة، بل هو اسم علمٍ ورد مرتين في الكتاب إضافة إلى سِفرَي عزرا ونحميا، فهو رآيا بن شوبال، أحد أحفاد يهوذا من حصرون (الأيام الأول ٤: ٢)، وهو رآيا بن ميخا من سبط رآوبين (الأيام الأول ٥: ٥).

(٣) بنو صين، وجد موطنهم في «رضوان» في منطقة «جيزان»، أو «الرازنة» في رجال ألمع.

لم يرد موقع بهذا الاسم في التوراة، بل هو اسم علمٍ آرامي تَسمَّى به أحد ملوك دمشق (الملوك الثاني ١٥: ٣٧، ١٦: ٥–٩).

(٤) بنو نقودا، وُجد موطنهم في «ناجد» في منطقة جيزان. إلا أنَّ ما لم يَنتبِه إليه الصليبي قبل أن يُحدِّد موطن بني نقودا، هو أن سِفر عزرا قد وضعهم مع الأُسر التي لم تَستطِع إثبات انتمائها إلى بني إسرائيل (عزرا ٢١: ٥٩) فكيف نبحث في أرض يهوذا المُفترضة عن موطن لجماعة لم يَعترف النص التوراتي بصحَّة نسبهم؟

(٥) بنو سيسرا، رجَّح أن موطنهم «شرس» في شمال اليمن أو «شرسي» في منطقة الطائف.

بينما الكلمة اسم علمٍ كنعاني قديم تسمَّى به قائد جيوش ملك حاصور (القضاة ٤: ٩) ولا أثر لها في التوراة كاسم موقع.

(٦) عبيد سليمان

عبيد سليمان (عبدي شلمة) هم الزمرة السادسة من العائدين، ويجد موطنَهم في قرية «آل عبدان» في ناحية فيفا من منطقة جيزان، وقرية «آل سلمان يحيى»؛ حيث تميز «آل عبدان» عن غيرها من القرى التي تحمل الاسم نفسه بتعريفها بـ «عبدان سلمان» (قارن مع عبيد سليمان).

هنا يَبلغ منهج الصليبي أقصى درجات افتتانه بمقابلة أسماء المواقع، دون النظر إلى أيَّة بيِّنة منطقية أخرى. فالقريتان الحديثتان «آل عبدان» و«آل سلمان يحيى» والتي تُعرَف الأولى بالثانية تمييزًا لها، يُفترض أنهما كانتا قائمتين قبل ثلاثة آلاف عام، وإن إحداهما في تلك الأيام كانت تعرف بالأخرى تمييزًا لها عن «عبدانات» كانت قائمةً أيضًا كما هو الحال اليوم.

وعلى كلٍّ فخُلاصة القول في موضوع عبيد سليمان، كما نفهم من سِفر عزرا ٢: ٥٥–٥٨، أنهم كانوا عبيدًا عُينوا لمساعدة النتينيم (خدم المعبد) منذ أيام سليمان؛ لأنَّ عدد هؤلاء لم يكن كافيًا لأداء المهام الموكلة إليهم. ولا يُوجد في أسفار التوراة أي موقع مُشتق اسمه من هذه الكلمة. ولما كانت قائمةُ المجموعات المنضوية تحت هذه الزمرة طويلة جدًّا، فإنَّنا سنختار أيضًا بضع عينات عشوائية منها، إضافة إلى عينات أخرى من بقية أسماء الأسر التي لا تنتمي إلى إحدى هذه الزمر الستة:

(١) بنو آرح. وجد موطنهم في «الرحاء» أو «الورخة» في منطقة الطائف، بينما الكلمة اسم علمٍ تسمَّى به رئيس من أشير (الأيام الأول ٧: ٣٩) وذلك إضافة إلى آرح الوارد في نحميا ٦: ١٨ الذي تزوَّجت حفيدته بطوبيا العموني (نحميا ٦: ١٨ و٧: ١٠).

(٢) بنو حاريم. وجد موطنهم في «عربات حارم» في منطقة محايل.

بينما الكلمة اسم علمٍ تسمَّى به رجل من نسل هارون، كونت أسرته الفرقة الثالثة من الكهنة أيام داود (الأيام الأول ٢٤: ٨)، ويغلب الظن أن هذه المجموعة العائدة تنتمي إليه. ولدينا اثنان يحملان الاسم نفسه وذلك في نحميا ١٢: ١٥ و١٠: ٥.

(٣) بنو عناثوت، وُجد موطنهم في «عنطوطة» في منطقة جيزان.

بينما الكلمة اسم علمٍ تسمَّى به ابن باكر البنياميني، ورئيس بيت في قبيلته (الأيام الأول ٧: ٨). وهو أيضًا واحد من الذين ختموا العهد مع نحميا بعد العودة من السبي (نحميا ١٠: ١٩). وهناك مدينة تحمل هذا الاسم أيضًا في نصيب بنيامين قرب أورشليم (إرميا ١: ١)، وفي موقعها الآن قرية صغيرة اسمها «عناتا».

(٤) بنو برزلاي الجلعادي. وجد موطنهم في البرصة، ولكنه اسم علمٍ تَسمَّى به رجل من جلعاد كان صديقًا لداود (صموئيل الثاني ١٩: ٣١). وقد أوصى داود ابنه سليمان أن يُحسن إلى أولاده ويجعلهم من الآكلين على مائدته (الأيام الأول ٢: ٧). وهناك برزلاي المحولي حمو ميكال ابنة شاؤل (صموئيل الثاني ٢١: ٨)، وبرزلاي ثالث تزوج من ابنة برزلاي الجلعادي وتسمَّى باسمهم، وهو الذي عاد خلفاؤه من السبي (عزرا ٢: ٦١–٦٢).

(٥) بنو يوآب يجد موطنهم في «الباب» في بلاد غامد، أو «بواء» في منطقة الطائف.

والكلمة اسم علمٍ تَسمَّى به ابن سرايا أبو جماعة من الصناع (الأيام الأول ٤: ٤)، وأيضًا بكر أولاد صيرويه أخت داود ورئيس جيشه (الأيام الأول ٢: ١٦ و١١: ٦).

(٦) بنو باني. يجد موطنهم في قرية «البني» أو «البنياء» في منطقة الطائف.

والكلمة اسم علمٍ تعني بالعبرية «بنَّاء» كما في العربية. وقد تسمَّى به خمسة أفراد على الأقل (راجع صموئيل الثاني ٢٧: ٣٦ والأيام الأول ٩: ٤ و٦: ٦٤ ونحميا ١١: ٢٢ و٣: ١٧ و٩: ٤).

(٧) بنو طوبيا. يجد موطنهم في «بوط» بوادي «الجائرة» في منطقة الليث.

والكلمة اسم علمٍ. فإلى جانب أربعة أشخاص معروفين في التوراة بهذا الاسم. هناك سِفر معروف بين أسفار الأبوكريفا باسم «سِفر طوبيا» نسبة إلى الشخصية البارزة فيه واسم طوبيا.

إن ما قدمناه أعلاه من تحليلٍ لأسماء المجموعات العائدة من سِبط يهوذا إلى أورشليم بعد أن سمح «قورش» الفارسي للمنفيين بالعودة، يكفي للدلالة على أنه لم يكن هناك في أي وقتٍ من الأوقات أرض في غرب العربية اسمها يهوذا. فالمجموعات العائدة جلُّها ينتسب إلى أعلام هم مؤسسوها، أو هي زمر ذات وظائف دينية معروفة وقائمة منذ الألف، ولا علاقة لها من قريب أو بعيد بأسماء أماكن موجودة في غرب العربية.

(٧) ماذا عن إسرائيل؟

إذا كانت يهوذا هي أرض الشعاب والوِهاد على امتداد الجانب البحري لجنوب الحجاز وعسير، فإنَّ أرض إسرائيل، في رأي الصليبي، لا بد أن تكون في الأصل مُرتفعات السراة هناك. فالاسم بالعبرية «يسره ءل» الذي نصَّ سِفر التكوين بوضوحٍ على أن معناه السراة هناك. فالاسم بالعبرية «يسره ءل» الذي نصَّ سِفر التكوين بوضوحٍ على أن معناه

«يجاهد مع الله» له في رأيه تفسير آخر، حيث «يسره» هي اسم قديم من الفعل نفسه بمعنى الكلمة العربية «سرو» أو «سري» والسرو هو ما ارتفع من الوادي وانحدر على غلظ الجبل. والسراة من سري هي أعلى كل شيء.

وبذلك فالاسم «يسره ءل» يعني «سراة إيل» أي «سراة الله» حيث الإشارة هنا إلى مرتفعات السراة بين الطائف واليمن (ص١٩٥ وما يلي من فصل إسرائيل والسامرة).

ونحن من حيث المبدأ مع كل اجتهاد يلقي ضوءًا على نصٍّ غامض أو حادث تاريخي مُلتبس، ولكننا في الوقت نفسه مع مبدأ «لا اجتهاد في وجود النص» عندما يكون النص واضحًا كل الوضوح مانعًا لأيِّ اجتهاد أو تفسير كما هي الحال في النص التوراتي حول أصل اسم إسرائيل أوي يسره ءل. ففي سِفر التكوين الإصحاح ٣٢، يظهر ليعقوب بعد عبوره مخاضة يبوق إنسان اشتبك معه في صراع حتى طلوع الفجر. ولم يكن خِصم يعقوب في هذا الصراع سوى الرب نفسه: [فبقي يعقوب وحده، وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر، ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حُقَّ فخذه فانخلع حُقُّ فخذ يعقوب من مصارعته معه، وقال أطلَقني لأنه قد طلع الفجر، فقال لا أطلقك إن لم تُباركني. فقال له ما اسمك؟ فقال يعقوب. فقال لا يُدعى اسمك في ما بعد يعقوب بل إسرائيل؛ لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت. وسأل يعقوب وقال أخبرني باسمك، فقال لماذا تسأل عن اسمي؟ وباركه هناك فدعا يعقوب اسم المكان فينيئيل قائلًا لأني نظرت الله وجهًا لوجه ونجَّيت نفسي].

ونحن لا نَستبعد أن يكون في النص التوراتي أعلاه، نوع من الإيتولوجيا Aetiology في تفسير اسم إسرائيل، لولا أنَّ الصليبي قد أغلق هذا الباب عندما وصف الإسرائيليِّين بأنهم [الوحيدون الذين فهموا أنفسهم تاريخيًّا وعبَّروا عن ذلك بطريقة واضحة مُنسجِمة] (ص٥٣). فكيف تسنَّى لهم والحالة هذه نسيان موطنِهم القديم في جبال السراة، وكيف غاب عنهم معنى اسم إسرائيل منسوبًا إلى تلك الجبال فوقفوا أمامه حائرين يَبتكرُون القصص لتفسيره؟

ولنتابع مع الصليبي. فشعب إسرائيل [لا بدَّ أنه كان في الأصل مجموعة قبائل بلاد السراة في غرب شبه الجزيرة العربية وقد اتَّحدت هذه القبائل في زمنٍ ما وأصبحت شعبًا استوطن أرض يهوذا، وأقام لنفسه هناك مملكة في أواخر القرن الحادي عشر أو مطلع القرن العاشر قبل الميلاد … ولكن مملكة «كل إسرائيل» لم تعمر طويلًا، وسرعان

ما فقدت وحدتها السياسية، وبحلول النصف الثاني للقرن العاشر قبل الميلاد، كانت تُسيطِر على أراضيها سلالتان مُتنازعتان من الملوك، ملوك يهوذا وعاصمتهم في «آل شريم» (الموقع المقترح لأورشليم التوراتية)، وملوك إسرائيل ... والواقع هو أن الانقسام بين يهوذا وإسرائيل لم يكن جغرافيًّا بقدرِ ما كان انقسامًا في الولاء السياسي والديني بين أبناء الشعب الواحد والأرض الواحدة. ويبدو أن ملوك يهوذا وإسرائيل كانوا يُسيطرُون في أحوال كثيرة على مواقع مختلفة في المنطقة ذاتها، وكثيرًا ما كانت هذه المواقع قريبةً من بعضها البعض] (ص١٩٧ و١٩٨).

وكلام الصليبي يعني أن ملوك إسرائيل كانوا يحكُمون في السامرة، ولمدة مائتي عام منذ تأسيس مملكتهم إلى دمارها وإلحاقها بآشور، مجموعة من المدن لا تربطها أرض واحدة، بل تتبعثر في غرب العربية من شمالها إلى جنوبها وتتداخَل مع المدن التابعة لملكة يهوذا، وأنَّ مملكة يهوذا كانت في وضع مشابه إلى حين دمار إسرائيل وإلحاق مدنها بآشور، حيث أصبحت مدنها حينذاك مُتداخلةً مع مدن وقطاعات يُديرها وُلاة آشوريون. هذه الصورة المعقَّدة والفريدة من نوعها في التاريخ للخارطة السياسية لغرب العربية. تزداد تشوُّشًا إذا أخذنا في الحسبان مدن الفلستيين التي وزعها الصليبي بين مدن يهوذا وإسرائيل، وكثيرًا من المدن الآرامية التي حشرها بين هذه جميعًا. وسنُوضِّح فيما يأتي ما نعنيه، بأمثلة قليلة تفي بالغرض استمدَّت معلوماتها من طبوغرافية الصليبي.

ففي منطقة القنفذة الساحلية، تقع «شمران» التي يجد فيها الصليبي الموقع القديم لمدينة السامرة عاصمة إسرائيل (ص٢٠١)، وهناك «جيعون» عاصمة الملك داود و«لخيش» و«عزيقه» و«بيت لحم» (ص٢٠٣) التابعة ليهوذا، وهناك «مقدي» التي هي «مجدو» التابعة لإسرائيل (ص١١٩)، وهناك «شقلة» التي هي «أشقلون» مدينة الفلستيين الشهيرة (ص٢٥٣)، وهناك «قرقرة» الآرامية التابعة لملكة «حماة» أو «أمط» بمنطقة الطائف (ص٣٧)، وهناك «شكيم» التابعة لإسرائيل (ص٢٠٠).

وفي منطقة الليث في أقصى شمال عسير، نجد «غزة» التابعة للفلستيين (ص٢٥٢) و«عيطام» التابعة ليهوذا (ص٢٠٢، ٢٠٣)، و«دان» التابعة لملكة إسرائيل (ص٣٠٢).

وفي منطقة رجال ألمع الواقعة في وسط عسير، نجد «أشدود» مدينة الفلستيين (ص٢٥٢)، و«صهيون» مدينة داود المختلفة عن أورشليم والتابعة حكمًا ليهوذا، و«بيت رحوب» و«آرام صوبة» التابعتين للآراميين التوراتيين (ص٣٠).

وفي منطقة جيزان بأقصى الجنوب، نجد «جت» مدينة الفلستيين (ص٢٥٣)، و«دمشق» الآرامية (ص٣٠ و٢٩١)، و«يافا» الكنعانية (ص١٢٠)، و«جازر» التابعة ليهوذا (ص١١٨).

وهنا يحقُّ لنا أن نتساءل: هل نحن أمام جغرافيا بشرية وسياسية، أم أمام عدة تمرينات في مقابلة أسماء المواقع؟

الفصل الخامس

بلاد آرام

لقد غيَّر إعصار شعوب البحر، الذي داهم منطقة الشرق الأدنى القديم حوالي عام ١٢٠٠ق.م.، الخارطة البشرية والسياسية لبلاد الشام. فتدمير المدن الكنعانية في فلسطين قد سهَّل تسرب بعض الجماعات الهامشية التي كانت تتنقَّل دون هدًى باحثة عن مأوًى في منطقة شرقي الأردن، وتدمير الممالك الكنعانية في سوريا الداخلية من كركميش إلى مشارق فلسطين، خلق فراغًا أخذت تملؤه تدريجيًّا القبائل الآرامية التي كانت جوالة في المنطقة منذ زمنٍ بعيد، فاستقرَّت وشكلت ممالك قوية رسمت تاريخ بلاد الشام خلال الألف الأول قبل الميلاد. ونحن لا نعرف على وجه التحديد تاريخ الهجرة المُفترضة لهؤلاء الآراميين إلى مناطق الهلال الخصيب، ولا عن البدايات الأولى لتواجدهم فيها. ولعلهم كانوا هنا منذ أقدم الأزمنة يعيشون حياة البداوة والتنقُّل.

ولعلَّ أقدم وثيقة ورد فيها ذِكر آرام، هي نقش أكادي يعود إلى أواخر الألف الثالث قبل الميلاد، يتحدَّث عن انتصار الملك «نارام سن» على «خرشا متكي» شيخ «آرامي». وبعد ذلك ورد اسم آرام في وثيقة من فترة أور الثالثة (٢٠٥٠–١٩٥٠ق.م.) دُوِّن عليها اسم «آرامي» إشارة إلى مدينة أو إقليم.[١] ووثيقة أخرى من الفترة نفسها ورَد فيها «آرام» كاسم علمٍ لشخص يُدعى «آرامو». وفي السجلات الملَكية لمدينة ماري، ورد ذِكر «آرام» و«أحلامو» باعتبارهما قبائل يردُ أفرادها إلى ماري للمُتاجرة.

[١] هذا الشاهد إلى نهاية المقطع يستند إلى الدكتور علي أبو عساف في كتابه «الآراميون» الصفحات من ١١ إلى ١٢، ولكننا لا نرى فيما تحصَّل لدينا من معلومات عن الآراميين في تلك الفترة، ما يشير إلى احتمال تشكيلهم لمدينة في ذلك الوقت المبكِّر، والأرجح أن «آرامي» هنا إنما تشير إلى مناطق التواجد الآرامي.

ومنذ القرن الرابع عشر قبل الميلاد، كثرت الوثائق التي تتحدَّث عن الأحلامو والآراميين. فلدينا رسالة موجَّهة من حاكم «دلمون» إلى والي «نِفر» المعروفة في منطقة سومر، يَشتكي فيها من الأحلامو الذين نهبوا تمور بلاده. وبابل نفسها لم تكن في مأمن من خطرهم إذ كانوا يُسبِّبون المتاعب للحكام المحليين ويُهدِّدون الموصلات بين مدنهم. كما ورد ذِكر الآراميين في نصوص أوغاريت من القرن الثالث عشر قبل الميلاد؛ حيث ورد ذِكر اسم العلم «ابن آرامي» وذِكر «حقول الآراميين»، الأمر الذي يدلُّ على أن جماعات من الآراميين قد بدأت في تلك الفترة تهجر حياة التنقل، وتستقرُّ في الأرض. ولم تخلُ المصادر المصرية أيضًا من ذِكر الآراميين منذ بدايات القرن الثالث عشر، وكذلك المصادر الحثية.[٢]

وعندما بدأ الآشوريون بالتوسُّع غربًا، كان الآراميون والأحلامو المرتبطون بهم مصدر إزعاج للآشوريين وقد ورَدَ في سجلات الملك «تغلات فلاصر الأول» خبر قضائه عليهم: [حاربتُ الأحلامو والآراميين ثماني وعشرين مرةً، حتى إني عبرت الفرات في سنة واحدة مرتين. لقد قضيت عليهم من «تدمر» الواقعة في بلاد «آمورو» و«عانة» في بلاد «سوحو» إلى «ريبيقو» في «كار - دونيياش».[٣]

ومع انتهاء الألف الثاني قبل الميلاد، بدأت هذه الجماعات البدوية القلقة بالتوطُّن في مناطق الجزيرة السورية وبلاد الشام الداخلية، وأسست إمارات ودويلات مدن قوية. ثمَّ استطاع الفرع الكلداني منها تثبيت أقدامه في الجزء الجنوبي من بلاد بابل، وأسس المملكة البابلية الجديدة. ونستطيع من تتبُّع أسماء الدويلات الآرامية الأولى، أن نَستنتِج أن التنظيم القبلي قد بقي سائدًا بين الآراميين فترةً طويلة من الوقت بعد تكوين إمارتهم المستقرة. فأسماء الإمارات كانت مستمدةً من أسماء الأُسر الحاكمة؛ وذلك مثل «بيت زماني» في حوض دجلة وعاصمتها «آميدي» في موقع «ديار بكر» الحالية، و«بيت بحياني» في حوض الخابور، وعاصمتها «جوزان» في موقع «تل حلف» الحالية، وبعدها إلى الشرق «بيت عديني» بين كركميش على الفرات ونهر بليخ، وعاصمتها «تل برسيب» في موقع «تل أحمر» اليوم، و«بيت أجوشي» في منطقة حلب، وعاصمتها «أرفاد». وإذا أردنا استعراض بقية الممالك الآرامية نذكر مملكة «يأدي» التي سيطرت على منطقة

---

[٢] الدكتور علي أبو عساف، الآراميون، دار أماني، الجمهورية العربية السورية ١٩٨٨م، الصفحات ١١، ١٣، ١٧.

[٣] Leo Oppenheim, op. cit., p. 275.

جبال الأمانوس وعاصمتها «شمأل» في موقع بلدة «زنجرلي» الحالية، ومملكة «حماة» نحو الجنوب تليها مملكة «دمشق». وهناك بضع ممالك آرامية لا يتوفَّر حولها الكثير من المعلومات التاريخية والآثارية، ورَدَت أخبارها مفصلة في التوراة هي «آرام صوبة» إلى الشمال الغربي من دمشق، و«آرام معكة» على سفوح جبل الشيخ الغربية، و«جيشور» من جنوب جبل الشيخ إلى نهر اليرموك، و«بيت رحوب» في منطقة شرقي الأردن، و«طوب» على المناطق الحدودية اليوم بين سورية والأردن.[٤]

وكما عاشت الممالك الكنعانية السابقة تحت التهديد المستمر للقوة المصرية والقوة الحثية، فقد عاشت الممالك الآرامية الجديدة، تحت التهديد المستمر للقوة الأشورية. فالممالك الآرامية قد بدأت بالتشكل مع البدايات الأولى للتوسع العسكري الآشوري الذي ما انفك يوجِّه الضربة تلو الأخرى لدويلات بلاد الشام، التي كانت تواجهه إما مُنفردةً أو من خلال أحلاف مؤقتة. وعندما انهارَت آشور، لم تتأخر كثيرًا الدولة البابلية الجديدة في ملء الفراغ الناجم عن غيابها في بلاد الشام، ثم حلَّ قورش الفارسي وخلفاؤه محل هؤلاء. غير أن الثقافة الآرامية، رغم كل الظروف المحيطة التي حاقَت بها، قد أدت دورها الكبير وطبعت المنطقة بطابعها، وتمكنت أخيرًا من غزاتها جميعًا من خلال اللغة الآرامية التي وحَّدت أقطار الشرق القديم من حدود الهند إلى البحر المتوسِّط في بوتقةٍ واحدة، أطلق عليها المؤرخ المعروف أرنولد توينبي اسم «العالَم السوري»، مُثْبِتةً أن الروح العسكرية أمر زائل في تاريخ الحضارات وأن ما يبقى هو النتاج الثقافي الإنساني الأصيل.

هذا العالَم الآرامي الزاخر، هو الذي تروي أخباره أسفار التوراة، منذ البدايات الأولى لقصص الآباء التي يمكن وضعها في الإطار العام لمطلع الألف الثاني قبل الميلاد، عندما كان الآراميون قومًا رُحَّلًا يتنقَّلون بين العراق والشام. فالآباء في سِفر التكوين ينتمُون إلى إحدى هذه الجماعات الآرامية التي كانت تعيش على شاطئ الفرات الأعلى في منطقة «آرام النهرين» بين نهر بليخ ونهر الفرات، ومنطقة «فدان آرام»؛ أي سهل آرام في الجوار نفسه، كما هو واضح من سِفر التكوين ٢٤ و٢٨؛ حيث يرسل إبراهيم عبده إلى أرضه وعشيرته بآرام النهرين ليخطب من هناك امرأة لابنه إسحاق؛ لأنه لا يُريد له زوجة من بنات كنعان. ومثله يَفعل إسحاق عندما يُوصي ابنه يعقوب أن يذهب إلى فدان آرام ليَخطب امرأةً مِن عشيرة أمِّه. وفي سِفر التثنية ٢٦: ٥ نقرأ في تعليمات أداء الطقوس

[٤] الدكتور علي أبو عساف المرجع السابق، الصفحات من ١١–٧٤.

[فيأخُذ الكاهن السلَّة من يدك ويضعها أمام مذبح الرب إلهك، ثم تَصرخ وتقول أمام الرب: آراميًّا تائهًا كان أبي فانحدر إلى مصر وتغرَّب هناك].

وهنا نودُّ التنبيه إلى مسألة عالجها بالتفصيل نقاد التوراة، ولسنا أول مَن يُثيرها هنا، وهي وجود عدة تقاليد في قصص الآباء جمعها مُحرِّرو التوراة في تقليد واحد، وأكثر من سلسلة نسبٍ ضمُّوها إلى واحدة. فهناك «أبرام» الذي خرَج من أور الكلدان (التكوين ١١: ٣١–٣٣)، وهناك «أبرام العبراني» (التكوين ١٤: ١٣)، وهناك «إبراهيم» الذي قرنه فيما بعد سِفر التكوين بهذَين الأبرامين [فلا يُدعى اسمك بعدُ أبرام، بل يكون اسمك إبراهيم] (التكوين ١٤: ٥). ومن ناحية أخرى هناك إسحاق بن إبراهيم، وولده يعقوب، اللذان ضمَّهما سِفر التكوين إلى سلسلة أخرى تَنتهي بالمدعو «إسرائيل»؛ حيث تمَّت المطابقة بين يعقوب حفيد إبراهيم وإسرائيل: [فقال لا يُدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل إسرائيل] (التكوين ٣٢: ٢٨).

والتفصيل في هذا الأمر خارج عن مسار موضوعنا، ولكنَّنا أمام هذه التقاليد المُغرقة في القِدم والمُختلط بعضها ببعض، وانطلاقًا من موقفنا في النظر إلى أحداث سِفر التكوين كمجموعة من القصص الملحمي التي يصعب أمامها فرز الوقائع الأصلية، نقول إنَّ آباء سِفر التكوين ممَّن ينتسب بعضهم إلى آرام، هم غير آباء مجموعات سِفر الخروج، وهؤلاء بدورهم ليسوا المُمثلين الرئيسين والوحيدين لأحداث مملكتَي إسرائيل ويهوذا فيما بعدُ، وهذا في حدِّ ذاته موضوع مُستقلٌّ للبحث، نتركه الآن لنَنتقِل إلى المراحل شبه التاريخية، والتاريخية في أحداث التوراة.

يتزامَن تشكيل المملكة الموحدة المفترضة في فلسطين خلال القرن العاشر قبل الميلاد، مع تكوين الممالك الآرامية في بلاد الشام، ومن المنطقي أن يَحدث الصدام بينهما، وكانت بدايته على ما تذكره الرواية التوراتية بين داود وحدد عزر ملك صوبة: [وضرب داود هدد عزر بن رحوب ملك صوبة، حين هبَّ ليرد سلطته عند نهر الفرات، فأخذ داود منه ألفًا وسبعمائة فارسٍ وعشرين ألف رجلٍ ... فجاء آرام دمشق لنجدة هدد عزر ملك صوبة، فضرب داود من آرام اثنين وعشرين ألف رجل ... وسمع توعي ملك حماة أنَّ داود قد ضرب كل جيش هدد عزر، فأرسل توعي يورام ابنه إلى الملك داود ليسأل عن سلامته ويباركه؛ لأنه حارب هدد عزر وضربه؛ لأن هدَّد عزر كان له حروب مع توعي] (صموئيل الثاني ٨: ٣–١٠).

ويبدو من عدم ذِكر اسم ملك دمشق في هذا النص، أن آرام دمشق كانت في ذلك الحين تابعة لملك صوبة. ولكنها لن تلبث حتى تنفصل بعد فترة، وتقوم فيها أسرة حاكمة

مُستقلة. فعن أخبار الاحتكاك الثاني بين المملكة الموحدة والآراميين، في النصف الثاني من القرن العاشر أيام الملك سليمان نقرأ في سِفر الملوك الأول ١١: ٢٢–٢٥: [وأقام الله له خصمًا آخر، رزون بن إليداع، الذي هرب من عند سيده هدد عزر ملك صوبة، فجمع إليه رجالًا فصار رئيس غزاة عند قتل داود إياهم، وانطلقوا إلى دمشق وأقاموا بها وملكوا في دمشق، وكان خصمًا لإسرائيل كل أيام سليمان].

ولكن هذه الأحداث عند كمال الصليبي، وما تلاها في الروايات التوراتية عن آرام، لا تَجري في بلاد الشام بل في غرب العربية: [افترض الباحثون الذين استنَدُوا أكثر ما يكون إلى الدليل التوراتي المُئَوَّل تأويلًا خاطئًا، أن الآراميين كانوا أصلًا من سكان منطقة من شمال الشام تقع غرب الفرات. ولكن العودة إلى تمحيص الدليل التوراتي المذكور، تدلُّ على أن ما تشير إليه التوراة العبرية باعتباره (ء ر م) كان موجودًا في الواقع في غرب شبه الجزيرة العربية، وآرام النهرين (ء ر م نهريم) لم تكن بلاد ما بين النهرَين بل قرية «النهارين»، وهي اليوم في منطقة الطائف في جنوب الحجاز. ويَتبع ذلك أن فدان آرام (فدن ء ر م) كانت قرية «الدفيئة» (دفن بلا تصويت) في جنوب الحجاز. وكذلك فإن أسماء أخرى تربطها التوراة العبرية بآرام، مثل بيت رحوب وآرام صوبة، وحتى دمشق «ذا مسك» في منطقة جيزان، يُمكن أن تكون موجودة بالاسم نفسه في الحجاز وعسير ووادي «ورم» أيضًا يَحمل اسم آرام هناك. و«أمت» التي اعتُبِرت حتى اليوم إشارة إلى حماة في وادي العاصي في شمال الشام، هي عمليًّا قرية «أمط» الحالية في منطقة الطائف ...] (ص٣٠ و٣٧).

ولكن تقاطُعات أخبار آرام في التوراة مع النصوص الآرامية في بلاد الشام والسجلات الآشورية تثبت لنا بما لا يدع مجالًا للشك بأنَّ آرام المذكورة في التوراة هي آرام بلاد الشام. وأول تقاطُع نحصل عليه بين هذه المصادر يتعلَّق بملك دمشق المدعو «بن حدد» والمعروف تاريخيًّا ببن حدد الأول، وفي التوراة ببن حدد بن طبريمون. فالملك «آسا» ثالث ملوك يهوذا يستنجد بملك دمشق ليُعينه على «بعشا» ملك إسرائيل الذي كان يغزو أرضه: [وكانت حرب بين آسا وبعشا كل أيامهما. وصمَد بعشا ملك إسرائيل على يهوذا وبني الرامة لكيلا يدَع أحدًا يخرج أو يدخل إلى آسا ملك يهوذا. وأخذ آسا جميع الفضة والذهب الباقية في خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك ودفعها ليدِ عبيدِه، وأرسلهم الملك آسا إلى بنهدد بن طبريمون حزيون، ملك آرام الساكن في دمشق قائلًا: إن بيني وبينك وبين أبي وأبيك عهدًا، هو ذا قد أرسلتُ لك هدية من فضة وذهب فتعالَ انقض عهدك مع بعشا

ملك إسرائيل فيصعد عني. فسمع بنهدد للملك آسا وأرسل رؤساء الجيوش التي له على مدن إسرائيل]. الملوك ١٥: ١٦–٢٠.

وقد تمَّ العثور في أرض آرام قُرب مدينة حلب على نُصب بازلتي ارتفاعه حوالي المتر، نذره الملك بن حدد، ملك آرام للإله «ملقارت» والنُّصب يرجع بتاريخه إلى حوالي عام ٨٦٠ق.م.، أي إلى السنوات الأخيرة من حكم الملك بن حدد ملك آرام دمشق، وقد نقش على النصب: [النصب الذي أقامه بن حدد بن (...) ملك آرام لسيده ملقارت الذي نذر له فسمع لقوله].[٥] والنصب الآن محفوظ في متحف حلب بسورية، ويمكن لأي قارئ للآرامية الاطلاع عليه.

يلي عرش دمشق بعد بن حدد الأول، بن حدد الثاني المعروف في النصوص الآشورية بحدد عدري، وهو الذي وقف في وجه التوسع الآشوري؛ إذ جمع حوله أحد عشر مَلِكًا من ملوك دويلات بلاد الشام. وهبَّ إلى «قرقرة» على نهر العاصي جنوب مدينة جسر الشغور الحالية لنَجدة «إرخوليني» ملك حماة الذي كان يتعرَّض لهجوم كاسح من قِبل قوات شلمنصر الثالث. وقد خلَّد الآشوريون ذكرى انتصارهم في هذه المعركة (الذي ربما كان مزعومًا) في العديد من النصوص، ودوَّنوها على الرقم والتماثيل. وقد قدمنا سابقًا ترجمة لنصِّ شلمنصر الثالث حول معركة قرقرة.

وعند معركة قرقرة نستطيع القيام بعدد من التقاطُعات بين المصادر الآشورية والآرامية والتوراتية، فإرخوليني ملك حماة والرجل الثاني في حِلف قرقرة بعد حدد أدري (بن حدد الثاني) مذكور في عدد من النقوش التي تمَّ العثور عليها في مناطق حماة مثل الرستن وقلعة المضيق ومحردة، والتي يقول عن نفسه فيها أنه إرخوليني بن بارتاس وأنه بنى معبدًا للربة بعلاتي، كما عُثر على نقوش أخرى في مدينة حماة نفسها، تذكر «أورتاميس» بن إرخوليني الذي بنى سورًا جديدًا للمدينة[٦] ويبدو أن معركة قرقرة لم تكن بالمعركة الفاصِلة بين دمشق وآشور؛ لأنَّ الملك الآشوري لم يَستطع فتح المدينة رغم

---

[٥] Franz Rosenthal, Canaanite and Aramaic Inscriptions (in Ancient Near Eastern Texts), op. cit., p. 655.

انظر أيضًا: الدكتور علي أبو عساف، الآراميون، المرجع السابق، ص١٣٣.

[٦] H. Sader, op. cit., pp. 222–223.

انظر أيضًا: الدكتور علي أبو عساف، الآراميون، المرجع السابق، ص٥٦.

هزيمة المُتحالفين، وقد مات بعدها بن حدد الثاني على فراش المرض وخلفه أحد قواده المدعو «حزائيل»، وهنا تتَّفق الرواية الآشورية والرواية التوراتية في التفاصيل العامة لموت ملك دمشق واسم خليفته الذي مَلَك مكانه. نقرأ في النص الآشوري: [لقد هزمت حدد عدري ملك إميرشو مع اثني عشر أميرًا من حلفائه وجندلتُ ٢٠٫٩٠٠ من مُحاربيه الأقوياء، ودفعتُ بمَن تبقَّى من قواته إلى نهر العاصي فتفرقوا في كل اتجاه يطلبون أرواحهم. أما حدد عدري نفسه فقد انتهى. واغتصب العرش مكانه حزائيل، ابن لا أحد، الذي دعا إليه الجيوش الكثيرة وثار في وجهي، فتعقبتُه إلى دمشق، مقره الملكي حيث قطعتُ أشجار بساتينه].

وتعبير «ابن لا أحد» الذي استخدمه النص الآشوري، هو تعبيرٌ معروف في النصوص القديمة لوصف الملوك المُنحدِرين من أصلٍ عامي. وكان مثل هؤلاء الملوك لا يَذكُرون في نصوصهم أيضًا أسماء آبائهم؛ لأنهم من سلالةٍ غير مَلكيةٍ.

وفي الرواية التوراتية يأتي «إليشع» النبي إلى دمشق، وكان [بنهدد مريضًا، فأُخبرَ وقيل له قد جاء رجل الله إلى هنا. فقال الملك لحزائيل خذ بيدِك هديةً واذهب لاستقبال رجل الله، واسأل الرب به قائلًا هل أُشفى مِن مرَضي. فذهب حزائيل لاستقباله وأخذ هديةً في يده]. وعندما اجتمع حزائيل بإليشع تنبَّأ إليشع بموت بن حدد واعتلاء حزائيل العرش مكانه: [فانطلق حزائيل من عند إليشع ودخل إلى سيده فقال له: ماذا قال لك إليشع؟ فقال: قال لي إنك تحيا، وفي الغد أخذ اللبدة وغمسها بالماء ونشرها على وجهِه ومات، ومَلَك حزائيل عوضًا عنه] (الملوك الثاني ٨: ٧–١٥).

تولَّى حزائيل المُلك في دمشق وأطلق على ابنه اسمَ بن حدد تيمنًا بأسماء ملوك دمشق من السلالة السابقة، وهو المعروف تاريخيًّا ببن حدد الثالث. وفي عهد هذَين الملكَين استعرَتْ نيران حرب دائمة بين مملكة دمشق ومملكتَي إسرائيل ويهوذا.

نقرأ في سِفر الملوك الثاني ١٢: ١٧–١٨ [حينئذٍ صعد حزائيل ملك آرام وحارب جت وأخذها، ثم حوَّل وجهه ليصعد إلى أورشليم، فأخذ يوآش ملك يهوذا جميع الأقداس التي قدَّسها يهوشافاط ويهورام وأخزيا آباؤه ملوك يهوذا، وأقداسه وكل الذهب الموجود في خزائن بيت الرب وبيت الملك وأرسلها إلى حزائيل ملك آرام فصعد عن أورشليم]. وفي الملوك الثاني ١٣: ٢٢–٢٥. [وأما حزائيل ملك آرام فضايق إسرائيل كل أيام يهو آحاز … ثم مات حزائيل ملك آرام ومَلك بنهدد ابنه عوضًا عنه. فعاد يهوآش بن يهو آحاز وأخذ المدن من يد بنهدد بن حزائيل التي أخذها من يد يهو آحاز بالحرب، ضربه يوآش ثلاث مرات واسترد مدن إسرائيل].

وقد أوردت المصادر السورية ذِكر حزائيل ملك دمشق فلدينا نقوش على قطع عاجية من حداتو (أرسلان طاش الحديثة عند الحدود التركية) عليها اسم حزائيل مما يشير إلى توسع نفوذه شرقًا حتى الفرات. ولدينا نصٌّ آرامي تركه ملك حماة المدعو «زاكير» يتحدث عن حروبه مع بن حدد بن حزائيل ملك دمشق. ويرجع النص في تاريخه إلى مطلع القرن الثامن قبل الميلاد، وقد عُثر عليه في تل «آفس» قُرب بلدة سراقب بين حماة وحلب منقوشًا على نُصب كبير من الحجر البازلتي. وفيه يقول زاكير إن ملك دمشق بن حدد بن حزائيل قد تحالف ضده مع عشرة ملوك آخرين وحاصره في مدينة «حاتريك» إلا أنه هزم التحالف بعون الآلهة، وقد أوردنا النص في موضعٍ سابق.

وحاتريكا المذكورة في النص معروفة أيضًا في النصوص الآرامية باسم «حزرك»، وكانت عاصمة مملكة «نوخاشي» التي قامت بين حماة وحلب، ثم قامت محلها مملكة «لوعاش». وبما أن زاكير يصفُ نفسه في النص بأنه ملك حماة ولوعاش، فمن الأرجح أنه قد ضم لوعاش إليه وأقام في حزرك (حاتريكا). ويرد ذِكر هذه المدينة في التوراة باسم «حدارخ» بالترافق مع دمشق وحماة. نقرأ في سِفر زكريا ٩: ١–٢ [وحي كلمة الرب في أرض حدراخ، ودمشق محله. لأن للرب عين الإنسان وكل أسباط إسرائيل وحماة أيضًا تتاخمها].

بعد هذا الفيض من البينات النصية المتقاطعة مع البينات التاريخية والآثارية، أي سندٍ يبقى لآرام الصليبي القائمة في غرب العربية؟

الفصل السادس

بلاد العرب

كان العرب يتحكَّمون بالطرق التجارية الكبرى التي تصل تجارة الهند واليمن بمناطق بلاد الشام الداخلية وثغورها الساحلية، كما كانوا يسيطرون على الطرق الواصلة بين بلاد الرافدين وسورية عبر بادية الشام. وكان النزاع على هذه الخطوط التجارية هو الدافع إلى الحروب العربية الآشورية التي ابتدأت منذ الغزوات الآشورية المنظِّمة للمنطقة، ولهذا، كان من الطبيعي أن نعثر على أول ذِكر للعرب في السجلات التاريخية، في أخبار القرن التاسع قبل الميلاد وعلى وجه التحديد في سجل شلمنصر الثالث عن معركة قرقرة، التي قررت مصير السياسة الآشورية في بلاد الشام، فلقد شاركت القبائل العربية في حِلف قرقرة ضد شلمنصر الثالث، وقدَّم زعيمها «جنديبو العربي» إلى المعركة فرقةً من الهجانة كاملة العتاد والتسليح.

غير أن كمال الصليبي ينفي أن تكون الكلمة الآشورية «أريبي» التي وصف بها جنديبو في النص، هي النسبة إلى «عرب» ويرجِّح أن تكون نسبة إلى موقع في عسير يُدعى اليوم «عربة» أو «عرابة»، ثم يجد لجنديبو نفسه أثرًا اسميًّا ما زال قائمًا اليوم في قبيلة اسمها «بنو جندب» تعيش في أواسط عسير (ص٣٧). ولكن النصوص الآشورية اللاحقة، التي ورد فيها ذِكر العرب وبلاد العرب، والتي لم يشر إليها الصليبي، توضح بما لا يدع مجالًا للشك أن الكلمة الآشورية «آريبي» هي نسبة إلى العرب، وأن هؤلاء هم شعب كبير متنوع في تقسيماته القبلية ومتوزع في مختلف أنحاء الجزيرة العربية وبادية الشام وسيناء.

يرد ذِكر العرب مرةً ثانية في سجلات «تغلات فلاصر الثالث» (٧٤٤–٧٢٧ق.م.) حيث نعلم عن استلامه الجزية من ملكة عربية اسمها «زبيبة»، وقهره لملكة أخرى اسمها «شمسة». ونعرف من المناطق التي أرسلت إليه الجزية، بعد استسلام الملكة «شمسة»،

«تيماء» و«سبأ». وفي نص لـ «صارغون الثاني» (٧٢١–٤٠٥ق.م.) نقرأ عن القبائل العربية التي قهرها هذا الملك وبينها قبيلة «ثمود»: [بناء على نبوءة صادقة من إلهي آشور سرتُ وقهرت ثمود وإباديدي ومارسيمانو وحايبا، العرب الذين يعيشون بعيدًا في الصحراء، الذين لا يعرفون البحار ولا الرؤساء، ولم يأتوا بجزيتهم لأي ملك، لقد أبعدت من بقي منهم حيًّا وأسكنتهم في السامرة].[1]

وفي نص لـ «أسر حادون» (٦٨٠–٦٦٩ق.م.) نقرأ معلومات وافية عن العرب: [من «أدوماتو» معقل العرب الذي فتحه أبي سنحاريب وأخذ منه الجزية والأسلاب وصور الآلهة وساق إلى آشور ملكة العرب «إشكالاتو»، أتى حزائيل ملك العرب بهدايا كثيرة إلى نينوى حاضرة مُلكي، وقبَّل قدميَّ وتوسَّل من أجل إعادة صور آلهته. عطفت عليه، وأصلحت العطب الذي لحق بصور «عتر - شمين» و«داي» و«نوحاي» و«رولداو» و«أبيريللو» و«عتر - قورما» آلهة العرب، وأعدتها إليه بعد أن نقشت عليها كتابةً تعلن عظمة «آشور» مولاي، وتذكر اسمي. ثم جعلت عليهم ملكة، «طاربو» التي ترعرعت في قصر أبي، فأعدتها إلى بلادها مع آلهتها. وعندما وافت المنية حزائيل، وضعتُ على عرشه ابنه «ياطع» Iata، وفرضت عليه جزيةً إضافية ... بعد ذلك أهاج «أوابو» Uabu (ربما وهب بالعربية) كل العرب ضد ياطع ليستأثر بالملك، ولكني — أنا أسر حاجون، ملك آشور ملك الجهات الأربع، المحب للعدالة والمبغض للخديعة — أرسلت جيشي لنجدة ياطع، فأخضع كل العرب وهزم أوابو ومقاتليه، وأتى بهم إليَّ مكبلين بالأصفاد، فوضعت أطواقًا في أعناقهم وقيدتهم إلى أعمدة بوابتي].[2]

وفي نص لـ «آشور بانيبال» (٦٦٨–٦٣٣ق.م.) نقرأ: [في حملتي التاسعة جمعتُ قواتي وسرتُ ضد «يواطي» Uate ملك بلاد العرب (أريبو)، لأنه حنث بالعهد ونسي معاملتي الحسنة له، فرفع عنه نير حكمي الذي فرضه عليه مولاي آشور. لقد امتنع عن المجيء والسؤال عن صحتي، ومنع الجزية والهدايا، واستمع إلى تحريضات «أكاد» على الثورة، كما فعلت عيلام، ولم يأبه لعهوده معي وقسَمه ... بعد أمرٍ أُوحي إليَّ من آشور وعشتار، أهبت بجيشي وهزمته في معركة دموية ... قهرت كل أهل بلاد العرب ممن ثاروا

[1] Leo Oppenheim, op. cit., p. 286.

[2] Ibid., p. 292.

معه ... وقام جيشي بإحراق الخيام التي يعيشون فيها. أما يواطي، فقد هرب وحيدًا إلى بلاد الأنباط Nabati].[٣]

وفي نصٍّ آخر لـ «آشور بانيبال»، نعرف عن القبائل العربية التي أطلقت عليها التوراة اسم «قيدار»: [«أمولاي» ملك «قيدار» Qi–da–ri، هب لقتال ملوك بلاد العرب التي وهبها لي آشور وعشتار وبقية الآلهة العظام. ولكني بناءً على وحي صادق من آشور وسن وحدد ونيبو وعشتار وننورتا ونرجال ونسكو، قمت إليه وهزمته وقبض عليه رجالي حيًّا، ومعه أيضًا «عادية» Adia زوجة يواطي ملك بلاد العرب، وأتوا بهما إليَّ] ... وفي نصٍّ آخر: [... وأما عادية ملكة بلاد العرب، فقد هزمتُها هزيمةً منكرة، وأحرقت خيامها وقبضت عليها حيةً، وأتيت بها مع الأسرى الآخرين إلى آشور].[٤] ولكن الملك يواطي الذي توارى عن الأنظار في بلاد الأنباط، يعود إلى الظهور وإثارة الفتن في وجه الآشوريين بالتعاون مع الأنباط تارةً والقيداريين تارةً أخرى، مما نستطيع تتبعه في عدة نصوص آشورية أخرى، يوصف في بعضها بملك الإسماعيليين Su–Mu–Il، حتى يقبض عليه آشور بانيبال حيًّا.[٥]

هذه الصورة الواضحة للعرب وبلادهم، التي ترسمها لنا السجلات الآشورية هي التي نراها أيضًا في أسفار التوراة. فبلاد العرب ليست مجاورة لملكتي يهوذا وإسرائيل، وأهلها لا يمتون بصلة لأهل التوراة، بل هم شعب مغاير لهم في كل شيء، ولا تربطه بهم رابطة قريبة كانت أم بعيدة.

نسمع بأخبار العرب في التوراة، منذ أيام الملك سليمان. ففي سِفر الملوك الأول وأخبار الأيام الثاني، نجدهم تجارًا يؤمون أورشليم: [وكان وزن الذهب الذي جاء سليمان في سنة واحدة ستمائة وستًّا وستين وزنة ذهب، فضلًا عن الذي جاء به التجار والمستبضعون، وكل ملوك العرب وولاة الأرض، كانوا يأتون بذهب وفضة إلى سليمان] (الأيام الثاني ٩: ١٣–١٤)، ثم نراهم بعد ذلك غزاة متحالفين مع خصوم مملكة يهوذا: [وأهاج الرب على يهورام روح الفلسطينيين والعرب الذين بجانب الكوشيين، فصعدوا إلى يهوذا وافتتحوها وسبوا كل الأموال الموجودة في بيت الملك مع بنيه ونسائه أيضًا] (الأيام الثاني ٢١: ١٦–١٧) ... [ولما سمع سنبلط وطوبيا والعرب والعمونيون والأشدوديون أن أسوار أورشليم

---

[٣] Ibid., p. 298.

[٤] Ibid., p. 298.

[٥] Ibid., p. 300.

قد رُممت والثغر ابتدأت تُسد، غضبوا جدًّا وتآمروا جميعًا أن يأتوا ويحاربوا أورشليم ويعملوا بها ضررًا] (نحميا ٤: ٧–٨).

والعرب يسكنون في بلاد الوعر وفيافي العطش. ونعرف من قبائلهم في أخبار التوراة «تيماء» و«قيدار» و«دان»، وجميعها واردة في سجلات بابل وآشور. نقرأ في سِفر إشعيا ٢١: ١٣–١٧ [وحي من جهة بلاد العرب، في الوعر في بلاد العرب تبيتين يا قوافل الددانيين. هاتوا ماء لملاقاة العطشان، يا سكان أرض تيماء وافوا الهارب بخبزه، فإنهم من أمام السيوف قد هربوا … فإنه هكذا قال لي السيد، في مدة سنة كسنة الأجير يفنى كل مجد قيدار، وبقية عدد قسي أبطال بني قيدار تقل، لأن الرب إله إسرائيل قد تكلم].

وتنسب الرواية التوراتية أهل تيماء إلى «تيما» بن إسماعيل (التكوين ٢٥: ١٥؛ والأيام الأول ٢٢: ١–٣٠. وتذكر تيماء بالترافق مع سبأ (أيوب ٦: ١٩؛ وحزقيال ٢٧: ٢١–٢٢)، ومع ددان (إشعيا ٢١: ١٣ و١٤؛ وإرميا ٢٥: ٢٣). وهي تقع اليوم في القسم الأعلى من جزيرة العرب، في منتصف المسافة بين مكة ودمشق. أما ددان فكانت محطًا للقوافل ومركزًا للتجارة الآتية من اليمن والهند، وتقع إلى الجنوب الغربي من تيماء، واسمها الحديث «العلا». وكان الددانيون من التجار المرموقين في العالم القديم، نقرأ في سِفر حزقيال في معرض حديثه عن صور: [ددان تاجَرَتْك بطنافيس للركوب. العرب وكل رؤساء قيدار هم تجار يدك، بأفخر كل أنواع الطيب وبكل حجر كريم والذهب وأقاموا أسواقك] (حزقيال: ٢٠–٢٢).

أما بنو قيدار فينسبهم سِفر التكوين ٢٥: ١٣ إلى «قيدار» وهو بن إسماعيل الثاني، وهم كما يخبرنا سِفر إرميا يعيشون تحت الخيام ويربون الغنم والجمال: [عن قيدار وعن ممالك حاصور التي ضربها نبوخذ راصر ملك بابل، هكذا قال الرب، قوموا اصعدوا إلى قيدار واخربوا بني المشرق، يأخذون خيامهم وغنمهم ويأخذون لأنفسهم شققهم وكل آنيتهم وجمالهم وينادون إليهم الخوف من كل جانب] (إرميا ٤٩: ٢٨–٢٩). ويطلعنا سِفر نحميا على اسم أحد ملوكهم المدعو «جشم» الذي استطعنا أن نحصل عنده على تقاطع تاريخي يثبت وجوده وتاريخ حكمه. فعندما كان نحميا يبني سور أورشليم الجديد حوالي عام ٤٥٠ق.م.، أثار عمله توجُّس القبائل التي كانت تستفيد من طريق التجارة المفتوح إلى فينيقيا: [فلما سمع سنبلط وطوبيا وجشم العربي وبقية أعدائنا أنني قد بنيت السور ولم تبقَ فيه ثغرة، أرسل سنبلط وجشم إليَّ قائلين هلمَّ نجتمع معًا في القرى في بقعة أونو، وكانا يفكران أن يعملا بي شرًّا] (نحميا ٦: ١–٢). وقد تم العثور في

«تل المسخوطة» عند قناة السويس قرب الإسماعيلية (وهي المنطقة الحدودية مع سيناء قديمًا) على بضع طاسات فضية عليها نقوش آرامية قصيرة، كُتب على إحداها: [نذر إلى «هان - إيلات» من «قينو» بن «جشم» مَلِك قيدار ...] ويرجع هذا الأثر بتاريخه إلى بحر القرن الخامس قبل الميلاد،[٦] أي إلى فترة نحميا كاتب السِّفر المعروف.

ويرد في سِفر إشعيا خبر ذو دلالة عن قيدار ومدينتهم «سالع» التي هي «بيترا» المدينة النبطية المعروفة: [لترفع البرية ومدنها صوتها، الديار التي سكنها قيدار لتترنم سكان سالع من رءوس الجبال ليهتفوا] (إشعيا ٤٢: ١١). ومدينة سالع الواردة هنا كانت تابعة للآدوميين الذين امتدت مناطقهم من جنوب البحر الميت إلى خليج العقبة وصحراء سيناء، وكانت على ما يذكره سِفر عوبديا: ٣ قطعة حصينة يهرع إليها الآدوميون وقت الحصار، ويقيمون في الأعالي في شقوق الصخر. ولكن يبدو، وفق رواية إشعيا أعلاه، أن القيدرايين قد استولوا عليها فيما استولوا من أراضي الآدوميين، وأن الأنباط الذين تلوهم لم يكونوا سوى فريقًا فيداريًّا أقام في سالع بصورة دائمة، وتحوَّل اسمها إلى بترا فيما بعد. واسم بترا يعني باليونانية الصخر، وكذلك اسم سالع بالكنعانية.

من هذه الشواهد النصية من كتاب التوراة وتقاطعاتها المتنوعة، نستنتج أن العرب الواردين في التوراة بشتى قبائلهم وفروعهم، لا علاقة لهم بموقع «العربة» في منطقة عسير (على حد قول الصليبي). وبلاد العرب المقصودة في التوراة، هي جزيرة العرب بما فيها عسير واليمن، حيث تذكر سبأ والسبئيين إلى جانب بقية الجماعات العربية، وهذه الأرض لا علاقة لها بمملكة يهوذا وإسرائيل.

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو: إذا كانت ذكرى غرب العربية قد انمحت من ذاكرة اليهود تدريجيًّا، وذلك اعتبارًا من القرن الخامس قبل الميلاد، وأخذوا ينظرون إلى فلسطين باعتبارها المسرح المركزي للحدث التوراتي (ص٤٢–٤٩) فكيف تنمحي هذه الذكرى من كل مصادر التاريخ القديم؟ لقد كان المؤرخون الإغريق قريبين زمنيًّا من أواخر عهد دولة يهوذا، وكتبوا بدقة وتفصيل عن شعوب وأحوال جزيرة العرب، فلماذا لم يتطرقوا إلى دولة اسمها يهوذا موجودة في عسير، ولماذا لم يحكوا عن تاريخها القديم وأخبارها؟ لماذا صمت عنها «هيرودوتس» الملقب بأبي التاريخ والذي عاش بين ٤٨٠ و٤٢٥ق.م. وزار معظم مناطق الشرق القديم فأسهب في الرواية عن تاريخها، ووصف

[٦] Franz Rosenthal, op. cit., p. 657.

بلداتها وعادات أهلها ودينهم وطقوسهم، مما رآه بأم عينه أو سمع مباشرةً أخباره من أصحابها. ومثله «ثيوفراست» الذي عاش في القرن الرابع بين عامي ٣٧٢ و٣١٢ق.م. وبعده «إيراتوسيتن» و«ديودور الصقلي» و«سترابو» و«بليني» وغيرهم. كيف حيكت مؤامرة الصمت على هذا النطاق العالمي، لتُهتك أسرارها في أواخر القرن العشرين بعد الميلاد؟

إن مَن يقرأ الوصف الدقيق لأحوال بلاد العرب في تاريخ هيرودوتس يدرك مدى الدقة في أعمال المؤلفين الكلاسيكيين وجهدهم الكبير في تحري الحقائق يقول هيرودوتس في بعض المقاطع التي تصف بلاد العرب:

[ومن جهة الجنوب، آخر المعمور، بلاد العرب. وفيها وحدها يوجد البخور والمُر والقرفة والدارصيني واللاذن، والعرب يَجْنون كل هذه الأشياء بتعبٍ جزيل إلا المر. ولكي يجنوا البخور، يحرقون تحت الأشجار التي تولِّده صمغًا يُسمى ميعة يأتي به الفينيقيون إلى الأغارقة ... وعلى هذه الطريقة يجني العرب البخور. ولكن طريقة جني القرفة هي هذه: حينما يذهبون في طلبها يغطون أبدانهم ووجوههم أيضًا إلا العيون بجلود الثيران والماعز، والقرقة تنبت في بحيرة قليلة العمق، وعلى هذه البحيرة وحولها توجد حيوانات من جنس الطير تشبه الخفافيش فتصيح صياحًا شديدًا، وهي قوية جدًّا فيجتهد العرب بدفعها ويقون عيونهم، وبهذا التحفظ يجنون القرفة ... وتستنشق في بلاد العرب رائحة زكية جدًّا، والعرب عندهم نوعان من الغنم يستحقان الاعتبار ... وبلاد الحبشة تمتد غربي بلاد العرب باتجاه الجنوب، وهذه آخر البلاد المعمورة، ويحصل منها كثير من الذهب وفيلة ضخمة جدًّا. وكل أنواع الأشجار البرية والأبنوس. والرجال فيها كبار الأبدان حِسان الصور كاملوا البنية ويعمرون طويلًا ...].[٧]

ويقول ديودور الصقلي في أحوال الأنباط في مطلع تاريخهم أواخر القرن الرابع قبل الميلاد، نقلًا عن شاهد عيان معاصر لتلك الفترة اسمه «هيرونيموس القرديائي»: [لقد آلوا على أنفسهم ألا يبذروا حبًّا ولا يغرسوا شجرًا يؤتي ثمرًا، ولا يعاقروا الخمرة ولا يشيِّدوا بيتًا، ومَن فعل ذلك كان عقابه الموت. وهم ملتزمون بهذه المبادئ، لأنهم يعتقدون أن من تملَّك شيئًا استمرأ ما ملك، واضطر من أجل ذلك أن ينصاع لما يفرضه عليه ذوو القوة

[٧] تاريخ هيرودوتس، المرجع السابق، الكتاب الثالث من الفقرة ١٧٠ إلى ١١٤.

والجبروت ... وثمة قبائل عربية كثيرة تتخذ الصحراء مراعي لقطعانها ولكن الأنباط يفوقون الجميع بثرائهم].[8]

ومن ناحية أخرى فلو أن مملكتي يهوذا وإسرائيل قد قامتا في عسير لجاورتا طيلة حياتهما حضارات اليمن من سبأ ومعين وقتبان، فماذا تحدث المؤلفون الكلاسيكيون عن دول اليمن وشعوبها، ولم يتحدثوا عن الدول والشعوب المفترضة في عسير؟ يقول «ثيوفراست» عن بلاد اليمن: [هناك تنبت أشجار البان والمر والدارصيني في بلاد سبأ وحضرموت وقتبان ومالي. والجبال هناك مرتفعةٌ ومغطاة بالثلوج والنباتات، وتنفجر منها أنهار تجري إلى الأودية والسهول ... وكان من عادة الذين يجنون اللبان والمر أن يحملوه من كل ناحية إلى هيكل إله الشمس الذي لم يكن لهم بيت تبلغ عظمته من نفوسهم مبلغه، والذي كان له حراس مدججون بالسلاح أشداء من العرب، فإذا ما وصلوا إلى هذا الهيكل بما جنوه من اللبان والمر، قدموا منه مقدارًا إلى الحرس، ثم يضع كل واحد منهم ما جناه في مكان وعليه لوح كُتب عليه مقدار الوزن والثمن. فإذا جاء التجار نظروا الألواح وأخذوا ما وقع عليه اختيارهم، وتركوا في مكانه الثمن المعين في اللوح].[9]

ويقول «سترابو» نقلًا عن مصادر أقدم في دول اليمن: [ويقطن في تلك البلاد شعوب أربعة. أهل معين على شاطئ البحر وتُعرف عاصمتهم باسم قرنا، ثم أهل سبأ وعاصمتهم مأرب، ثم أهل قتبان ومنطقتهم تمتد من الخليج وفيها مدينة ملوكهم المسماة تمنة، ثم أهل حضرموت وعاصمتها سبتة، وأهل هذه المنطقة ذوو غنى وجاه عظيم وأبنيتها فخمة، خصوصًا الهياكل والقصور، وعماراتها تشبه عمارات المصريين].[10]

فلماذا فات على هؤلاء جميعًا الالتفات إلى يهوذا وإسرائيل المتلاصقة حدودها، وفق طبوغرافية الصليبي، مع حدود ممالك اليمن؟ ثم ماذا عن النقوش اليمنية نفسها، التي حُلت نصوصها بالمئات حتى الآن، لماذا لم ترد فيه إشارةٌ ولو عابرة إلى الجيران الشماليين، وأين أخبار دويلات اليمن في التوراة؟ ففيما عدا زيارة ملكة سبأ لسليمان (الملوك الأول: ١٠) هل يعقل أن تنقضي حياة مملكتي يهوذا وإسرائيل المفترضة في غرب العربية دون احتكاك مع دول اليمن القريبة، وهما اللتان دخلنا في حروب لم تنقطع مع كل الدويلات

---

[8] إحسان عباس، تاريخ دولة الأنباط، دار شروق، عمان ١٩٨٧، ص١١ و٢٩.

[9] ولفنسون، تاريخ اللغات السامية، دار القلم، بيروت ١٩٨، ص٢٣٥.

[10] المرجع نفسه ص ٢٣٦.

المحيطة بهما. وأخيرًا ماذا عن المصادر العربية ذاتها، وعن الإخباريين الذين رووا لنا كل ما وصلهم عن ممالك اليمن القديمة وعن شعوب العرب البائدة، لماذا لم تتسلل إليهم ولو معلومة واحدة تشير ولو من بعيد إلى قيام دولة سليمان ودولتي إسرائيل ويهوذا في عُقر دارهم؟

إن نظرية كمال الصليبي، إضافة إلى بيناتها اللغوية، مطالبةٌ بالإجابة المقنعة عن كل هذه الأسئلة المشروعة.

الفصل السابع

بلاد موآب ونقش ميشع

إلى جانب الممالك الآرامية المعادية، التي جاورت إسرائيل ويهوذا من الشمال والشمال الغربي، فقد جاورهما إلى الشرق، عبر الأردن والبحر الميت، شَعْبانِ هما العمونيون والموآبيون، وإلى الجنوب فيما يلي البحر الميت سكن الآدوميون، وكانت هذه الشعوب الثلاثة في خصامٍ دائم مع يهوذا وإسرائيل، وغالبًا ما ذُكرت في التوراة بالترافق مع بعضها بعضًا، مما يشير إلى تجاورها وتداخل حدودها، وهي الصورة نفسها التي رسمتها لهذه الشعوب الثلاثة السجلات الآشورية التي تورد ذكرها معًا وبالترافق مع الدويلات المجاورة لها.

نقرأ في نص للملك الآشوري تغلات فلاصر الثالث قائمة بالملوك الذين كانوا يؤدون الجزية في فلسطين وشرقي الأردن: [سانيبو ملك بيت عمون، سلامانو ملك موآب، ميتيني ملك أشقلون، يهو آحاز ملك يهوذا، كوش ملاكو ملك آدوم ...].[١] وكذلك في نص لسنحاريب: [توبعلو ملك صيدون، عبد ليتي (أي عبد اللات) ملاك أرواد، أورو ملك جبيل، ميتيني ملك أشدود، بودوإيلي ملك بيت عمون، كاموسن أديبي ملك موآب، عيرامو ملك آدوم، كلهم جاءوا إليَّ بالهدايا].[٢] وفي نص لأسر حادون: [دعوت إليَّ ملوك بلاد حاتي على الضفة الأخرى من النهر، بعلو ملك صور، منسي ملك يهوذا، قوش جبري ملك آدوم، موسوري ملك موآب ...].[٣]

وتنسج الرواية التوراتية على المنوال نفسه: [يسمع الشعوب فيرتعدون تأخذ الرعدة سكان فلسطين، حينئذٍ يندهش أمراء آدوم، أقوياء موآب تأخذهم الرجفة] (الخروج

[١] Leo Oppenheim, op. cit., p. 282.

[٢] Ibid., p. 287.

[٣] Ibid., p. 291.

نقش ميشع ملك موآب.

١٥: ١٥). [أنت مارٌّ اليوم بتخم موآب، فمتى قربت إلى تجاه بني عمون لا تعادهم لا تهجموا عليهم. لأنِّي أعطيك من أرض بني عمون ميراثًا] (التثنية ٢: ١٩). [... وأخذ شاؤل المُلْك على إسرائيل وحارب جميع أعدائه حواليه، موآب وبني عمون وآدوم] (صموئيل الأول ١٤: ٤٧). [وكان بيده (داود) آنية فضة وآنية ذهب وآنية نحاس ... من آرام ومن موآب ومن عمون] (صموئيل الثاني ٨: ١٢). [لأنهم تآمروا عليك بالقلب معًا، عليك تعاهدوا عهدًا. خيام آدوم والإسماعيليون، موآب والهاجريون، جبال عمون وعمالي ق ...] (المزمور ٨٣). [... وكذلك كل اليهود الذين في موآب وبين بني عمون وفي آدوم، والذين في كل الأرض سمعوا أن ملك بابل قد جعل بقيةً ليهوذا وقد أقام عليهم «جدليا»] (إرميا ٤٠: ١١).

ونعرف من مدن الموآبيين في التوراة «ديبون» العاصمة و«قريوت» و«ميدبا». وموقع ديبان القديم هو المكان المعروف اليوم بخربة ذيبان على بعد ثلاثة أميال شمال غرب عرعير، وقد اكتُشفت فيها آثار عديدة للموآبيين أهمها «الحجر الموآبي»، وهو نُصب حجري نقش عليه «ميشع» ملك موآب نصًّا طويلًا يتحدث عن حروبه مع إسرائيل. أما مركز العمونيين الرئيسي فقد صار فيما بعد مدينة «عمان» الحالية. وقد تحدثنا سابقًا عن سالع عاصمة الآدوميين وعلاقتها ببترا.

لم يأبه كمال الصليبي كثيرًا لأمر آدوم فذكرها عرضًا في إحدى حواشي الكتاب وطابقها مع «وادي إدام» في جنوب مكة، أما العمونيون فلم يتعرض لهم بتاتًا ولم يحدد لهم مكانًا في غرب العربية. ولكنه توقف طويلًا عند موآب بسبب وثيقة ميشع ملك موآب، وهي أطول وأهم وثيقة كتابية تم العثور عليها حتى الآن في فلسطين وشرقي الأردن، ولغة النقش وكتابته تنتمي إلى كنعانية فلسطين المدعوة خطأً بالعبرية المبكرة، والتي تطورت فيما بعد إلى اللغة التوراتية المدعوة بالعبرية، والتي تبنت فيما بعد الخط الآرامي المربع الذي يُدعى الآن بالخط العبري.

ولسوف نتوقف طويلًا، فيما بعد من هذا الفصل عند نقش ميشع الملك موآب، لأنَّه يقدِّم بيِّنةً آثارية وتاريخية واضحة عن مسرح الحدث التوراتي، ولكن نعرف كيف تعامل كمال الصليبي مع هذه البينة وأمثالها. وبما أن الصليبي قد شكَّك في كل الترجمات التي تمت لهذا النص حتى الآن، وقدم تصحيحات لها هنا وهناك، ودعا إلى إعادة قراءة النقش بنصه الأصلي، فإننا سنقدم أولًا صورة للنقش بكتابته الأصلية، ثم نحل رموز النقش بحروف عربية، ثم نقدم ترجمةً له اعتمادًا على أكثر من ترجمة عالمية، ونزود القارئ المهتم بتتبع تعليقنا على الترجمة بقائمة بأحرف كتابة النقش وما يقابلها من أحرف عربية، واضعين كل هذه الأدوات أمام مَن يشاء، للحكم في هذه المسألة التي نعتبرها من أدق المسائل المتعلقة بموضوع هذا الكتاب.

حل رموز نقش ميشع ملك موآب بحروف عربية[٤]

(١) أنك مشع بن كمش ملك مأب هد.
(٢) يبني أبي ملك على مأب شلش شت وأنك ملك.

---

[٤] ولفنسون، تاريخ اللغات السامية، المرجع السابق، ص١٠٦–١٠٨.

(٣) تي أحرا أبي واعس هبمت زات لكمش بقرحه بن (ی).
(٤) شع كي هشعني مكل هـ لكن وكي هراني بكل سناي عمر.
(٥) ي ملك يسرال ويعنوات مأب يمن ربن كي يانف كمش.
(٦) بأرصه ويحلفه بنه ويأمر جم ها اعنوات ماب بيمي أمر.
(٧) وأرا به وبيته ويسرال أبد أبد علم ويرش عمري ات كل (ار).
(٨) ص مهدبا ويشب به يمه وحصي يمي بنه أربعن شت ويش.
(٩) به كمش بيمي وابن ات يعملعن وأعس به هأشوح وابن.
(١٠) ات قريتن واش جد يشب بارص عطرت معلم وبين له ملك ي.
(١١) سرال ات عطرت والتحم بقر واحزء واهرج لت كل هعم.
(١٢) هقريت لكمش ولماب وشاب مشم ات ارال دوده وا (س).
(١٣) حبه لفني كمش بقريت واشب به ات اش شرن وات اش.
(١٤) محرت ويامرلي كمش لك أحذات نبه عل يسرا لوا.
(١٥) هلك بلله والتحم به مبقع هشحرت عد هصهرم واح.
(١٦) زه واهرج كل شبعت الف ج (ب) ر ن و ... ن وجبرت و.
(١٧) ت ورحمت كي لعشتر كمش هحرمته (واقع مشم ا).
(١٨) لي يهوه واسحب هم لفني كمش وملك يسرال بنه ات.
(١٩) يهص ويشب به بهلتحمه بلى ويجرشه كمش مبني (و).
(٢٠) اقمح مماب ماتن اش كل رشه واسأه بيهص واحزه.
(٢١) لسفت عل ديبن انك بنتي قرحه حمت هيعرن وحمت.
(٢٢) هعفل وأنك بنتي شعرية وانك بنتي مجدلته وا.
(٢٣) أنك بنتي بت ملك وانك هستي كلأى هاشو (ح) لم (بن) بقر (ب).
(٢٤) هقر وبران بقرب هقر بقرحه وأمر لكل هعم عسول.
(٢٥) كم اش برببته وأنك كرتي همكرتت لقرحه بأسر.
(٢٦) ي يسرال أمك بنتي عرعر وأنك عستي همسلة بأرنن.
(٢٧) أنك بنتي بت بمت كي هرس ها انك بنتي بصركي عين.
(٢٨) ش ديبن حمشن كي كل ديبن مشمعت وأنك ملك ها أنك بنتي بصركي عين.
(٢٩) ت ... مات بقرن اشر يسفتي عل هأرص وانخ بنت.
(٣٠) ي (مهد) يا وبت دبلتن وبت بعلمعن واساشم ا ت ن ...
(٣١) ... صان هارص وحورنن يشب به. ب وق اش.

(٣٢) ... أمر لي كمش رد هلتحم بحو رنن وارد ...
(٣٣) به كمش بيمي وعل ده مشم عش ...
(٣٤) ... شت شدق وان ...

ترجمة النص[٥]

(١) أنا ميشع ملك موآب الديباني (نسبةً إلى ديبان العاصمة).
(٢) أبي ملك على موآب ثلاثين سنةً، وأنا ملكت.
(٣) بعد أبي، وبنيت هذا المرتفع لـ «كموش» (الإله) بـ «قرحه».
(٤) لأنَّه أعانني على كل الملوك، ولأنَّه نصرني على أعدائي، (في النص: كي هراتي بكل سناي، أي أراني في أعدائي، وهو تعبير ما زال مستخدمًا في العامية)، أما عمري.
(٥) ملك إسرائيل، فإنه أذلَّ موآب أيامًا كثيرةً، لأن كموش كان غاضبًا على أرضه.
(٦) فخلفه ابنه وقال سأذل موآب في أيامي قال (هذا).
(٧) فنظرت إليه وإلى بيته، وإسرائيل باد، باد إلى الأبد. وعمري احتل كل أرض.
(٨) «مهدبا» وأقام عليها في أيامه، ونصف أيام ابنه أربعين سنةً، (ولكن) أرجعها.
(٩) كموش في أيامي. فبنيت «بعل معان» وجعلت فيها بركة لخزن الماء وبنيت.
(١٠) «قريتان» (اسم مدينة) وكان أهل «جاد» (من أسباط إسرائيل) يسكنون في أرض «عَطَرُت» (اسم مدينة) من زمن بعيد وعَمَّر ملك.
(١١) إسرائيل «عَطَرُت» فحاربت المدينة وأخذتها وقتلت كل أهل.
(١٢) المدينة، فهنئ كموش وموآب، وجئت من هناك برئيسهم «أرئيل» وسحبته.
(١٣) أمام كموش بـ «قريوت» (اسم المدينة) وأسكنت بها أهل «شران» وأهل.
(١٤) «محرت» فقال لي كموش اذهب وخذ «نبه» (اسم مكان) من بني إسرائيل.
(١٥) فسرت بالليل وحاربت من مطلع الفجر إلى الظهيرة وأخذتها.
(١٦) وقتلتهم جميعًا، سبعة آلاف رجل وامرأة.

---

[٥] W. F. Albright, Palestinian Inscriptions (in: Ancient Near Eastern Texts), op. cit., pp. 320–21.

ولفنسون، تاريخ اللغات السامية، المرجع السابق، ص١٠٨–١١٠.

(١٧) وجارية، لأنِّي وهبتهم قربانًا لعشتر كموش، وأخذت من هناك ... (نقص في السطر).

(١٨) يهوه، وسحبتهم أمام كموش. ثم بنى ملك إسرائيل.

(١٩) «يهص» (اسم مدينة)، وسكن لها وهو يحاربني فطرده كموش من أمامي.

(٢٠) وأخذت من موآب مائتي رجلٍ من أفضلهم، وسيرتهم إلى يهص وأخذتها.

(٢١) فضممتها إلى ديبون. أنا بنيت قرحة، وحمت هيعرن.

(٢٢) وحمت هعوفل (أسماء مدن) فبنيت أبوابها وبنيت أبراجها.

(٢٣) وأنا بنيت بيت الملك، وجعلت بركتين بقرب.

(٢٤) المدينة، ولم توجد بئر في داخل بلدة القرحة، فقلت للشعب اجعلوا.

(٢٥) لكم آبارًا في بيوتكم. وأنا قطعت الأشجار لِقرحة على يد الأسرى من بني.

(٢٦) إسرائيل، أنا بنيت «عرعر» (اسم مدينة)، وأنا مهدت الطريق إلى «أرنن» (نهر يصب في بحيرة لوط).

(٢٧) أنا بنيت «بيت باموث» (معبد) لأنه كان قد تخرب، وبنيت «بصر» (اسم مدينة) لأنها كانت خرابًا.

(٢٨) ... ديبون خمسين، لأن كل ديبون خضعت لي وأنا.

(٢٩) حكمت ... مئة المدن التي ضممتها إلى المملكة وأنا بنيت.

(٣٠) «مهدبا» و«بيت دبلتان» و«بيت بعل معان» (أسماء مدن) وسَّيرتُ إليها.

(٣١) غنم البلاد. و«حورنان» (اسم مدينة) أقام بها ...

(٣٢) ... فقال لي كموش انزل لقتال حورنان فنزلت.

(٣٣) ... (لقتال المدينة وأخذتها) وكموش سكن بها في أيامي.

(٣٤) ... وأنا ...

هذا النصب التذكاري أقامه ميشع ملك موآب لتخليد انتصاراته على الإسرائيليين، والإشادة بأعماله العمرانية والإصلاحية في موآب. فبعد خضوع موآب لإسرائيل سنين عديدة أيام الملك عمري وابنه آخاب، قام ميشع بتحرير البلاد وطرد الإسرائيليين من كل مكان أقاموا فيه بأرض موآب، ثم تفرَّغ بعد ذلك للإصلاحات الداخلية. وتأتي الرواية التوراتية على ذِكر هذه الحروب بين ميشع وإسرائيل بعد وفاة آخاب بن عمري، فسار إليه يهورام بن آخاب مستعينًا بيهوشافاط ملك يهوذا، وحاصرته الجيوش في عاصمته ثم ارتدت عنه بعد أن قدَّم ابنه البكر قربانًا على سور المدينة. ورغم هذا الاختلاف بين

الأبجدية العربية الحالية	الأبجدية العبرية القديمة	الأبجدية الآرامية القديمة	الأبجدية الفينيقية القديمة	الأبجدية السامية الجنوبية	الأبجدية السامية الشمالية الأولى	الأبجدية السريانية الإسطرنجيلية
ا						
ب						
ج						
د						
ه						
و						
ز						
ح						
ط						
ي						
ك						
ل						
م						
ن						
س						
ع						
ف						
ص						
ق						
ر						
ش						
ت						

جدول الأبجديات القديمة. لاحظ أبجدية النص هي الرابعة من اليمين.

الروايتين، إلا أنهما تتفقان على تمرد ميشع واستقلاله عن إسرائيل، وإخفاق هؤلاء في إخماد ثورته والانسحاب من بلاده.

ولكن كمال الصليبي الذي لم يقدِّم لنا فكرة عن مضمون نقش ميشع، ولم يشر إلى الرواية التوراتية المتعلقة بقتال ملك إسرائيل لميشع، يتقدم بتفسير غاية في الغرابة لوجود الحجر الموآبي في منطقة شرقي الأردن، على مسافة شاسعة من «أم الباب» المكان الذي يفترضه كموطن للموآبين التوراتيين في مرتفعات الطائف، فيقول في تقديمه لمسألة نقش ميشع: [في هذا النقش الموآبي، يتحدث ميشع ملك موآب (مشع ملك م ء ب) عن حروبه مع عمري ملك إسرائيل، وابنه من بعده (وهو آخاب بن عمري الذي لا يذكره

النقش بالاسم). وبسبب الغزوات المتتالية التي تعرضت لها أرض موآب في هذه الحروب، اضطر ميشع إلى الجلاء عنها، فانتقل مع أتباعه من موآب إلى «قرحة» (لعلها اليوم جحرًا من قرى الكرك)، حيث أقام لنفسه عاصمةً جديدة شرقي الأردن. وبهذه المناسبة أقام ميشع الحجر الذي كتب عليه هذا النقش] (ص١١٢).

وهذا التفسير يضرب عرض الحائط بمضمون النقش وبالرواية التوراتية الموازية له. فميشع لم يحارب الملك عمري وابنه آخاب من بعده، ولم يضطر بسبب هزائمه المتتالية إلى الجلاء عن أرضه، بل انتزع استقلاله بعد فترة طويلة من خضوع موآب لعمري وابنه من بعده، وأجبر الإسرائيليين على الانسحاب وهذا ما تؤيده الرواية التوراتية نفسها. ومن ناحية أخرى، كيف نفسِّر قيام ملك مهزوم من وجه أعدائه، تاركًا لهم موطن آبائه وإصلاحاته في بلده! وإذا كانت هذه الهزيمة والهجرة الجماعية لشعب موآب قد حدثت فعلًا، فكيف غفلت الرواية التوراتية عن ذكرها، وعن تخليد هذا النصر المبين على شهب اعتُبر دومًا من الأعداء التقليديين لبني إسرائيل؟ وكيف نفسِّر استمرار وجود موآب كجارة لإسرائيل ويهوذا في الأخبار التوراتية اللاحقة حتى دمار أورشليم، وتبشير الأنبياء المتأخرين بزوالها، مما نجده في نبوءات إرميا وعاموس ودانيال؟

ثم يتابع الصليبي: [وليس هناك في الحجر الموآبي ما يشير إلى أن موآب كان اسمًا قديمًا لمرتفعات الكرك شرق البحر الميت، أو إلى أن مملكة إسرائيل كانت تقع في فلسطين، ونحن إذا أعدنا قراءة النقش بنصِّه الأصلي، وليس من خلال الترجمات التي أُجريت له حتى الآن، يصبح من الواضح تمامًا أن الحروب التي جرت بين إسرائيل وموآب، والتي يتحدث عنها النقش إنما جرت في الحجاز وليس في شرق الأردن، وإن مملكتي إسرائيل وموآب، بالتالي، كانتا متجاورتين في غرب شبه الجزيرة العربية وليس في جنوب الشام] (ص١١٢).

ونحن لا ندري أي شيء آخر يجب أن يحتويه النقش، أكثر مما احتوى للدلالة على أن موآب التوراتية كانت في شرقي الأردن. فالحجر الموآبي قد عُثر عليه بين خرائب مدينة ديبان في الموقع المعروف منذ زمن طويل بخربة ذيبان بشرقي الأردن، بين عدد كبير من الآثار الموآبية، وصاحب النصب يذكر بلسانه أنه ميشع ملك موآب الديباني، وأنه قد هزم الإسرائيليين وعمَّر ما خربوه إبان سيطرتهم على بلاده. ثم يأتي على ذِكر عدد كبير من المدن الموآبية وكلها مذكورة في التوراة. ورواية ميشع على نصبه التذكاري تتفق مع الرواية التوراتية في الخطوط العريضة ولا تتناقض معها.

ورغم دعوته إلى إعادة قراءة النقش بنصه الأصلي، فإن الصليبي لا يفعل سوى تقديم أسطر قليلة من النص الكامل، معزولة عن سياقها العام ليعيد قراءتها على طريقته. وحتى هذه الأسطر المختارة نفسها، لا تقدم إلينا بنصها الكامل، بل كأجزاء أسطر معزولة عن سطورها. ولسوف نتابع فيما يلي هذه الشواهد القليلة من نقش ميشع الطويل.

[في الكلام عن الهجوم الأول على موآب الذي قام به أتباع الملك عمري ... يصف النقش موآب بأنها «يمن ربن» وبقراءة «يمن» كجمع لـ «يُم» بمعنى يوم، وقراءة «ربن» كجمع للصفة «رب» بمعنى عديد، أخذ المترجمون حتى الآن تعبير «يمن ربن» على أنه أيام عديدة. وهي ترجمة لا تتفق تمامًا مع المعنى العام للنص، والواقع هو أن التعبير يشير ببساطة إلى أن موآب كانت تقع «جنوب ربن»، والمكان الوحيد في الشرق الأدنى الذي ما زال يحمل الاسم «ربن» هو قرية «رابن» في الحجاز. وعلى ذلك فإن موآب التوراتية قابلة للتعريف اليوم بكونها قرية «أم الياب»، وهذه تقع عمليًّا إلى الجنوب من رابن أي يمن ربن] (ص١١٢).

الجملة القصيرة المؤلفة من كلمتين التي يشير إليها الصليبي في المقطع أعلاه، هي جزء من السطر الخامس في النقش:

(٤) لأنه أعانني على كل الملوك ولأنه نصرني على أعدائي أما عمري.

(٥) ملك إسرائيل، فإنه أذل موآب أيامًا طويلة (يمن ربن) لأن كموش كان غاضبًا على أرضه (أي على أرض موآب).

فإذا أخذنا بوجهة نظر الصليبي في كون «يمن ربن» لا تعني أيامًا كثيرة، بل «جنوب موقع رابن»، ستكون ترجمة السطر الخامس على الوجه التالي:

(٥) (أما عمري) ملك إسرائيل فإنه أذل مؤاب إلى الجنوب من أرض رابن.

ونحن نحتكم إلى المنطق ونتساءل أي الترجمتين تتفق مع السياق العام للنص؟ ولماذا يحتاج مَلِك موآب إلى تحديد موقع بلاده على أنها تقع إلى الجنوب من قرية لم تُعرف قط كموقع من مواقع الموآبيين، سواء في نقش ميشع نفسه الذي عدَّد كل مدنهم وقراهم تقريبًا، أم في التوراة التي لم تترك موقعًا من مواقع الموآبيين إلا وأتت على ذكره. وإذا لم تكن «رابن» هذه موقعًا من مواقع الموآبيين، فلا بد أنها كانت في الماضي مملكةً قوية معروفة من ممالك الشرق القديم حتى يقوم ملك موآب بتعريف مملكته بأنها تقع إلى الجنوب منها. فأين ذكر رابن هذه في سجلات الشرق القديم التي لم تترك موقعًا مهمًّا إلا وأتت على ذِكره؟

ثم يتابع الصليبي: [هناك جملة في النقش تقرأ: «ويرس عمري ك... ص (كل هـ – ء رص) مهدب». وقد أخذت الجملة حتى الآن على أنها تشير إلى احتلال عمري ملك إسرائيل لبلدة «مادبا» في شرق «الأردن». ولو كانت مادبا (مدب ء) هي المعنية حقًّا هنا، لما كتبت «مهدب») نظرًا لأن حرف الهاء الذي يتوسط الكلمة لا يسقط عادة في اللفظ في اللغات السامية. وما تقوله الجملة فعلًا هو: «وعمري احتل كل الأرض من هدب ء» وهدبء هذه، هي اليوم قرية «الهدية» شمال «أم الباب» في مرتفعات الطائف المشرقة على وادي أضم] (ص١١٣).

في المقطع أعلاه، إشارة إلى جملة قصيرة تؤلف الجزء الأخير من السطر السابع والكلمة الأولى من السطر الثامن (انظر النص). وهو يوردها بالكنعانية كما يأتي: [ويرس عمري ك... ص مهدب ء] مفترضًا وجود تشوه بسيط في نهاية السطر السابع، يقترح في مكانه «كل هـ – أرص» أي «كل الأرض» حيث الهاء هنا هي «أل» التعريف الكنعانية. ثم يعمد بعد ذلك إلى تفكيك كلمة «مهدب ء» إلى شطرين هما «الميم» وهي حرف الجر بالكنعانية، و«هدب ء» التي يرى فيها اسم مكان هو «الهدبة» في مرتفعات الطائف، إلى الشمال من «أم الباب» التي رأى فيها سابقًا موآب التوراتية (ص١١٣ أيضًا). فتغدو الجملة: [ويرس عمري كل هـ – أرض م – هدب ء] أي [وعمري احتل كل الأرض من هدب ء (أي ابتداء من الهدبة)].

وفي الحقيقة فإننا لم نعثر في النص الأصلي لنقش ميشع على نقصٍ أو تشوه في الموضع المشار إليه. وترجمة الجملة كما هي واردة بوضوح في النقش هي: «وعمري احتل كل أرض مهدبا، وأقام عليها في أيامه ونصف أيام ابنه أربعين سنةً».

ومهدبا الواردة هنا، قد ذُكرت في التوراة مرارًا كمدينة للموآبيين تحت اسم «ميدبا» (انظر على سبيل المثال سِفر العدد ٢١: ٣٠؛ ويشوع ١٧: ١٦؛ وأخبار الأيام الأول ١٩: ١٧–١٥؛ وإشعيا ١٥: ٢) وترد ميديا بالتوافق مع المدن الموآبية الأخرى المذكورة في نقش ميشع، كما هو الأمر في سِفر يشوع ١٣: ٩ و١٥: ١٦: [أخذ الراءوبينيون والجاديون مُلكهم الذي أعطاهم موسى في عبر الأردن نحو الشرق ... فكان تخمهم من عروعير التي على حافة وادي أرنون، والمدينة التي في وسط الوادي وكل السهل عند ميدبا: حشبون وجميع مدنها في السهل، وديبون وباموت بعل وبيت بعل معون وبهصة وقديموت وميفعة وقريتايم]. وهذه المدن المذكورة هنا، قد وردت في نقش ميشع في الأسطر الآتية: ميدبا وردت مهدبا في السطرين ٨ و٣٠، وعروعير في السطر ٢٦، وديبون وردت في الأسطر ١

و٢ و٢٨ وبعل معون وردت بعل معان في السطرين ٩ و٣٠، ويهصة وردت في السطرين ١٩ و٢٠ وقريتايم وردت قريتان في السطر ١٠.

من هنا فإن تفكيك كلمة «مهدبا» في السطر السابع من النص، لا يقوم على أساس مقنع، وكذلك الأمر فيما يتعلق بالإضافة التعسفية لأل التعريف «هـ» قبل كلمة «أرص».

أما عن قوله بأن «مهدبا» لا تتحول إلى «مادبا» لأن حرف الهاء الذي يتوسط الكلمة لا يسقط عادةً من اللفظ في اللغات السامية، فقول لا محل له هنا، لأن «مأدبا» هو الاسم الحديث لموقع في شرقي الأردن اليوم، يُظن أنه الموقع القديم لمهدبا نقش ميشع أو ميديا التوراة. والاسم الحديث إذا صح أنه الموقع القديم ذاته، فإنه مُحَوَّر عن «ميدبا» الاسم التوراتي، وتحول الياء إلى ألف أمر وارد وفق لائحة تحولات الأحرف التي وضعها الصليبي نفسه (الصفحات ٢١ و٢٢).

وكتعليقٍ أخير على هذه الجملة التي تطوع الصليبي لملء فراغها في الصفحة ١٣ من كتابه، نذكر بأنه في الصفحة ١١، أي قبل صفحتين فقط، كان قد اعترض على قيام عالِم الآثار واللغات السامية وليم. ف. ألبرايت، بملء فراغ مماثل في أحد نقوش «لخيش» بفلسطين، بكلمات مقترحة لفهم النص. قال الصليبي: [هناك بقايا جملة تُقرأ كالتالي «ء دني هل ء تكتب ء ... هـ تعسو كزوءت ... سلم» والترجمة وهي مرة أخرى من عمل و. ف. ألبرايت تقول بكل صفاقة: «والآن يا مولاي هل لك أن تكتب لهم قائلًا لماذا فعلتم هكذا حتى بأورشليم». إن مثل هذه الترجمة الاعتباطية لا يجوز السماح بها، حيث هناك أقل احترامًا للأمانة العلمية]!

بعد ذلك يأتي الصليبي إلى شاهده التالي، وهو عبارةٌ عن كلمتين متفرقتين وردتا في النقش، فيبحث في مدلوليهما دون إيرادهما في سياقهما الطبيعي: [في أجزاء من النقش ترد لفظة «قر» باعتبارها تعني «قرية» ولفظة «كمش» على أنها «كموش» اسم إله موآب، وفي أجزاء أخرى تظهر كل من «قر» و«كمش» بشكل مميز على أنهما أسماء لبلدتين أو قريتين متجاورتين في أراضي موآب. وقريتا «القر» و«قماشة» ما زالتا هناك إلى اليوم في الجزء نفسه من مرتفعات الطائف حيث تقع «الهدبة»].

وقد بحثنا دون طائل في النقش عن موضع وردت فيه كلمة «قر» على أنه تعني اسم موقع. وفي الحقيقة فقد وردت الكلمة أربع مراتٍ في النقش، وذلك في السطر ١١ و١٢ ومرتين في السطر ٢٤، وفي سياقٍ منطقي ونحوي يشير إلى معناها كمدينة أو قربة ففي السطر ١١ وردت الكلمة مسبوقة بحرف الجر «ب» وفي السطر «١٢» وردت مسبوقة بأل التعرف «هـ».

(١١) (فعمر ملك إسرائيل) «عطرن» (اسم مدينة) فحاربت في المدينة (بـ قر) وأخذتها وقتلت كل أهل.

(١٢) المدينة (هـ قر)...

ومن الواضح تمامًا من سياق السطر ١١ أن «قر» تعني مدينة، وأنها تعود إلى «عطرت» المدينة التي عمرها ملك إسرائيل فحارب فيها ميشع وأحذها. أما في السطر ١٢ فإن أل التعريف السابقة لـ «قر» تظهر بوضوح أنها تعني أيضًا مدينة وليست اسم موقع.

وفي السطر ٢٤ وردت الكلمة مرتين مسبوقةً أيضًا بأل التعريف «هـ».

(٢٣) وأنا بنيت بيت الملك وأنشأت البركتين بقرب.

(٢٤) المدينة (هـ - قر) ولم توجد بئر في داخل القرية (هـ - قر) بـ «قرحة» فقلت للشعب اجعلوا لكم آبارًا ...

إن ال التعريف الكنعانية «هـ» لا تدخل على أسماء المواقع، تمامًا كما هو الأمر في العربية حيث نقول «بغداد» وليس «البغداد» و«دمشق» وليس «الدمشق» إلا في حالات نادرة تكون أل التعريف فيها جزءًا من المسمَّى الأصلي للمدينة مثل «القاهرة».

أما عن «كموش» اسم إله المؤابيين، فقد بحثنا في النص عن سياقٍ يمكن أن يفهم منه ورود الكلمة كاسم لمدينة فلم نُوفَّق إلى ذلك، وربما كانت إشارة الصليبي إلى السطر ١٨ وهو سطرٌ غير واضح المعنى تمامًا في نصفه الأول لأنه مسبوق ببضع كلماتٍ مشوَّهة في آخر السطر ١٧، حيث نقرأ:

(١٧) وأخذت من هناك ...

(١٨) يهوه، وسحبتهم أمام كموش ثم بنى ملك إسرائيل.

ولكننا نتساءل إذا كانت كل من كلمتي «كموش» و«قر» قد وردتا في نقش ميشع كأسماء لمدن موآبية، فلماذا لم تأتِ أخبار التوراة على ذكرها بتاتًا، وهي التي عددت كل مدن موآب، منذ حلول بني إسرائيل في جوارهم أيام موسى إلى آخر أيام أورشليم؟

بعد ذلك يقول الصليبي [هنا، وعلى بُعدٍ آمنٍ من خصومه الإسرائيليين في جنوب الحجاز، أصبح هذه الملك «صاحب مواشي» كما تصفه التوراة العبرية، قادرًا على الازدهار مرةً أخرى، وعلى استملاك مراعٍ جديدة في أرض «حرن» أي حوران، لما كان لديه من «بقرن» (أبقار) و«معز» (ماعز) و«ص ء ن» (ضان أو أغنام). وحتى الآن كانت قراءة منقوشة ميشع غاية في التشوش حول تفسيرها إلى درجة أنهم أخفقوا في التعرف إلى هذه

الكلمات الأخيرة الثلاث كما تظهر في المنقوشة، بما تعنيه في الواقع، وفي حين أن كلمة «بقرن» هي بوضوح «بقر» بصيغة جمع المذكر، فقد قرءوها على أنها «ب – قرن» التي معناها «بقري» أما «معز» و«ضأن» فقد حُذفتا كليًّا من الترجمة بسبب سوء التأويل العام للإطار الذي وردت فيه هاتان الإشارتان الصريحتان إلى الماعز والأغنام].

لا شك أن إشارة الصليبي في المقطع أعلاه، هي إلى الأسطر الأخيرة في النص، من السطر ٢٩ إلى السطر ٣٤. أما ما ذكره الصليبي عن تشوش قرَّاء المنقوشة في تفسير هذا الجزء، فليس مصدره عجز المترجمين وسوء تأويلهم العام للنص، بل تشوه الجزء الأسفل من النُّصب، وفقدان الكثير من الكلمات التي لم يستطع المترجمون اقتراح بدائل مناسبةٍ لها، لأن ما تبقَّى من الكلمات الواضحة في الأسطر الناقصة لا يقدِّم سياقًا ذا دلالةٍ. ولا ندري كيف استطاع الصليبي أن يستنتج من هذه الأسطر الستة المشوهة، أن ميشع قد أصبح قادرًا على الازدهار مرةً أخرى، وعلى استملاك مراعٍ جديدة في موطنه الثاني. أما عن كلمة «بقرن» الواردة في السطر ٢٩ والتي يرى أنها «بقر» بصيغة جمع المذكر وليست «بقري» (بمدن)، فإن معنى السطر (الذي لم يورد لنا نصه كاملًا) لا يستقيم بتاتًا مع هذا الاجتهاد (راجع النص). أما كلمة «ضأن» فلم تُحذف كليًّا من الترجمات، وهي واردة في نصنا أعلاه، وفي انسجامٍ تام مع الإطار العام الذي وردت ضمنه، ولكننا أخفقنا في التعرف على كلمة «معز» فيما وصلت إليه أيدينا من نسخٍ محققة ومنشورة للنص. ويمكن للقارئ أن يتحقق بنفسه من ذلك، ويساعدنا في البحث عن الكلمة وهي تُكتب بالكنعانية على الشكل الآتي «𐤆𐤏𐤌».

وأما عن أرض «حرن» التي يقرنها بحوران، ويقول أن ميشع قد استملك فيها مراعي جديدة، فقد وردت في النص «حورنان» لا «حرن»، وهي مدينةٌ موآبية وردت في التوراة تحت اسم «حورونايم» وهي مُثنًّى كهف أو وهدة، ولا علاقة لها بحوران (انظر إشعيا ١٥: ٥؛ وإرميا ٤٨: ٣، و٥، و٣٤).

وأخيرًا نتساءل، إذا كان الموآبيون قد رحلوا عن جوار مملكتي يهوذا وإسرائيل في أواسط القرن التاسع نحو شرقي الأردن، فكيف نجد مملكتهم ما زالت قائمةً في مطلع القرن السادس إلى جانب مملكتي آدوم وعمون، كما نستشف من نبوءات النبي إرميا الذي أتاه الوحي، كما يقول الكتاب، في السنة الأولى لحكم نبوخذ نصر ملك بابل: [في ابتداء ملك يهوياقيم بن يوشيا ملك يهوذا صار هذا الكلام إلى إرميا من قِبل الرب قائلًا: هكذا قال الرب لي، اصنع لنفسك ربطًا وأنيارًا واجعلها على عنقك وأرسلها إلى ملك آدوم

وإلى ملك موآب وإلى ملك بني عمون]. إرميا ٢٧: ١–٣ وها هو إرميا يبشِّر بخراب موآب، ويعدِّد مدنها واحدةً واحدة، بعد مُضي أكثر من قرنين على التاريخ المفترض لزوال موآب ورحيل شعبها:

[قريب مجيء هلاك موآب وبليتها مسرعة جدًّا اندبوها يا جميع الذين حواليها وكل العارفين اسمها، قولوا كيف انكسر قضيب العز عصا الجلال انزلي من المجد، اجلسي في الظلماء أيتها الساكنة بنت ديبون، لأن مهلك موآب قد صعد إليك وأهلك حصونك. قفي على الطريق وتطلعي يا ساكنة عروعير، اسألي الهارب والناجية، قولي ماذا حدث، قد خزي موآب لأنَّه قد نُقض، ولولوا واصرخوا أخبروا في أرنون أن موأب قد أُهلك، وقد جاء القضاء على أهل السهل. على حولون وعلى يهصة وعلى ميفعة وعلى ديبون وعلى نبو وعلى بيت دبلتايم وعلى قريتايم وعلى بيت جامول وعلى بيت معون وعلى قريوت وعلى بصرة وعلى كل مدن موآب] (إرميا ٤٨: ١٦–٢٣).

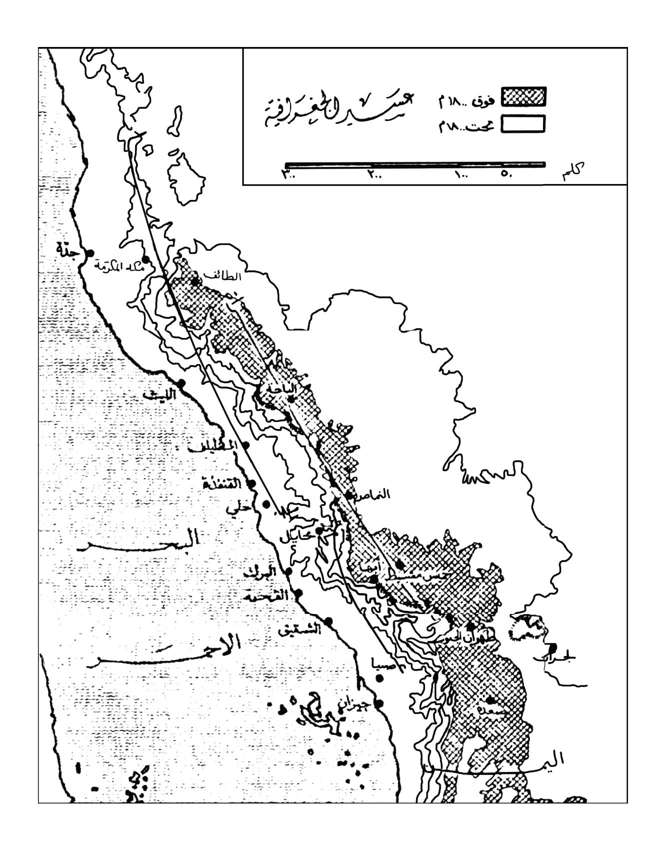
خاتمة

نحن من المؤمنين بأنَّ دور الكتاب المتميز، لا يتمثل فيما يقدمه من أفكارٍ جاهزة تعفي من التفكير بأخذ اليسير الذي يعطيه، بل في الحث على التأميل والبحث والنقد والتجاوز، وبهذا المعنى، فإن كتاب «التوراة جاءت من جزيرة العرب»، قد أخذ مكانه كأحد المباحث الجديدة، دون أن ينال منه، كما نعتقد، تقصير نتائجه عن خلق قناعات ترتكز إلى سندٍ موضوعيٍّ مكينٍ.

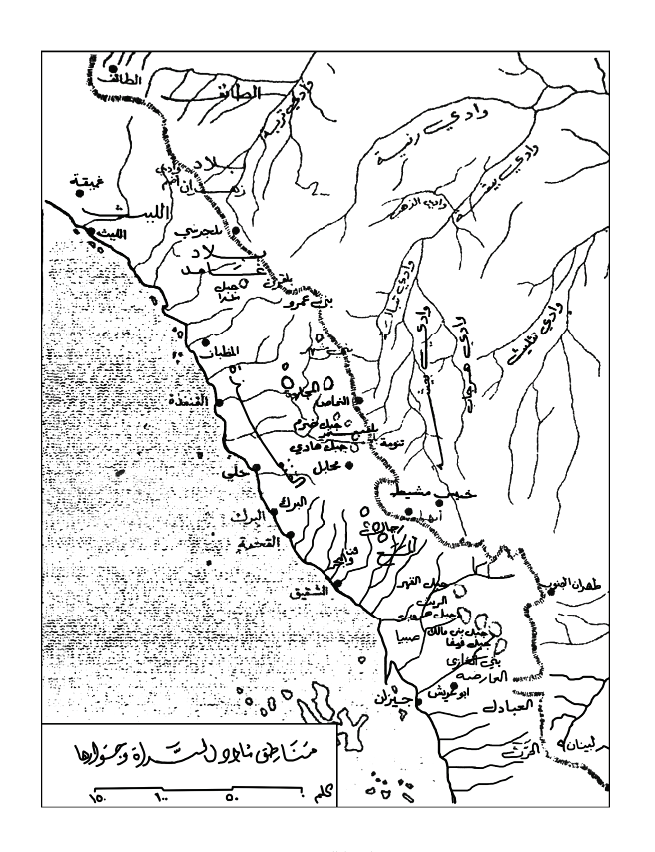
لقد قلنا في فاتحة الكتاب، بأنَّنا ننطلق من موقفٍ منفتح راغب في تقبُّل الجديد وإن حمل في طياته هدمًا للقديم، ووعدنا بتمحيصٍ علمي دافعه اهتمامنا بتاريخ وحضارة الشرق القديم، لا عنايتنا بمسألة التوراة وأهلها، ممن لا شأن لهم بذكر في ذلك التاريخ، ولا مكانًا متميزًا في تلك الحضارة. وقلنا بأنَّنا مستعدون لتقبُّل ما يصمد من أطروحات الصليبي بعد وضعها على المحك العلمي، بل ولتبنيه فماذا تبقَّى مما قدَّمه لنا كمال الصليبي بعد هذا الحوار الهادئ الطويل؟ جوابنا على ذلك أنَّه قد بقيت المحاولة العلمية، والموقف الجريء، وسابقة محرضة على النقد في أقصى حدوده الممكنة.

إنَّ مَن لم يطلع على خفايا كتاب الصليبي وأدق تفاصيله وأفكاره كما فعلنا، لا يستطيع أن يدرك مدى الجهد المبذول لإكماله، ومبلغ ما رُصد له من تحقيقٍ وصبرٍ وأناةٍ، وما وراءه من ذخيرةٍ علمية وفكرٍ مرتب، ونحن نزجي الشكر للدكتور كمال الصليبي على الأوقات الممتعة والمضنية التي قضيناها في مقابل جهده الكبير، وعلى الفرصة التي أتاحتها لنا مبادرته لوضع كثير من الأمور في نصابها، مما أردنا منذ زمن أن ننبري له، فكان حوارنا هذا بمثابة المدخل لما أردناه.

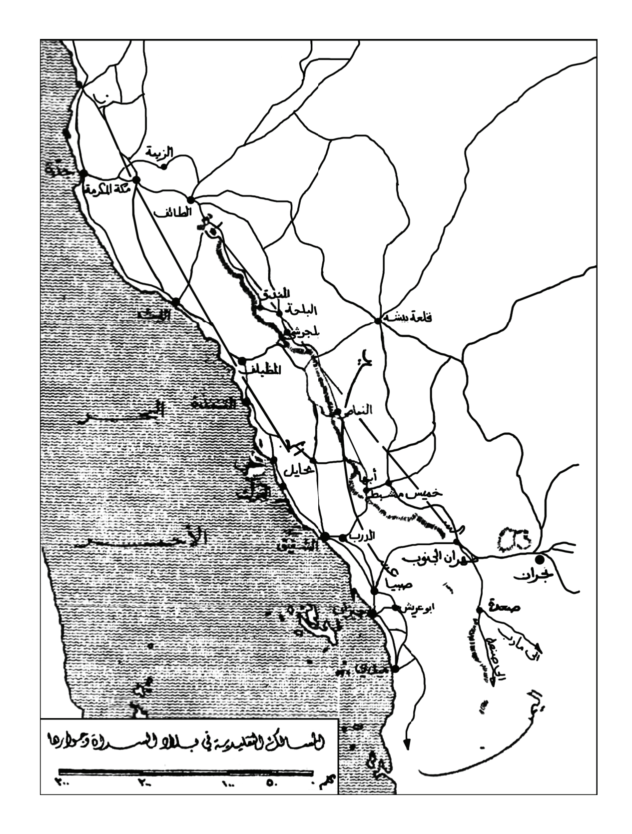
ملحق خرائط كمال الصليبي



خارطة رقم ١.

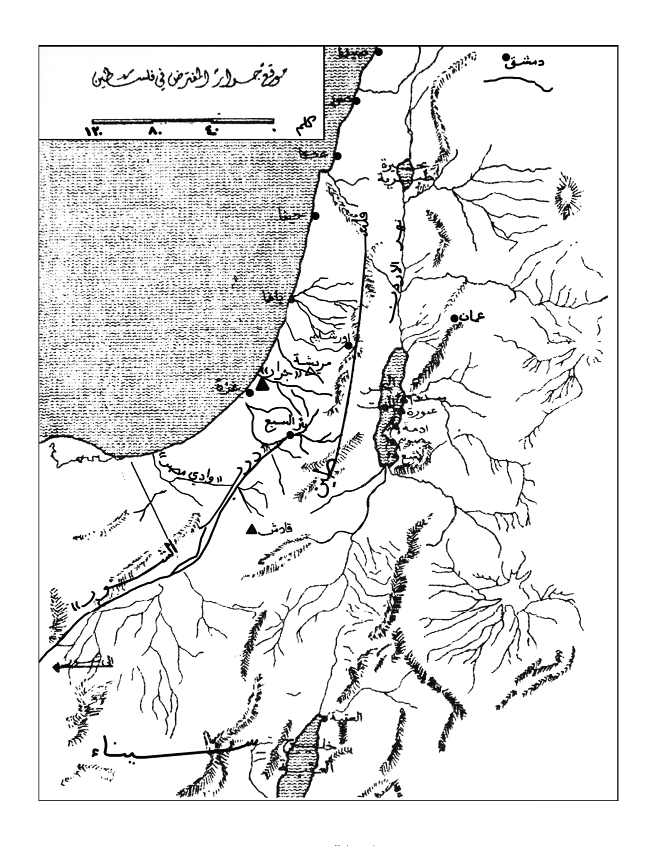


خارطة رقم ٢.

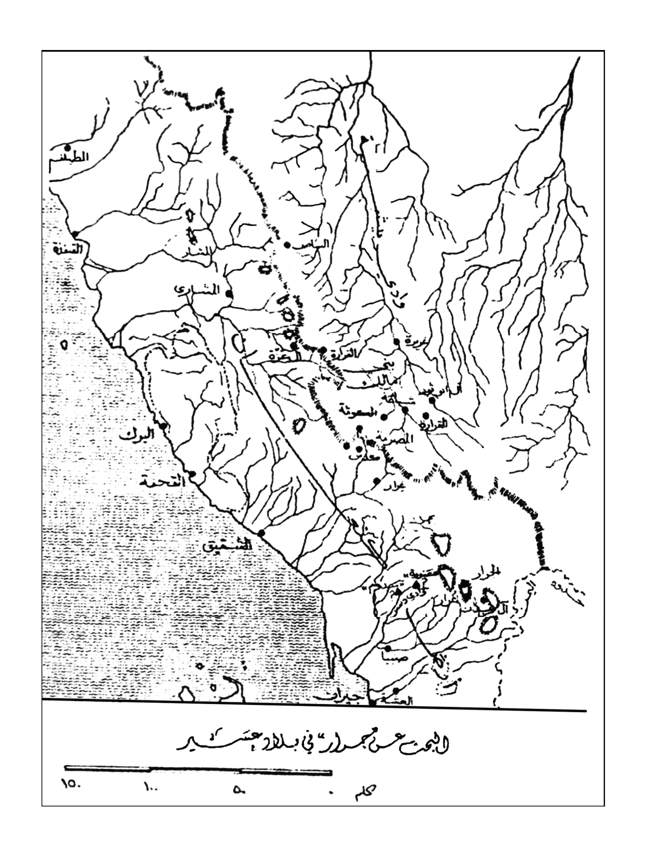


الزيمة
مكة المكرمة
الطائف
المخنق
الباحة
بلجرشي
قلعة بيشة
المظيلف
النماص
محايل
أبها
خميس مشيط
الدرب
ظهران الجنوب
نجران
صبيا
ابوعريش
صعدة
الى مارب
الى صنعاء
البحر
الأحمر
المسالك التقليدية في بلاد السراة وجوارها
كم ٠ ٥٠ ١٠٠ ٢٠٠ ٣٠٠

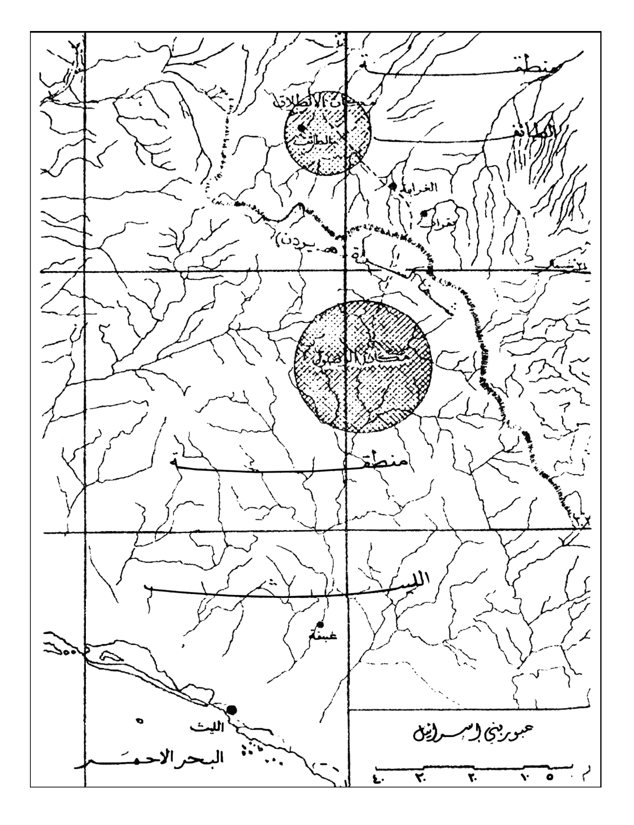
خارطة رقم ٣.


موقع جرار المفترض في فلسطين
كلم
٠ ٤٠ ٨٠ ١٢٠
دمشق
عمان
يافا
اورشليم
مريشة
جرار
بئر السبع
عمورة
ادمة
وادي مصر
قادش
شور
سيناء

خارطة رقم ٤.



خارطة رقم ٥.



منطقة
الطائف
الخرامة
منطقة
الليث
البحر الاحمر
عبور بني إسرائيل
٤٠ ٣٠ ٢٠ ١٠ ٥ ٠

خارطة رقم ٦.

مراجع البحث

Wilson A., John, Egyptian Historical Texts, in: James Pritchard, edt., Ancient Near Eastern Texts.

Matthiae, Paolo; The Mace of Hotepibra, in: Studies in the History and Archaeology of Palestine, Aleppo University, 1987.

Kenyon, Kathleen; Archaeology in the Holy Land, Methuen, London, 1985.

Matthiae, Paolo; Ebla, Hoder and Stoughton, London, 1980.

Goetze, A.; Hittite Historical Texts, in: J. Pritchard, edt., Ancient Near Eastern Texts.

Pritchard, James; Ancient Near Eastern Texts, Princeton, New Jersey, 1969.

Oppenheim, Leo; Babylonian and Assyrian Historical Texts, in: James Pritchard, edt., Ancient Near Eastern Texts.

Peiner, Erica; Akkadian Treaties, in: James Pritchard, edt., Ancient Near Eastern Texts.

Albright, W. F.; Akkadian Letters, in: James Pritchard, edt., Ancient Near Eastern Texts.

McNeil, W. and Sendlar J.; The Ancient Near East, London, 1968.

Weiss, Harvey, edt., Ebla to Damascus, Smithsonian Institute.

Strommenger, Eva; Til Barsip, in: Harvey Weiss, edt., Ebla to Damascus, Washington D.C., 1985.

Strommenger, Eva; Assyrian Domination and Aramaic Response.

Rosenthal, Franz; Canaanite and Aramaic Inscriptions, in: J. Pritchard, edt., Ancient Near Eastern Texts.

Reiner, E.; Akkadian Treaties, in: J. Pritchard, edt., Ancient Near Eastern Texts.

Kenyon, Kathleen; Digging Up Jerusalem, E. Benn LTD, London, 1976.

Kenyon, Kathleen; Royal Cities of the Old Testament, Barrie and Jenkins, London, 1971.

Kenyon, Kathleen; The Bible and Recent Archaeology, Colonnade Books, London, 1978.

Winter, Irene; Ivory Carving, in: Harvey Weiss, edt., Ebla to Damascus.

Albright, W. F.; Palestinian Inscriptions, in: J. Pritchard, edt., Ancient Near Eastern Texts.


هنداوي